بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهدي الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله وصفيّه من خلقه صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيرا وبعد..

لا شكّ أنّ أهمّ ما يُعنى به المسلم أمرُ عقيدته، وذلك أنّ العقيدة إذا صلحت صلح سائر العمل، فالعناية بأمر عقيدة المسلم ممّا يجب على كلّ مسلم، وطلب العلم لتحقيق هذه المسائل من أهمّ المهمات وأوجب الواجبات، ولهذا فإنّ العبد حينما يُوضعُ في قبره يسأل عن مسائل وهذه المسائل في الدّرجة الأولى سؤالٌ عن اعتقاده، يُسألُ من ربُّك وما دينك وما نبيّك؟ فهذه الأسئلة لها تعلّق عظيم بأمر الاعتقاد، فالعلم بها علمٌ بالجواب على هذه الأسئلة، والمتن الذي معنا – كما تعرفون – هو لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرّشاد للإمام الموفّق رحمه الله تعالى ابن قدامة رحمه الله تعالى، وطريقتنا في بيان هذه المسائل أنّ القارئ يقرأ ثمّ نُبيّن المسائل الّتي يتضمنها كلام الموفّق رحمه الله تعالى، وقبل البدء بالقراءة؛ الموفّق ابن قدامة رحمه الله تعالى أسمى رسالته هذه بالاعتقاد (لمعة الاعتقاد) واللّمعة معناها في الأصل (البُلغة) والبلغة هو الشيء القليل الذي يحصلُ به التبلُّغ، فإذاً لمعة الاعتقاد أي بُلغة من الاعتقاد الصحيح الموافق لعقيدة السّلف، وكان السّلف رحمهم الله تعالى يختصرون أمر الاعتقاد في كلمات وفي مسائل حتّى تحفظ هذه المسائل وتُدرس وتُشرح ويعنى بها، وصاحب هذه الرّسالة الإمام الموفّق رحمه الله تعالى سلك هذا المنهج في تصنيف الاعتقاد أو في التأليف في أمر الاعتقاد، والموفّق رحمه الله تعالى – كما تعرفون – بيننا وبينهُ سنوات طويلة ومع ذلك رحمه الله حصل برسالته هذه الشيء العظيم من النفع والله أعلم أنّ سبب ذلك أنّ الموفّق رحمه الله تعالى ابن قدامة أخلص النيّة في هذه الرّسالة فنفع الله بها، ولهذا طالب العلم يُذكّر بأمر إخلاص النيّة في كلّ أمر يفعله وبخاصّة في أمر طلب العلم، ولهذا لمّا ألّف الإمام مالك رحمه الله تعالى الموطّأ قيل له أُلّف الموطّأ على غِرار ما ألّفت – موطّأ الإمام مالك – فقال الإمام مالك رحمه الله تعالى كلمة عظيمة: (ما كان لله يبقى) فبقي موطّأ الإمام مالك رحمه الله تعالى، هكذا طالب العلم في طلبه للعلم لا بدّ أن يستحضر النيّة حتّى يكتبها الله

سبحانه وتعالى من المخلصين ومن الموفّقين، لأن شرط قبول العمل – كما تعرفون – الإخلاص والمتابعة للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأمرُ الإخلاص أمر عظيم وعزيز لا بدّ من تحقيقه في القلب.

المسألة المهمّة التي ينبغي بيانها قبل أن نبدأ بالقراءة؛ من هو الموفّق بن قدامة؟ طبعاً ترجمة الموفّق ترجم لهُ جمعٌ من أهل العلم، ولهذا يحسنُ بطالب العلم أن يرجع إلى كتب السّلف المطوّلة في السّير كسير أعلام النُّبلاء وغيرها من طبقات الحنابلة ليرى ترجمة هذا الإمام العلم العظيم رحمه الله تعالى صاحب هذا المتن العظيم الموفّق – على وجه من الاختصار – هو أبو محمّد موفّق الدّين عبد الله بن أحمد بن محمّد بن قدامة المقدسيّ ثمّ الدّمشقيّ، ولاحظ أنّ أهل العلم يقولون: المقدسي، يعني كان هو رحمه الله وأهله وأهل بيته كانوا يقيمون ببيت المقدس ثمّ انتقلوا بعد ذلك إلى دمشق، وُلد رحمه الله بسُنَّة إحدى وأربعين بعد الخمسمئة بجماعيل – قرية من قرى نابلس في فلسطين – ثمّ هاجر مع أهله من فلسطين وعمره عشر سنوات بعد استيلاء النّصارى على بلده، ثمّ لمّا استقرّ في دمشق طلب العلم في دمشق ثمّ رحل إلى بغداد فأخذ عن شيوخ بغداد والعراق والشّام وكان رحمه الله متميّزاً بين أقرانه فقد بزَّ أقرانه في الحفظ والعلم.

ابن قدامة رحمه الله تعالى مع ما أعطاه الله عزّ وجلّ من العلم كان مشهوراً بالعبادة وبالزّهد رحمه الله تعالى ولو قرأتم في سيرة الإمام الموفّق لوجدتم شيئاً عظيماً من هذا فكان على حال عظيم من طاعة الله عزّ وجلّ ومن الزّهد والتّقشف ومن العبادة العظيمة التي ذُكرت أو الّتي تميّز بها الموفّق رحمه الله تعالى.

الموفّق له مصنّفات كُثر، ولكن إذا أردت أن تعرف من هو الموفّق فارجع إلى الكتاب الموسوعي العظيم الذي قد يعجز أهلُ هذا العصر عن التّأليف على غِراره وهو كتاب(المغني) في الفقه، كتاب المغني في الفقه يُعتبر من أعظم مراجع الكتب الحنبلي ألّفه الموفّق رحمه الله تعالى وهو رجل واحد وله مصنّفات عديدة ولكن نذكر أشهر مصنّفات الموفّق رحمه الله تعالى، له كذلك (روضة النّاظر) في أصول الفقه اختصر هذه الرّوضة أو استسقى مادّتها من كتاب للغزالي في أصول الفقه تسُمّى (المستصفى)، وله هذه اللُّمعة؛ الرّسالة اللطيفة الّتي بين أيدينا في الاعتقاد، وله مصنّفات كثيرة مذكورة منها مثلاً (إثبات صفة العلو) (كتاب التوّابين) وحصل له بالمناسبة مناظرة مع أحد رؤوس أهل البدع في زمانه فبعد هذه المناظرة ألّفَ الموفق رحمه الله تعالى رسالة لطيفة اسمها (حكاية المناظرة) وقصّة حكاية المناظرة أنّه أراد أن يذكر ما حصل بينه وبين ذلك المبتدع

في مسألة كلام الله عز وجلّ فحكى هذه المناظرة وكتبها فسميّت أو سمّاها (حكاية المناظرة) أو سميّت بعده له، وله مصّنفات لا نطيل بذكرها فإنّ المقصد هو الإشارة إلى ترجمة الموفق رحمه الله تعالى، توفيّ الموفق سُنَّة عشرين بعد الستمئة رحمه الله تعالى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

اَلْحَمْدُ للهِ اَلْمَحْمُودِ بِكُلِّ لِسَانٍ، اَلْمَعْبُودِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، اَلَّذِي لَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ، وَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، جَلَّ عَنْ اَلْأَشْبَاهِ وَالْأَنْدَادِ، وَتَنَزَّهَ عَنْ اَلصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ، وَنَفَذَ حُكْمُهُ فِي جَمِيعِ اَلْعِبَادِ، لَا تُمَثِّلُهُ اَلْعُقُولُ بِالتَّفْكِيرِ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ اَلْقُلُوبُ بِالتَّصْوِيرِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١)، لَهُ اَلْأَسْمَاءُ اَلْحُسْنَى، وَالصِّفَاتُ اَلْعُلَا ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾(٢)، أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَقَهَرَ كُلَّ مَخْلُوقٍ عِزَّةً وَحُكْمًا، وَوَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(٣)، مَوْصُوفٌ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ اَلْعَظِيمِ، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ اَلْكَرِيمِ.

.....

المسألة الأولى: المؤلف رحمه الله تعالى والماتن سلك هذه الطريقة المختصرة في التصنيف ثم بدأ بأول ما يبدأ به أهل العلم في التصنيف وهو التسمية اقتداءً بكتاب الله الكريم واتباعاً لسُنَّة المصطفى، وهذه عادة أهل العلم؛ البدء بالبسملة ثمّ بالثناء على الله عزّ وجلّ والصّلاة والسّلام على رسوله صلّى الله عليه وسلّم، والثناء على الله عزّ وجلّ يتقدم أهل العلم بهذا في مقامات كُثُر، من ذلك مقام التأليف فإن الإنسان يثني على الله عزّ وجلّ لأنه لولا تيسير الله عزّ وجلّ للموفق رحمه الله تعالى لَمَا ألّف هذه الرسالة، والله عزّ وجلّ وفّقه إلى الاعتقاد الصحيح ويسّر له أن كتب هذه الرّسالة فهو يثني على الله عزّ وجلّ ويسأل الله تمامَ الخَلَاص والانتهاء من هذه الرّسالة على الوجه الذي يرضيه، ولهذا الإنسان يثني على الله عزّ وجلّ، وهذا حسنٌ من العبد المسلم، ويثني على الله عزّ وجلّ في مقام الدّعاء، الثناء على الله عزّ وجلّ يبتدأ الداعي بالثناء على الله عزّ وجلّ، وهذه عادة أهل العلم وعليها تدل النصوص، والموفق رحمه الله تعالى لو لاحظتم أنه ذكر من الآيات ومما تتضمن الخطبة التي افتتح بها هذه الرّسالة افتتحها بعبارات تدلّ على أنّ هذه الرّسالة هي في أمر

(١) الشورى: ١١.

(٢) طه: ٥ – ٧.

(٣) طه: ١١٠.

الاعتقاد، تصنيف في الاعتقاد وليس في مسائل الفقه أو مسائل الفروع، وهذا يسمّيه أهل العلم بَرَاعَة الاستهلال، أن تتضمن خطبة الرّسالة الموضوع الذي سوف تتحدث فيه أو سوف تصّنف فيه، وهذا يسمّيه أهل العلم براعة الاستهلال نعم.

وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي اَلْقُرْآنِ، أَوْ صَحَّ عَنْ اَلْمُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم مِنْ صِفَاتِ اَلرَّحْمَنِ وَجَبَ اَلْإِيمَانُ بِهِ، وَتَلَقِّيهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالْقَبُولِ، وَتَرْكُ اَلتَّعَرُّضِ لَهُ بِالرَّدِّ وَالتَّأْوِيلِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، وَمَا أَشْكَلَ مِنْ ذَلِكَ وَجَبَ إِثْبَاتُهُ لَفْظًا، وَتَرْكُ اَلتَّعَرُّضِ لِمَعْنَاهُ، وَنَرُدُّ عِلْمَهُ إِلَى قَائِلِهِ، وَنَجْعَلُ عُهْدَتَهُ عَلَى نَاقِلِهِ، اِتِّبَاعًا لِطَرِيقِ اَلرَّاسِخِينَ فِي اَلْعِلْمِ، اَلَّذِينَ أَثْنَى اَللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ اَلْمُبِينِ بِقَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾(١)، وَقَالَ فِي ذَمِّ مُبْتَغِي اَلتَّأْوِيلِ لِمُتَشَابِهِ تَنْزِيلِهِ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾(٢)، فَجَعَلَ اِبْتِغَاءَ اَلتَّأْوِيلِ عَلَامَةً عَلَى اَلزَّيْغِ، وَقَرَنَهُ بِابْتِغَاءِ اَلْفِتْنَةِ فِي الذَّمِّ، ثُمَّ حَجَبَهُم عَمَّا أَمَّلُوْهُ وَقَطَعَ أَطْمَاعَهُم عَمَّا قَصَدُوْهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾(٣).

.....

قول الماتن رحمه الله تعالى (وكل ما جاء به القرآن) تتضمن مسائل:

المسألة الأولى: أنّ أهل السُّنَّة رحمهم الله تميّزوا عن غيرهم من الفِرَق بالتّسليم لما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم ووجوب الاعتقاد بذلك وأن يَعْقِدَ الإنسانُ قلبه على هذا، وأن يترك التّعرض لما جاء بكتاب الله وسُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم من نصوص الأسماء والصفات وسائر مسائل الاعتقاد أن يترك التأويل أو الرّدّ أو التمثيل أو التشبيه، وهذه قاعدة محكمة ومنهج واحد بين أئمة السلف لا يختلفون، مما يميّز منهج السلف - كما سوف يأتي معنا - أنه منهجٌ مضطرد غير متناقض ولا مضطرب، تجد أن المتقدمين والمتأخرين على هذا المنهج على منهج واحد، وهو ما أشار إليه الماتن رحمه الله تعالى.

المسألة التي تليها جاء في كلام الماتن رحمه الله تعالى معنى الإحكام والتشابه والمحكم والمتشابه، وهذا الموضع يتضمن مسائل، (ما معنى الإحكام، ما معنى المتشابه، وهل في القرآن محكم، وهل في القرآن متشابه) هذه مسائل لا بدّ من تقريرها ومن بيانها.

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) آل عمران: ٧.

أولاً لا بدّمن العلم أنّ القرآن جاء وصفُه في كتاب الله عزّ وجلّ بأنه محكم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾(١) وجاء في وصفه بأنّه متشابه قال الله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾(٢) فجاء وصفه بأنه محكم وجاء وصفه بأنه متشابه، وليس بين ذلك تناقض - والحمد لله - فإنّ معنى الإحكام في الآية يعني الوضوحَ والبيان كما بيّن ذلك أهل العلم، فالقرآن كلّه واضحٌ وبيّن لجنس هذه الأمة، ومعنى التشابه في الآية الثانية أنّه يشبه بعضه بعضا من جهة تعدد الأوامر والنواهي والأخبار، ولهذا تجد أن الله عزّ وجلّ أخبر بقصة موسى مع فرعون في أكثر من موضع فهذا يعتبر على هذا الوجه من التشابه، وجاء وصفه كذلك بأنّه محكمٌ ومتشابه في آية آل عمران قال الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾(٣) فهذه الآية تُبيّن أن من القرآن آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب يعني أصل الكتاب؛ وأخرُ متشابهات، ومعنى الآية أن القرآن منه قسم محكم واضح المعنى وواضح الدلالة كما بيّنته الآية وهذا هو أصل الكتاب، أصل الكتاب وأعمّ ما في الكتاب واضح المعنى واضح الدلالة لا لبس فيه ولا غموض فيه ولا إشكال فيه، وعلى هذا أصل الكتاب، ولهذا الشرائع ما يتعلق بالصلاة والزكاة وسائر مسائل الاعتقاد وأركان الإيمان قد جاء بيانها بالمحكمات، ومن القرآن ما هو متشابه، ومعنى التشابه في هذه الآية آية آل عمران أنّه متشابه المعنى ومتشابه الدلالة، وهذا عند أهل السّنَّة هذا التشابه يسّمونه التّشابه النّسبيّ الإضافيّ، يعني قد يشتبه على بعض الأمّة دون البعض الآخر، أمّا التشابه بالمطلق فلا يكون في القرآن عند أهل السُّنَّة، ولهذا لما تلا عبد الله بن عباس هذه الآية قال: (أنا ممن يعلمون تأويله)(٤) فدّل على أنّ القرآن منه ما يخفى على بعض الأمة لكن على الأمة جميع هذا لا يكون عند أهل السُّنَّة والجماعة، فلا بدّ أن تعرف هذا الموضع، إذاً خلاصة الكلام السابق أنّ القرآن منه المحكم ومنه المتشابه، واضح، والمعنى قد بيّنا بيان المحكم والمتشابه، وآية آل عمران بيّنت أن في القرآن ما هو محكم ومتشابه

(١) هود: ١.
(٢) الزمر: ٢٣.
(٣) آل عمران: ٧.
(٤) تفسير البغوي (١٠/ ٢).

والمتشابه هو نسبيٌّ إضافيّ.

المسألة التي تليها (أنواع التشابه): هذا المتشابه أنواع، النوع الأول: ما لا يُعلم البتّة كأمر الروح والساعة وكيفية صفات الله عزّ وجلّ مما استأثر الله تعالى بعلمه، والنوع الثاني من المتشابه منه ما يعلمه أهل العلم ويخفى على بعضهم، هذا الذي أشار إليه ابن عباس (أنا ممن يعلمون تأويله) وهو الذي ذكرنا فيما سبق أنه التشابه النّسبيّ، ما المراد بالتشابه النّسبيّ يعني أنه تَرِدُ عليك آية تشتبه عليك معناها ما تفهم معناها، فيفهمها العالمُ تسأل العالم أو ترجع إلى كتب أهل العلم فيتبيّن لك معناها أما أنّ في القرآن شيء يخفى على الأمة جميع فهذا لا يقول به أهل السُّنَّة.

المسألة التي تليها من مسائل الإحكام والتشابه (هل نصوص الصفات التي وردت في كتاب الله وسُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم من المتشابه؟) أهل العلم يقولون: هي من جهة معانيها محكمة وليست متشابهة؛ واضحة الدلالة كما قد بيّن السلف رحمهم الله تعالى في هذا، فمعانيها واضحة لكن باعتبار كيفيات الصفات فهي من المتشابه، يعني كيف الله عزّ وجلّ اتّصف بهذه الصفات؟ هذا من المتشابه؛ مما لا سبيل إلى الوصول إليه، وهذا الذي ذكرنا لك أن من أنواع المتشابه منه ما لا يُعلم البتة كأمر الروح وأمر الساعة وكيفية صفات الله عزّ وجلّ، ولهذا هناك قاعدة مهمة لا بدّ من بيانها في هذا الموضع، وقد ذكر الله عزّ وجلّ أن طريقة أهل العلم وطريقة أهل الرسوخ في العلم أنهم يؤمنون بالقرآن جميعه ولا يُفرّقون بالإيمان، يؤمنون بالمحكم والمتشابه بمعنى أنه إذا ورد عليك آية اشتبه معناها عليك فماذا تفعل؟ تُؤمن بها، لا ترد النصوص، ولكن تردها إلى المحكم، ولهذا قاعدة يقولون أهل العلم: (ردّ المتشابه إلى المحكم) وأنا أُبَيِّن لك بيان هذه القاعدة، هذه القاعدة العظيمة اذا عَلِمْتَهَا وضبطتها ضبطاً جيداً تبيّن لك قاعدة عظيمة ومنهج تميّز به السلف رحمهم الله تعالى عصمهم الله تعالى بمثل هذه القواعد العظيمة من الوقوع في الانحراف في مسائل الاعتقاد، فعلى سبيل المثال ثمّ آيات متشابهة المعنى إذا اشتبه عليك معناها وعملت بها وأعرضت عن المحكم وقعت في الزيغ لأن الله قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ هن أصل الكتاب، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إذاً قسّم الله عزّ وجلّ أمر الآيات المحكمة والمتشابهة، ثمّ قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ لاحظ نسب الزيغ إلى القلب، يعني قلوبهم زاغت عن الحق وفي قلوبهم مرض الشبهة فماذا قال الله عزّ

وجلّ عنهم: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ يتبعون المتشابه ويعرضون عن المحكم ابتغاء الفتنة إما لغرض الفتنة أو ابتغاء تأويله لمعرفة تفسيره ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ فإذاً لا بد أن تعرف أن القاعدة في أصول الاعتقاد أنه إذا اشتبه عليك شيء أن ترد المتشابه إلى المحكم، وأنا أذكر لك آية على سبيل المثال قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[1] هذه الآية لمّا الخوارج قرأوا هذه الآية أعرضوا أولاً عن طريقة السلف وعابوا السلف الذين هم الصحابة وطعنوا في فقه الصحابة وفي فهم الصحابة، فأصبحوا يفهمون النصوص بأفهامهم السقيمة، وهذه الآية من المتشابه؛ المتشابه النّسبيّ الاضافي، تشابه معناها عليهم، فماذا فعلوا؟ جعلوها قاعدة وأصل وأعرضوا عن سائر النصوص، وقالوا إنّ الفاسق الملّي أو مرتكب الكبيرة خالدٌ مُخلّد في النار وحكمه في الدنيا أنه كافر حلال الدم والمال، واضح. أين النصوص الباقية؟؟ أعرضوا عنها، فلم يسلكوا ما أدّبهم الله عزّ وجلّ وعلّمهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾[2] اتّبعوا المتشابه، طيب والنصوص الثانية والنصوص الأُخر ﴿إِنَّ اللهَّ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3] والنصوص المتواترة معنىً ودلالة في أنّ مرتكب الكبيرة في الدنيا مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته وهو في الآخرة تحت المشيئة، أَعْرَضُوا عن هذه النصوص في القرآن وفي سُنَّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، هذه طريقتهم، إذاً اتبعوا المتشابه وهذا التشابه النّسبيّ الإضافي يشمل أمور الاعتقاد وحتى مسائل الفقه ومسائل كبيرة، لا تجد من ضل إلّا من أسباب ضلاله أنه اتبع المتشابه، ولهذا من فائدة طلب العلم وتعلّم العلم والقراءة على أهل العلم والأخذ عن أهل الرسوخ في العلم أنه يعصمك بإذن الله تعالى وبتوفيق الله عزّ وجلّ من الوقوع في مثل هذا، ولهذا الله عزّ وجلّ أثنى على أهل العلم قال: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[4] من هم الرّبانيّون؟ قال أهل العلم في تفسير هذه الآية: (هم الذين يعلّمون الناس بصغار العلم قبل كباره)[5] انتبه لهذا الملحظ

---

(١) النساء:٩٣.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) النساء: ٤٨.

(٤) آل عمران: ٧٩.

(٥) البخاري (٢٤/ ١).

يعلمون الناس بصغار العلم قبل كباره كيف هذا؟ يعني لو وجدت أنت (اللمعة) بين يديك هي من تعليم العلم لصغار العلم قبل كباره، لو وجدت رسائل الأئمة في الدعوة ورسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الإمام المجدد لوجدت أنهم يعلمون الناس لصغار العلم قبل كباره فإذا سلكت هذا المنهج عرفت أركان الإسلام وقواعد الإسلام ثم ترقّيت في العلم؛ عصمك الله عزّ وجلّ من الزلل، ولهذا الخوارج لمّا أعرضوا عن فقه الصحابة وقالوا: هم رجال ونحن رجال! وقعوا في الزيغ والضلال، وهكذا كل من سلك سبيلهم واقتفى أثر هؤلاء الخوارج من أهل البدع، ولهذا أصل مادة الابتداع الخوارج، أصل مادة الابتداع من طريقة الخوارج، جاء في سُنَّة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذمّ الخوارج في عشرة أحاديث في الصحيحين، جاء ذمّهم باسمهم وسماهم النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بهذه التسمية لأجل أنّهم أصل مادة الابتداع في دين الله عزّ وجلّ، ولأنهم ممن اتبعوا المتشابه، ثم غير مسائل الاعتقاد تجد أنه في بعض مسائل الفروع كمسائل الاختلاط ومسائل كثيرة جداً ومسائل الجهاد ومسائل الإيمان مسائل كثيرة متعددة تجد أنّ أهل الأهواء يتّبعون المتشابه يأتي لك بنص معين يقطعك عن سائر النصوص الباقية يريد أن يفهم النصوص بهواه وبذوقه لا بكلام أهل العلم ويقع – نسأل الله السلامة والعافية – في الزلل والضلال المبين، ولهذا لا تستغرب أن تسمع أقوالا منكرة وأقوالا شاذّة لأنه من اتبع المتشابه وقع في هذا الضلال المبين ثم – والعياذ بالله – ينسلخ عن الاسلام بالكلية، ولهذا نجد أنّ بعض الناس ممن ينتسب إلى الإسلام زعم أنّ اختلاط الرجال بالنساء أنّه مما جاءت الشريعة به ولم تأتي بالنهي عنه! كيف؟ تجد أنّه يستدل بالمتشابه من النصوص، فهذا ليس وقفاً على مسائل الاعتقاد بل في مسائل الفروع، وهكذا الضُّلّال من الليبراليين والعلمانيين والحدثيين تجد أنه يتكأ على النصوص ويتّبع المتشابه ويريد باتباعه المتشابه أن يردّ المحكم، ولهذا قاعدة عامة (اذا اشتبه عليك معنى آية أو دلالة نص فما الواجب عليك؟ أن تردّه إلى المحكم) يعني هذا الجواب الأوّلي، اذا لم تعرف عليه جواب ترده إلى المحكم، بمعنى أنّ أصول الاعتقاد أصول الإيمان أصول مسائل الفقه ثابتة فلا يمكن أن أُعْمِلَ هذا النص وأُعرض عن سائر النصوص، ولهذا قلنا: إنّ اهل العلم يعلّمون النّاس لصغار العلم قبل كباره، لهذا لو يأتينا نص معيّن ما نفهم هذا النّص فنَعْمَل بالمحكم، نرد المتشابه إلى المحكم، معنى ذلك أننا نستمسك بالمحكم وأمّا ما تشابه علينا فنردّه للمحكم، معنى ذلك أننا لا نُعْمِل هذا المتشابه

بل نستمسك بالمحكم حتّى نستطيع الجواب عن هذا المتشابه ونخرّجه على قواعد السّلف وكلام سلف هذه الأُمّة وأهل العلم، إذا عرفت هذا بان لك كثير من المسائل، نعم.

المسألة التي تليها وأشار إليها الماتن رحمه الله تعالى ذكر (نفي مشابهة صفات الله عزّ وجلّ لخلقه) وعبّر بلفظ التّشبيه، هنا مسألة هل يعبّر بلفظ التّشبيه أو بلفظ التّمثيل؟ طبعاً الأولى كما تدل النّصوص على ذلك أن يعبّر الإنسان بنفي التّمثيل لماذا؟ لأنّ نفي التّمثيل هو الذي جاء في النص، ودائماً طالب العلم يوافق النّص حتّى في الألفاظ ويبتعد عن الألفاظ المشتبهة والألفاظ الغريبة، دائماً كل ما توافق النّص الشّرعي فهو أولى، لهذا الله عزّ وجلّ نفى المثلية ولم ينفي التشبيه، لم يقل الله عزّ وجلّ (ليس له شبيه) بل قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] فأنت تعبّر بما عبّر الله تعالى به، فتقول: لا مثل له أو لا مثيل له أو ليس كمثله شيء كما جاء النّص، والكاف هنا قال أهل العلم: إنها صلة أو ما يعبّرون عنها أنها زائدة يعني ليس مثله شيء، لكن هذه المسألة تجرّنا إلى مسألة عظيمة ومهمة جداً لابد من التّركيز فيها، أن يُقال: الله عزّ وجلّ عبّر بنفي المثليّة ولم يعبرّ بنفي التشبيه لماذا؟ لأنّ نفي المثلية هو أدّق في الدلالة، لأنّ نفي التشبيه غير دقيق، وأنا أُبَيِّن لك ذلك، لأنه ما من شيء في الوجود أو من المسميّات إلّا ويوجد بينهما قدرٌ مشترك، ما من شيئين إلا ويوجد بينهما قدرٌ مشترك، وهذا القدر المشترك في المسميات، نقول: فلان عبد العزيز أو فلان حكيم؛ بينهما قدرٌ مشترك ونسمّي هذا ونصف هذا ما من شيء من المسميات أو من الأوصاف إلا ويوجد بينهما قدْرٌ مشترك، وهذا القدر المشترك لا يجوز نفيه، وهذا القدر المشترك يسمّى تشابهًا وهي المشابهة في جزءٍ بسيطٍ من المعنى، وهذا الجزء لا يجوز لك أن تنفيه، ولهذا الله عزّ وجلّ وصف نفسه بأنه بصير، أليس كذلك؟ وصف عبده بأنه بصير، وصف نفسه بأنه سميع، ووصف عبده بأنه سميع، والبصر: إدراك المسموعات، وهذا على وجه العموم، وهذه المشابهة لا تُنفى، يسميه أهل العلم القدر المشترك لمعاني الصفات، سمّى الله عزّ وجلّ نفسه بالسميع البصير وسمّى عبده بالسميع البصير، قل: فلان سميع والله تعالى سميع والعبد سميع، الإطلاق هذا في لفظ السميع والسميع بينهما قدر مشترك في الإطلاق يسميه أهل العلم: المشترك الكلي في أصل الإطلاق، فنقول: سميع وسميع، وهذا المشترك الكلي لا يوجد إلا في الأذهان في العقول فقط، أما في

(١) الشورى: ١١.

الخارج فلا يوجد كُليّاً، بل لا يوجد إلّا مُعيّناً مُختصّاً، نقول: سمع العبد، بصر العبد، بالإضافة يتميّز، أما أن يوجد مقطوعاً عن الإضافة وعن التخصيص فهذا لا يوجد، فإذاً لا بد من تخصيصه وإضافته، فإذاً كلّ المسميّات، فإذاً الله عزّ وجلّ رحيم والعبد يوصف بأنّه رحيم وبينهما تفاوت عظيم لا يمكن للإنسان أن يَقدر قدره، لكن في أصل الإطلاق أن نقول فلان: رحيم رحيم؛ التّصوّر الأولي في الذهن هذا يسمّى القدر المشترك الكلي، هذا لا يوجد إلّا في الأذهان، أما في الخارج فلا يمكن أن تتصور شيئاً إلّا بعد أن تُعاينه وتخصصه، قل سمع العبد وهكذا صفة الرحمة الرحيم تتصورها تصوراً ذهنياً من غير إطلاق، نقول لك: الرحمة تتصور تصور كلي في الذهن أما في الخارج فلا يمكن أن يوجد إلا معيناً مختصاً، وفي الخارج لا بد من إضافته حتّى يكمل التّصور وإلّا لا يكون تصوّر وهذا يسمونه أهل العلم القدر المشترك بين الموصوفات وهو اشتراكٌ ذهني أما في الخارج فلا يمكن أن يوجد إلا معيناً مختصاً، وهذا يوجد حتّى في المخلوقات أُبَيّن لك أنّه يوجد في المخلوقات – الاشتراك – مثلاً لو أقول: صفة السمع، أنا أصف النملة بأنها تسمع، وأصف الحوت وهو من خلق الله عزّ وجلّ بأنّه يسمع الأصوات فهل سمع الحوت كسمع النملة؟؟ مثلاً الأنف وهي حاسّة هل أنف الحوت كأنف النملة؟ بينهما تفاوت عظيم، فإذاً مجرد الاشتراك في الإطلاق؛ هل يعني التشابه في الخارج من جميع الوجوه؟ هذا تجده في المخلوقات، والمخلوقات بينها تفاوت عظيم، فما بالك بين الخالق والمخلوق؟ فإذاً كون الله عزّ وجلّ سمّى نفسه بأنه السّميع البصير وصف نفسه بأنه له يد، له وجه، سائر الصفات، في أصل الإطلاق هذا الاشتراك لا يعني أن يكون في الخارج مماثلاً له وإنما يسمى هذا القدر المشترك (القدر المشترك الذهني)، أما في الخارج فلا يوجد إلّا معيناً مختصاً، فإذا كانت هذه المخلوقات يوجد بينهما تفاوت عظيم فما بالك بين الخالق والمخلوق، فإذاً الله عزّ وجلّ جاء بنفي التمثيل، لأنّ نفي التشبيه على وجه الإطلاق هذا ليس بسبيل كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وحرّره في مواضع متعددة، لأنه ما من شيئين إلا ويوجد بينهما قدْرٌ مشترك، القدر المشترك الذهني أو المطلق الكلي الذي لا يوجد إلّا في الأذهان، أما في الخارج فلا يوجد إلا معيناً مختصّاً، إذًا عبّر السلف أو جاء التعبير بنفي المثلية دون نفي التشبيه لماذا؟؟ أولاً لأنّ ذلك هو الموافق لنص القرآن، وثانياً لأن التعبير بنفي التشبيه ليس بسديد على الإطلاق لأنه ما من شيئين من الموصوفات والمسميّات إلاّ ويوجد بينهما قدرٌ مشترك يسميه أهل العلم (المطلق الكلي) وهذا هو

التّصور الأولي يسميه المناطقة التّصوّر الأوّلي، ولهذا لمّا أقول لك: الرحمة، العزّة، القوّة، هذا يسمّى التّصور الكلّي وهو بالأذهان ولهذا أنا لمّا أقول لك: رحمة ولّا رحمة لا تميّز المعنى عندك تصوّر كلّي حتّى تسأل مَنْ؟ لا بدّ أن أضيفها لك وأخصصها أقول مَنْ؟ رحمة فلان، واضح، وسمعُ فلان، وإذا أضفت هذه الصفة إلى الموصوف تبيّن لك المعنى، واضح.

فإذاً كون أنّ الله عزّ وجلّ سمّى نفسهُ بأسماء مسمّى مخلوقاته، أو وصف مخلوقاته بصفات ووصف نفسه بصفات لا يعني بذلك التماثل، بل تعالى الله عن ذلك، ولهذا قال الله عزّ وجلّ آية عظيمة تتضمن أدلة كثيرة جداً وقواعد عظيمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] بيّن الله عزّ وجلّ أنّه لا مثيل له، ثم وصف نفسه بالسمع والبصر؛ أنه السميع البصير ولهذا لا يمكن للإنسان - كما سوف نبيّن - أن يحيط بكيفية صفات الله عزّ وجلّ ولهذا تَرِدُ معنا قاعدةٌ يُسميها أهل العلم (قطع الطمع عن إدراك كيفية الصفات) لا بد أن تعرف أنك عاجز ومنقطع ولا يمكن أن تصل لشيء في إدراك كيفية صفات الله عزّ وجلّ، وهذا من عظمة الرّبّ سبحانه وتعالى، ولهذا أهل السُّنَّة أكثر تعظيماً لله عزّ وجلّ من أهل البدع، لأنهم يَقدرون الله حقّ قَدْرِه سبحانه وتعالى فيما يتعلق بصفات الله عزّ وجلّ، فإذاً لا يُشبه عليك أهل البدع يقولون: إن الله عزّ وجلّ سمّى نفسه بأسماء أو وصف نفسه بصفات، كون الله عزّ وجلّ له وجه له يد، قطعاً تعتقد هذا اعتقادا في القلب أنّ يد الله سبحانه وتعالى ليست كيد المخلوق، وأنّ الاشتراك في المسمّى هذا فيه تصوّر كلّي وأما في الخارج فلا يوجد إلاّ معيّناً مختصاً، ولهذا أنا أمثل لكم بصفة؛ أليس الله عزّ وجلّ سميع وبصير ومتكلّم؟ انظر إلى صفة السّمع وانظر التفاوت بين المخلوق والخالق في حديث المجادلة التي جاءت إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تشتكي زوجها وهي خولة جاءت إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم - وعائشة في الحجرة - وكانت تشتكي إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابها لمّا ظاهر منها أوس بن الصامت؛ فتقول عائشة: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في ناحية البيت - يعني في الحجرة - يخفى عليّ بعض حديثه فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾[2] وأنزل الله فَرَجَهَا وهو فوق سبع

(١) الشورى: ١١.

(٢) المجادلة: ١.

سماوات[1]، إذاً هناك فرق عظيم بين سمع المخلوق وهي عائشة وبين سمع الباري سبحانه وتعالى مع أنّ عائشة موصوفة بأنها تسمع والرب سبحانه وتعالى موصوف بأنه سميع، وهكذا القاعدة في سائر مسائل الصفات؛ أنك تعرف أن التصور الكلي هو ما يسمى القدر المشترك، وأما في الخارج فلا يوجد إلا معيناً مختصاً وهذا الاشتراك لا يعني المشابهة لا يعني المماثلة وإنما هو اشتراك ذهني، التصورات الأولية التي أعطاك الله عزّ وجلّ وجبلك عليها.

ثم قال الماتن رحمه الله تعالى: عند المناطقة المطلق الكلي أو ما يسمّى التّصورات الأولية هذا هو التّصور، عند المناطقة التصور هذا يوجد في الأذهان، التّصور الأولي يوجد في العقول فقط أما في الخارج فلا يوجد إلاّ معيناً مختصاً مضافاً، سمع العبد؛ سمع الخالق، سمع فلان غير سمع فلان، حتّى المخلوقات تجد بينهم تفاوت أم لا؟ فلان يسمع وفلان يسمع بينهما تفاوت فهم مخلوقات، واضح، فإذاً كون الله عزّ وجلّ سمّى نفسه بما سمّى به خَلْقَه، أو وصف نفسه بما وصف به المخلوق لا يعني ذلك المماثلة تعالى الله عن ذلك ولهذا الله عزّ وجلّ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2] تضمنت الآية الرد على طائفتين المثلة الذين شبّهوا الله عزّ وجلّ بخلقه ومثّلوا الله عزّ وجلّ بخلقه؛ والمعطّلة الذين نفوا صفة الله عزّ وجلّ لأنهم ظنوا أن الاشتراك في المسميّات يعني الاشتراك في الخارج، لهذا مثلا الله عزّ وجلّ وصف نفسه بأنه يغضب ووصف المخلوق بأنه يغضب فهل غضب الرّب سبحانه وتعالى كغضب المخلوق؟ بينهما تفاوت عظيم، فأهل البدع جاءوا إلى صفة الغضب – بزعمهم أنهم ينزّهون الله عزّ وجلّ عن ما لا يليق بجلاله – فنفوا هذه الصفة، والله عزّ وجلّ هو الذي أخبرنا أنه يغضب ﴿غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[3] عبارة واضحة الدلالة واضحة المعنى، ولا يعني الاشتراك في هذا المسمى أن يكون الاشتراك مماثلا ومطابقا واضح.

قال الماتن رحمه الله تعالى: وجب إثباته لفظاً، هذا مما لوحظ على الموفق رحمه الله تعالى، وجه الانتقاد أن الواجب الإيمان باللفظ والمعنى، أما الإيمان بمجرد اللفظ فهذا قول المفوّضة، وهؤلاء طائفة من أهل البدع،

---

(١) صحيح. ابن ماجه (٢٠٦٣). صحيح ابن ماجه (٢٠٦٣). ورواه البخاري (١١٧/ ٩) تعليقا.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) المجادلة: ١٤.

وهم من شر الطوائف كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وحاشا المؤلف أن يكون منهم، ولكن ربما هذه عبارة لم يحرّرها الموفق رحمه الله تعالى أو نقول أو قد تكون من تصرّف بعض النسّاخ قد يكون والله أعلم، لكن الموفق رحمه الله تعالى على منهج السلف وعلى طريقة السلف وهم من أبعد الناس عن التفويض كما سيتبين من خلال عباراته رحمه الله تعالى، أما هؤلاء المفوّضة؛ فهؤلاء ماذا يقولون؟ يقولون في أسماء الله عزّ وجلّ وصفاته يعني ما أخبر الله عزّ وجلّ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] مثلاً يؤمنون به لفظاً وأما يقولون لا معنى له، هذا والعياذ بالله يتضمن أن القرآن جاء بما لا يُعلم وبما لا يفهم وهذا الحقيقة تعطيل للشريعة وتكذيبٌ لنصوص الله عزّ وجلّ، لهذا المفوّضة من شر الطوائف يؤمنون بها ألفاظا، وكأنّ الله عزّ وجل كلمنا بكلام لا نفهمه، كلام يخفى علينا، كلام أعجمي مع أنه كلام عربي واضح المعنى، هؤلاء هم المفوّضة، والمفوّضة يأتي إن شاء الله الكلام على هذه المسألة في أنّ مسلك التفويض هذا مسلك موجود عند طوائف من أهل البدع ومن هؤلاء الأشاعرة كما سوف نبين إن شاء الله تعالى، فإذاً تفهم أن المفوّضة طائفة من البدع ماذا يقولون؟ يقولون مثلاً السميع البصير يؤمنون به مجرد لفظ ولا يقولون أن تحت هذه الالفاظ معاني كأنّه كلام أعجمي غير مفهوم، وهذا حاشا المؤلف أن يكون من هؤلاء، هؤلاء طائفة ضلّت عن هذا الصراط المستقيم، ولهذا طوائف من أهل البدع ظنوا أن مذهب المفوّضة هو مذهب أهل السلف كما سوف أُبيّن في المسائل التي سوف تأتي، ظنوا أنّ مذهب المفوّضة هو مذهب أهل السلف، ومذهب السلف بعيد كل البعد عن مسلك المفوّضة كما قد بيّنه أهل العلم وكما ظهر في عباراتهم، والإمام مالك رحمه الله تعالى لما سُئل عن الاستواء قال: الاستواء معلوم، لم يقل أُؤمن به لفظاً! قال: معلوم يعني معناه معلوم في الدلالة بلغة العرب وله معاني معروفة، والكيف مجهول، فإذاً منهج السلف الإيمان بمعاني هذه النصوص، وأما ما يفوّضونه هو الكيفية، ولهذا بعض أهل العلم يقولون: إن المفوضة قسمان، هذا تعبير غير دقيق، المفوضة طائفة واحدة هم شرُّ طوائف البدع، أما مصطلح التفويض هذا فيطلق على معنيين؛ صحيح، يقال: تفويض المعاني، وتفويض الكيفية كما سوف أبين لك إن شاء الله فيما بعد، واضح.

فإذاً تفويض المعاني هذا مذهب المفوضة، وتفويض الكيفية مسلك السلف، أنهم يفوضون الكيفية

---

(١) طـه:٥.

يقولون: هذا مما لا تصل العقول إلى معرفته، كيف اتصف الله عزّ وجلّ بهذه الصفات؟ هذا لا يمكن، ولهذا عندهم قاعدة (قطع الطمع عن إدراك كيفية الصفات) لهذا يأتي الشيطان- أعاذنا الله منه - إلى الإنسان يحاول أن يدخل عليه من هذا الباب، فإذا أوصد عليه الباب وقال: (قطع الطمع عن إدراك كيفية الصفات) استراح من وسوسته في هذا الباب، ولهذا سوف يبين المؤلف رحمه الله تعالى في مسألة أن الإنسان مهما حاول أو دخل إلى هذا المعترك لا يصل فيه إلى شيء.

من المسائل المتعينة أن تبحث في هذا الموضع مسألة التأويل في قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾[1] أولاً نقول: إن التأويل يأتي بمعان:

المعنى الأول: ما تؤول إليه حقيقة الشيء يعني الحقيقة التي تؤول إليها من الأسماء أو الأحداث، الحقيقة التي يؤول إليها الشيء، هذا يسمى تأويلا، ولهذا تأويل الأخبار إذا وصلك خبر يكون بوقوعها، إذا أخبرك إنسان عن خبر سوف يكون كذا وكذا، تأويله يكون بوقوعه والأحكام بإيقاعها الأحكام الشرعية وغيرها الوضعية بإيقاعها وأحكام الحدود وغيرها بوقوعها وإيقاعها على المكلف، هذا هو معنى التأويل، المعنى الأول: الحقيقة التي يؤول إليها الشيء.

المعنى الثاني في القرآن يأتي في معنى التفسير، ولهذا في دعاء النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابن عباس دعا له «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[2] والتأويل هنا التفسير، تفسير القرآن، تأويل القرآن ولهذا ابن جرير رحمه الله تعالى سمى كتابه (جامع البيان في تأويل آي القرآن) يعني تفسير القرآن، وتأويل الشيء الحقيقة التي يؤول إليها الشيء، واضح، وقد جاء هذا المعنى وذاك في كلام الله عزّ وجلّ.

ثَمّ مصطلح آخر للتأويل لا بد أن تعرفه وهو مصطلح مُحْدَث لم يعرفه السلف، وهو ما يسميه علماء أصول الفقه (صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى غيره لقرينه)، فهذا المصطلح لا يجوز أن يُسَلَّط على نصوص الصفات، ماذا فعلَ أهلُ البدع وأهل الأهواء وأهل الكلام سلّطوا هذا المصطلح على نصوص الصفات فدخلوا في تأويل نصوص الصفات بهذا المصطلح، ولهذا نفوا ما أثبته الله عزّ وجلّ لنفسه لأجل

(١) آل عمران: ٧.

(٢) صحيح. أحمد (٢٣٩٧). الصحيحة (٢٥٨٩).

هذا المصطلح الحادث ولهذا قال جمعٌ من أهل العلم: إن هذا المصطلح حادث لم يحدث إلا بعد القرون المفضلة، فإذاً التأويل الصحيح يقال: قسمين، أما القسم الحادث هذا لا يجوز أن يسلّط على نصوص الصفات، وهذا مما أوقع أهل البدع في الضلال المبين لمّا تسلّطوا بهذا المصطلح على نصوص الصفات، ولهذا قد يُقبل بمسائل الفقه، أو في فروع الدين ولكن أن يطرد في كل شيء فهذا يتضمن يعني لو افترضت هذا لأبطلت الشريعة لهذا لمّا سلّط الأشاعرة والماتريدية هذا المصطلح – مصطلح التأويل – صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر إلى غيره لقرينه أو ما يسمونه لدليل راجح؛ تسلّط عليهم بسببه الفلاسفة، الدهرية الذين ينتسب بعضهم إلى الإسلام قالوا: أنتم الآن أنتم تتعاملون مع النصوص والصفات بهذا المصطلح، طيب اطردوا هذا المصطلح في سائر ما أخبركم الله عزّ وجلّ به، تعالَ إلى الساعة، الحوض، الجنة، النار، اصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى غيره لقرينه، وتضمن ماذا ؟ إبطال الشريعة، ولهذا الفلاسفة المنتسبين للإسلام كابن سينا وغيرهم تجد أنه يتأول الجنة بأنها النعيم النفسي والنار بأنها العذاب النفسي ـ طرداً لهذا المصطلح الخاطئ المحدث الذي لم يعرفه السلف وهو محدث على منهج السلف ومحدث في دين الله عزّ وجلّ، هكذا البدع دائماً تبدأ صغاراً ثم تصير كباراً إلى أن يتضمن ذلك – والعياذ بالله – الخروج عن الشريعة.

مصطلح التأويل الحادث يسمونه (صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه – أو عن ظاهره – إلى غير لقرينه) مثلاً صفة الغضب (غضب الله عليه) يقولون: الغضب إرادة الانتقام أو غليان دم القلب في المخلوق، قبل ذلك يقولون: الله عزّ وجلّ منزهٌ عن ذلك إذاً ماذا؟ يقولون: نتأول هذه الصفة بأن نقول غضب الرّب سبحانه وتعالى هو إرادته الانتقام، هذا تأويل، واضح، فاللفظ واضح الله عزّ وجلّ يغضب ومع ذلك يتأولّونه إلى معنى آخر لقرينة كما يزعمون، والاستواء سائر ما أخبر الله عزّ وجلّ به، واليد: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1] مثلاً ينفون صفة اليد لماذا؟ يقولون: هذا معناه اللفظ المتبادر يتضمن كما يزعمون التجسيم – تعالى الله عما يقولون – فلهذا يقولون هذه مشابهة لله عزّ وجلّ بخلقه كيف يكون لله يد؟! تعالى الله عما يقولون، فإذاً نقول: اليد صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لغيره لقرينه، فيأتون يبحثون في لغة

(١) الفتح: ١٠.

العرب أن اليد تطلق على القوة، يفسرونها بالقوة، يتأوّلونها بالقوة، أو يقولون اليد النعمة ويتأوّلونها بالنعمة لقرينة فيما يزعمون من شعر العرب أو دليل عندهم راجح، فهذا المعنى وهذا المصطلح خاطئ وجناية على النصوص ولو طُرد هذا المصطلح لتضمّن ذلك إبطال الشريعة، ولهذا قلت لك إن الفلاسفة المنتسبين للإسلام قالوا: اطردوا هذا المصطلح في سائر الأمور، لماذا أنتم توقفونه فقط على نصوص الصفات؟ اجعلوه في سائر ما أخبركم الله عزّ وجلّ، الحوض، الجنة والنار، ولهذا الأشاعرة وهم من أشهر الفرق في هذا الباب في مسألة التأويل تصنيفاً وتأليفاً؛ تجد أنهم يتناقضون، تجد أنهم في نصوص الصفات يتأولون ويسلكون هذا المسلك، أما ما جاء من مسائل البعث والجنة والنار سلكوا مسلك السلف هذا تناقض منهم، واضح، ولهذا ذكرت لك أن مذهب السلف مطّرد وغير متناقض أما مذهب هؤلاء المبتدعة فإنه متناقض.

قَالَ اَلْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اَللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ رحمه الله فِي قَوْلِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اَللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ اَلدُّنْيَا»(١) و «إِنَّ اَللَّهَ يُرَى فِي اَلْقِيَامَةِ»(٢) وَمَا أَشْبَهَ هَذِهِ اَلْأَحَادِيثِ نُؤْمِنُ بِهَا، وَنُصَدِّقُ بِهَا، لَا كَيْفَ، وَلَا مَعْنَى، وَلَا نَرُدُّ شَيْئًا مِنْهَا، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ اَلرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم حَقٌّ، وَلَا نَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَلَا نَصِفُ اَللَّهَ بِأَكْثَرَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، بِلَا حَدٍّ وَلَا غَايَةٍ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٣)، وَنَقُولُ كَمَا قَالَ، وَنَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، لَا نَتَعَدَّى ذَلِكَ، وَلَا يَبْلُغُهُ وَصْفُ اَلْوَاصِفِينَ، نُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ كُلِّهِ مُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ، وَلَا نُزِيلُ عَنْهُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ لِشَنَاعَةٍ شُنِّعَتْ، وَلَا نَتَعَدَّى اَلْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ كُنْهُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَصْدِيقِ اَلرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وَتَثْبِيتِ اَلْقُرْآنِ.

.....

قال الماتن رحمه الله تعالى وأورد كلام الإمام أحمد، قال الإمام أحمد عبارة (لا كيف ولا معنى) طبعاً هذا يعني مما أشكل على المؤلف أو انتُقِدَ على المؤلف في إيراده لهذه العبارة، وقد بيّنت لك فيما سبق أن الموفق رحمه الله تعالى بعيد عن مسلك المفوّضة، وأن هذه الرسالة من أوّلها لآخرها فيها ردّ على طوائف من هؤلاء المفوّضة، ولهذا عبارة الإمام أحمد (لا كيف ولا معنى) ما المراد بها؟ طبعاً نحن نقول إنّ النصوص والصفات لها معان فما المعني الذي نفاه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في عبارته السابقة، المعنى الذي نفاه الإمام أحمد ليس هو معاني الصفات، فحاشا الإمام أحمد أن يقول بذلك – وهو إمام أهل السُّنَّة – ولكن المعنى الذي أحدثته الجهميّة، المعنى الذي نفاه الإمام أحمد (لا كيف) هذا واضح يعني أنه لا يمكن أن تصل إلى كيفية الصفات، وتفوّض الكيفية، ولكن المعنى الذي نفاه الإمام أحمد هو المعنى الذي أحدثته الجهمّية وصرفوا به النصوص عن ظاهرها، كجعلهم معنى صفة اليد القوّة أو النعمة، وهذا حدث في زمن الإمام أحمد، ويدلّ على هذا أنه قال قبل ذلك: لا كيف، ليتضمن كلامه رحمه الله تعالى الرد على طائفتين من المبتدعة، الطائفة الأولى المعطّلة والطائفة الأخرى المشبّهة الممثلة، فإذاً كلام الإمام أحمد يتّفق مع قواعد السلف ولا يتناقض بحمد الله،

(١) صحيح البخاري (١١٤٥).

(٢) صحيح البخاري (٥٥٤) بنحوه.

(٣) الشورى: ١١.

فالمعنى الذي لو سألك سائل عن عبارة الإمام أحمد ما معنى (لا كيف ولا معنى)، تقول الإمام أحمد قطعاً يقول بأن نصوص الصفات لها معاني، بل هو رحمه الله تعالى أوذي وتُسلّط عليه بسبب الدفاع عن عقيدة السلف ومنهج السلف، بل الإمام أحمد رحمه الله تعالى هو العمدة في بيان عقيدة السلف، وعبارته هذه تُفهم بالفهم الصحيح أن نفي المعنى الذي نفاه الإمام أحمد هو المعنى الذي أحدثته الجهميّة، يعني: معاني نصوص الصفات، طائفة شبّهت الله عزّ وجلّ بخلقه ومثّلته بخلقه، هؤلاء هم المشبّهة، هؤلاء وجدوا في عصر الإمام أحمد، وهشام بن الحكم الرافضي كان من أوائل الممثلة وزعم أن الله عزّ وجلّ له يد كيد المخلوق وله عين كعين المخلوق وسائر الصفات – تعالى الله عمّا يقول – هذا قطعاً كفر بالله عزّ وجلّ، فهذا المنهج (لا كيف) يعني أن الله عزّ وجلّ ليس له مثيل سبحانه وتعالى؛ لا كما يقول هؤلاء الممثلة، لا كيف، ردّ على ماذا؟ الممثلة المشبّهة في قوله (لا كيف)، (ولا معنى) الردّ على المعطلة، ومنهم الجهميّة الذين ماذا؟ جعلوا هذه الصفات لها معاني، صرفوا اللفظ عن ظاهره لمعاني أخرى تخالف ظاهر اللفظ، مثلاً اليد قالوا: القوة أو النعمة، والاستواء قالوا ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[1] استولى، هذه معاني، هذا الذي يريده الإمام أحمد رحمه الله تعالى في ردّه على هذه الطوائف، ثم بيّن الإمام أحمد رحمه الله تعالى القاعدةَ في نصوص الصفات وأن الإنسان يسلك في هذا المسلك مسلك السلف رحمهم الله تعالى ولا يَعْتَبِرُ بشناعة الشانعين والمشنّعين على هذا المنهج، هؤلاء خالفوا النصوص ولا عبرة بكلامهم، ثم أورد الماتن رحمه الله تعالى كلام الإمام الشافعي.

(١) طه: ٥.

قَالَ اَلْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اَللَّهِ؛ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ اَلشَّافِعِيُّ رحمه الله: آمَنْتُ بِاَللَّهِ وَبِمَا جَاءَ عَنْ اَللَّهِ عَلَى مُرَادِ اَللَّهِ، وَآمَنْتُ بِرَسُولِ اَللَّهِ، وَبِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اَللَّهِ، عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اَللَّهِ.

وَعَلَى هَذَا دَرَجَ اَلسَّلَفُ، وَأَئِمَّةُ اَلْخَلَفِ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى اَلْإِقْرَارِ وَالْإِمْرَارِ وَالْإِثْبَاتِ لِمَا وَرَدَ مِنْ اَلصِّفَاتِ فِي كِتَابِ اَللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم ، مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِتَأْوِيلِهِ، وَقَدْ أُمِرْنَا بِالِاقْتِفَاءِ لِآثَارِهِمْ، وَالِاهْتِدَاءِ بِمَنَارِهِمْ، وَحُذِّرْنَا اَلْمُحْدَثَاتِ، وَأُخْبِرْنَا أَنَّهَا مِنْ اَلضَّلَالَاتِ، فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه سلم: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ اَلْخُلَفَاءِ اَلرَّاشِدِينَ اَلْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ اَلْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

.....

قال الماتن رحمه الله تعالى وأورد كلام الشافعي (آمنتُ بالله وبما جاءَ عن الله على مرادِ الله) هذه قاعدة مهمة وهو أن ما جاء في كتاب الله وفي سنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم نؤمن به على ما أراد الله عزّ وجلّ من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف اتباعاً لأمر الله عزّ وجلّ لأن الله عزّ وجلّ قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾(٢) آمنّا بالمحكم والمتشابه، وهكذا نؤمن بنصوص الصفات وُفق ما أخبر الله عزّ وجلّ وما أخبر رسوله صلّى الله عليه وسلّم بذلك، إذاً لو قال لك قائل: كيف تؤمنون بهذا؟ نحن لا نتجاوز القرآن ولا السُّنَّة، ولهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أوصانا بسلوك هذا المنهج، هذا ما يميز منهج السلف أنهم يقفون حيث وقف الصحابة والتابعون لهم بإحسان، لا يتجاوزون القرآن ولا السُّنَّة، ولهذا لو يأتي شخص يصف الله عزّ وجلّ بصفة ليست في كتاب الله وليست في سُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم فقوله مردود، وما أخبرنا الله عزّ وجلّ به وما أخبر به رسوله صلّى الله عليه وسلّم من نصوص الصفات حق لا مِرْيَة في ذلك، ونعتقد بمعانيها وأنها تحتمل معاني، وأما كيفية هذه الصفات فهذا مما استأثر الله تعالى بعلمه، ولا يمكن أن نصل إليه، ولهذا (قَطْعُ الطمع

(١) صحيح. الترمذي (٢٦٧٦). صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٢) آل عمران: ٧.

عن إدراك كيفية الصفات) إذا فهمت هذه القاعدة عرفت أنّك تسلك المنهج الصحيح الذي درج عليه سلف هذه الأمة، ولهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخبر أنّ هذا الافتراق عن هذا السبيل سوف يحدث في هذه الأمة، فأخبر أن اليهود افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وهذه الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلّها في النار إلّا واحدة، جاء وصفها ما أنا عليه اليوم وأصحابي(١)، يعني الصحابة مسلك الصحابة ومنهج الصحابة والتابعين أنت على هذا المنهج اسلك هذا المسلك، كل ما لم يقل به الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولم يقل به أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأعرض عنه، واسلك هذا المسلك، لأن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أوصاك بذلك، فقال في حديث العرباض بن سارية «إنه من يعش منك – الخطاب لمن لأصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم – قال: فسيرى اختلافاً كثيرًا» النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يخاطب الصحابة ويقول: فسيرى اختلافا كثيرا، وهذا الاختلاف شمل اموراً متعددة، أمور العبادات، أمور العقيدة، أمور كثيرة جداً، فسيرى اختلافاً كثيرا، فما المخرج «فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» إذًا أثنى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على مسلك السلف وأول من يصدق عليهم أنّهم سلف من هم؟ الخلفاء الرّاشدون رضوان الله عليهم وصحابة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ هذا المسلك إذا سلكته عصمك الله عزّ وجلّ من الفتن ومن الضلالات، فاسلك هذا المنهج حتى يحصل لك النجاة، لأن هذه الفِرَق هالكة في النار – أعاذنا الله وإياكم من النار –، فلا بد أن تأتي على هذا المنهج، وتسلك هذا المنهج وأن تتعرف على هذا المنهج، وهذا المنهج السلفي انظر كم بينك وبين ابن قدامة الموفق رحمه الله تعالى، بينك وبينه أكثر مما يقارب ثمانمائة سُنَّة ومع ذلك منهج واحد، عقيدة واحدة هي عقيدة الصحابة والتابعين، فكن على هذا المنهج حتى يعصمك الله عزّ وجلّ من الضلال، ولا تتعدى على أمر الله وأمر رسوله صلّى الله عليه وسلّم، فهذه المناهج المحدثة باطلة، مخالفة لمنهج السلف، ولهذا لا تجد طائفة من طوائف أهل البدع ينتحلون مذهب السّلف إلا أهل السّنة والجماعة وهم السّلفيون، وأما ما عداهم فلا ينتحل منهج السّلف بل يتبرأ من منهج السّلف ويعيب السّلف ويطعن فيهم، أو يُجَهّل السّلف كما يفعل الأشاعرة حينما يعتقدون أن منهج السّلف هو التفويض، ولهذا لهم عبارة سوف نأتي إن شاء الله عزّ وجلّ

(١) حسن. الترمذي (٢٦٤١). صحيح الجامع (٩٤٧٤).

على نقضها بالبيان، يقولون: (منهج السّلف أسلم ومنهج الخلف أعلم وأحكم) لماذا؟ سوف نُبين إن شاء الله، فإذاً ليس ثمَّ طائفة تنتحل هذا المنهج وتنتسب إلى السلف إلا أهل السُّنَّة والجماعة – السلفيون – أهل الأثر الذين بحمد الله عزّ وجلّ لا يجاوزون كلام الله وكلام رسوله صلّى الله عليه وسلّم في مسائل الصفات، وسوف يأتي بيان ذلك إن شاء الله.

أسئلة:

- سؤال: ؟؟؟

الجواب: طبعاً السلف رحمهم الله قالوا: (أمرّوها كما جاءت) هكذا عبارة السلف رحمهم الله، أمروها كما جاءت، يعني الإمرار أن لا تبحث في الكيفية ولهذا الإمام مالك - كما سوف نأتي إن شاء الله عليه بالبيان - لّما سئل عن الاستواء، هذا السائل لم يُمرّها كما جاءت، فقال للإمام مالك وجاءه في حلقته فقال: الاستواء ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1]، كيف استوى؟ - هذا لم يمرّها كما جاءت -، فالإمام مالك - هذا السؤال مبتدع - لّما سئل عن هذا أو عن هذه المسألة أطرق حتى عَلَتْهُ الرّحضاء، حتى عرق، لماذا؟ لأن السائل لم يُمِرَّ هذه الصفة كما جاءت في كلام الله عزّ وجلّ، الإمرار يعني أن لا تبحث عن كيفيّتها، تعتقد أن لها معنى، الله عزّ وجلّ لا يخاطب الناس بما لا يعقلون، لها معاني، وهذه المعاني التي تضمنت أو تتضمنها هذه الصفة أو الصفات لا يعني المماثلة ولا المشابهة لخلقه سبحانه وتعالى قطعاً، لأن الله عزّ وجلّ لا سَمِيَّ له ولا ندّ له ولا مثيل له، وقد جاء بيان ذلك في كلام الله عزّ وجلّ، هذه قاعدة، فكون لها معاني لا يعني أن تكون مماثلة لصفات المخلوقين، وقلنا لك فيما سبق القاعدة التي بيّنّا فيها أن القدر المشترك الكلي إنّما يوجد في الأذهان، وأمّا في الخارج فلا يوجد إلا معيناً مختصاً، وهذا الإطلاق يسمونه المطلق الكلي، وهو ما نسميه التصورات الأوليّة، مجرد ما أطلق اللّفظ هذا تضمن معنى في الذهن أو تصور في الذهن، وأما في الخارج فلا يمكن، فبينهما تفاوت، إذا كان التفاوت بين المخلوقات فما بالك بين الخالق والمخلوق سبحانه وتعالى، ونضرب لك مثالا، فدائماً الشيء إذا رُبط بالحسيّات تتبيّن المثال، أنا الآن قد أحدثك عن الكون وما يسميه علماء الهيئة هذه الأجرام السماوية، أنا لو أبدأ أحدثك بلغة الأرقام الآن لا تستطيع أن تتصوّر هذا، لو أقول لك كم بيننا وبين الشمس؟ كم بيننا وبين الزهرة؟ كم بيننا المرّيخ؟ لغة الأرقام أنت لا تستطيع أن تتصورها، يسمّونها الأرقام الفلكية، ولو نظرت الآن لما يصوّرونه من الكون الفسيح، لا تستطيع أن تتصوّره بعقلك، الآن الكون هذا بما فيه والنجوم هل تستطيع أن تتصوّره؟ لو أحدثك أقول لك: كم بيننا وبين الشمس؟ كم بيننا وبين القمر؟ لا تستطيع، لماذا؟ لأن ذهنك لا يستوعب، عقلك قاصر عن استيعاب هذه الأعداد وهذه

(١) طه: ٥.

الأرقام، تقف، هذه وهي ماذا؟ مخلوقات، فما بالك بالخالق سبحانه وتعالى، لهذا عقل الإنسان قاصر ومحدود، ولهذا قاعدة مهمّة جداً – بإذن الله إذا فهمتها عصمك الله عزّ وجلّ من باب الضلال في مسائل الاعتقاد – (الإيمان بمحدودية عقل الإنسان) لا بدّ أن تؤمن بأن عقلك محدود بحواسّك، الآن عقلك محدود بالحواس، أنا الآن أكلّمك بهذا المسجد عقلي محدود بالحواس؛ بما أبصر وبما أسمع، لكن ما سوى ذلك، فمثلاً هذه السيارة بالخارج ماذا يحدث هناك؟ لا أعرف، محدود عقلك، محدود بما أعطاه الله عزّ وجلّ بالتصوّرات لا تستطيع أن تتصوّر، حتى المخلوقات يا عبد الله يا ابن آدم يا ضعيف لا تستطيع أن تتصوّر هذا، فما بالك بالخالق سبحانه وتعالى خالق هذه المخلوقات، العظيم، ولهذا كلّما بحثت هذه المسائل في كلام الله ونصوص والصفات وتعلّم مسائل الاعتقاد؛ تزيدك إيماناً بالله عزّ وجلّ وخشية، ولهذا المخلوق لا يمكن أن يقدر الله حقّ قدره ولهذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] الخلق لا يقدرون الله حقّ قدره ولا يستطيعون سبحانه وتعالى، ولكن حسب الإنسان أن يمتثل ما جاء في كلام الله وكلام الرسول، فـ (أمرّوها كما جاءت) أي لا تسأل عنها بكيف، وتؤمن بأن لها معاني وهذه المعاني لا تعني المماثلة قطعاً.

– سؤال: ؟؟؟

الجواب: هذه العبارة لا إشكال فيها في الظاهر ما دام أن كلام الإمام رحمه الله تعالى واضح وبيّن فلا إشكال في مسألة الرواية عنه، لكن كلام أهل العلم يُفهم بعضُه ببعض، لا يُجتزأ وتُأخذ عبارة، فالكلام له سياق وسباق، كلام الإمام أحمد الذي قاله؛ ما مناسبة هذا الكلام، لا بدّ أن تبحث عن المناسبة حتّى تفهم كلامه، وله سياق وسباق لتفهم كلامه، لهذا أنا ممكن الآن أن اجتزأ كلام عالم وأنقل لك كلام عالم قد لا تفهمه على الفهم الصحيح حتى يكون مناسبة هذا الكلام ولماذا قال هذا الكلام، لهذا كلام أهل العلم وكلام الأئمة رحمهم الله تعالى لا ينبغي للإنسان أن يتجرّأ الإنسان على كلامهم وما نقله أهل العلم ويتظاهر بالتخطئة إلّا في مواضع مغلوطة عن الإمام أحمد وهي مشهورة ومعروفة – ممّا لا يقبل أن يُعتبر بكلامه في مواضع أخرى – فأهل العلم رحمهم الله تعالى في كلام الإمام أحمد (لا كيف ولامعنى) واضح أن المعنى الذي يريد نفيه الإمام أحمد هو المعنى الذي ابتكرته الجهميّة والمعطّلة من تأويل نصوص الصفات، هذا الذي

(١) الزمر: ٦٧.

يريده الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

وأنا ما اطّلعت على الكلام لكن شرّاح اللّمعة كلّهم على هذا، بدءاً من الشيخ ابن عثيمين والشيخ ابن جبرين وغيرهم من مشايخنا كلّهم قالوا بأن المعنى الذي يريد نفيه الإمام أحمد هو المعنى الذي ابتكرته المعطّلة الجهميّة من تأويل نصوص الصفات، الكلام واضح والإمام أحمد أبعد الناس عن مذهب التفويض، وسوف يأتي إن شاء الله بيان مسلك التفويض أنّه من مسالك الأشاعرة وأن بعض المنتسبين إلى السُّنَّة والأشعرية ظنّوا أن هذا مذهب السلف وهذا خطأ وجناية على مذهب السلف.

- سؤال: ؟؟؟

الجواب: لا نستعجل يأتي إن شاء الله بالبيان على هذا الموضع في مسألة مختصّة، نخصص لها مسألة ونقول قول الأشاعرة (منهج السّلف أسلم ومنهج الخلف أعلم وأحكم) نبيّن إن شاء الله، لكن على وجه الاختصار أنا أبيّن لك، هم ظنّوا أن منهج السّلف هو التفويض فزعموا أن ذلك أسلم، وأمّا منهج الخلف وهو التأويل قالوا أعلم وأحكم، فلمّا ظنّوا واعتقدوا أن مذهب السّلف هو تفويض المعاني؛ قالوا: إن منهج السّلف أسلم، فهم أخطأوا من وجهين، من وجه أنّهم ظنّوا بأنّ مذهب السلف التفويض، وثانياً زعموا أن منهجهم أعلم وأحكم، ولهذا من مسالك الأشعرية - كما سوف أبيّن لك إن شاء الله في المسائل - مسلك التفويض، لهذا في جوهرة التوحيد عندهم معظّمة، عند الأشعرية يقول: (وكلّ نصّ أوهم التشبيه؛ أوّله أو فوّض ورُم تنزيها) ،- أوّله أو فوّض - ممّا دلّ على أن التفويض مسلك عندهم في نصوص الصفات، خاطئة، لكن إن شاء الله نأتي إلى بيانها على وجه التفصيل.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح وصلّى الله وسلّم على نبينا محمّد.

شَرحُ لُمعَةُ الاعْتِقَادِ للشَّيْخِ فَهْد المقْرِن

الشريط الثاني

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد، نبدأ الآن بالقراءة إلى حيث وصلنا.

وَعَلَى هَذَا دَرَجَ اَلسَّلَفُ، وَأَئِمَّةُ اَلْخَلَفِ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى اَلْإِقْرَارِ وَالْإِمْرَارِ وَالْإِثْبَاتِ لِمَا وَرَدَ مِنْ اَلصِّفَاتِ فِي كِتَابِ اَللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِتَأْوِيلِهِ، وَقَدْ أُمِرْنَا بِالِاقْتِفَاءِ لِآثَارِهِمْ، وَالِاهْتِدَاءِ بِمَنَارِهِمْ، وَحُذِّرْنَا اَلْمُحْدَثَاتِ، وَأُخْبِرْنَا أَنَّهَا مِنْ اَلضَّلَالَاتِ، فَقَالَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ اَلْخُلَفَاءِ اَلرَّاشِدِينَ اَلْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ اَلْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ).(٢)

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رحمه اللهُ- كَلَامًا مَعْنَاهُ: (قِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ، فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا، وَهُمْ عَلَى كَشْفِهَا كَانُوا أَقْوَى، وَبِالْفَضْلِ لَوْ كَانَ فِيهَا أَحْرَى، فَلَئِنْ قُلْتُمْ: حَدَثَ بَعْدَهُمْ، فَمَا أَحْدَثَهُ إِلَّا مَنْ خَالَفَ هَدْيَهُمْ، وَرَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِمْ، وَلَقَدْ وَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي، وَتَكَلَّمُوا مِنْهُ بِمَا يَكْفِي، فَمَا فَوْقَهُمْ مُحَسِّرٌ، وَمَا دُونَهُمْ مُقَصِّرٌ، لَقَدْ قَصَّرَ عَنْهُمْ قَوْمٌ فَجَفَوْا، وَتَجَاوَزَهُمْ آخَرُونَ فَغَلَوْا، وَإِنَّهُمْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)(٣).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيُّ -رحمه اللهُ-:(عَلَيْكَ بِآثَارِ مَنْ سَلَفَ وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ، وَإِيَّاكَ وَآرَاءَ الرِّجَالِ وَإِنْ زَخْرَفُوهُ لَكَ بِالْقَوْلِ)(٤).

---

(١) صحيح. الترمذي (٢٦٧٦). صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٢) قال العجلوني رحمه الله في كتابه (كشف الخفاء) (٤٤/ ١): (رواه الدارمي (٢١١)، وقال النجم: سنده صحيح).

قلت: والنجم هذا هو نجم الدين الغزي في كتابه المسمى (إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن). كما بينه العجلوني نفسه في مقدمة كتابه (٩/ ١).

(٣) صحيح مقطوع. أبو داود (٤٦١٢). صحيح أبي داود (٤٦١٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢٠/ ٧).

.....

هذا الكلام من الموفق رحمه الله تعالى في تقرير منهج السلف وبيان أن المحدثات في دين الله عزّ وجلّ مردودةٌ على أصحابها، ولهذا أورد الموفق رحمه الله تعالى كلامَ ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: (اتبعوا ولا تبدعوا فإنّكم قد كفيتم) أو (فقد كفيتم) بمعنى أن أمر الدين جاء على التمام على يد النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولهذا يأتي معنا في هذه الجمل من كلام الموفق ابن قدامة رحمه الله تعالى مسائل.

المسألة الأولى: معنى السُّنَّة والبدعة على وجه الإجمال، السُّنَّة في اللّغة هي الطريقة، وفي الاصطلاح ما كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والصحابة من بعده، وأما البدعة في اللّغة فهي المُحدث والمُستحدث، وفي الشرع ما أُحْدِثَ في الدين على خلاف ما كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه من بعده من عقيدةٍ أو عمل، هذه تسمى محدثات.

ثمّ أورد الموفق رحمه الله تعالى كلاماً لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حيث قال: قفْ حيث وقف القوم. وجه المناسبة أنَّ أهل الكلام حينما ولجوا في بحث مسائل الصفات لم يسيروا على منهج السلف ولم يقفوا حيث وقف السلف بل دخلوا في أمور لا حاجة للدخول فيها فوقعوا في الضلال المُبين، أرادوا – كما يزعمون – أن ينزّهوا الله عزّو جلّ عمّا لا يليق به سبحانه وتعالى فوقعوا فيما هو شرّ منه وهو التعطيل، وقعوا في الشرّ بتعطيل صفات الله عزّ وجلّ، لهذا يقول عمر بن عبد العزيز: قفْ حيث وقف القوم، أي هذه الأمور أمور الدين والعقيدة وأمور الأسماء والصفات جاء بيانها من النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ لا تقبل الإحداث ولا تقبل النظر ولا الآراء ولا الفكر ولا الذوق، بيّنها النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجاء بيانها في كلام الله وكلام رسوله بياناً شافياً كافياً، وهذا يجرّنا إلى مسألة ذكرناها بالأمس وهي ما يقوله بعض أهل البدع وأبرز الفرق في ذلك هم الأشعرية، ماذا يقولون؟ حينما يتكلمون عن منهج السلف؟ يثنون عليه فيقولون منهج السلف أسلم وأما منهج الخلف فهو أعلم وأحكم! وهذه لو نظرت إليها بعين البصيرة إلى هذه المقولة لوجدت أنها ظالمة، وسبب هذه المقالة التي قالوها لها سبب، ذلك أنهم ظنّوا أن منهج السلف رحمهم الله هو منهج التفويض، وقدّمنا بالأمس معنى التفويض الذي هو في اصطلاح أهل العلم أنّ ما أخبرنا الله عزّ وجلّ من أسمائه وصفاته نؤمن بها لفظاً مجرداً كأنه كلام أعجمي، كالحروف المقطعة في قول

بعض المفسرين (ألم) بعض أهل العلم من أهل التفسير يقولون: إنها لا معنى لها، فهم يجعلون قول الله عزّ وجلّ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] كالحروف المقطعة لا معنى لها هؤلاء هم أهل التفويض هؤلاء هم المفوضة، الأشاعرة ظنّوا أن مذهب السلف هو التفويض، فقالوا: إن منهج السلف أسلم وأما منهجهم فأعلم وأحكم؛ لأنه فيه تأويل وفيه صرف للفظ عن ظاهره المتبادر منه لقرينه كما يزعمون، وتقدم الكلام عن هذا المصطلح وأنه اصطلاح حادث، فإذاً هذه المقولة خاطئة من وجهين، الوجه الأول: ذكرته لك أنهم ظنّوا خطأً أن مذهب السلف هو التفويض، الوجه الثاني: أن هذه المقولة متناقضة، فكون منهج السلف أسلم يلزم منه أن يكون هو الأعلم والأحكم؛ أما أن يكون أسلم ثم لا يكون أعلم ولا أحكم فهذا تناقض، والصحابة رضوان الله عليهم هذا هو منهجهم، وهو المنهج الأسلم والأعلم والأحكم وهو اللائق بمنهج الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك لأن الصحابة أقرب الناس إلى الحق، وهم أحرى بالعلم ممن جاء بعدهم، لماذا؟ لأنهم أهل العقول السليمة والأفهام المُستنيرة، شاهدوا التنزيل، أي سمعوا ورأوا بأعينهم كيف كان الوحي ينزل ومناسبات النزول، وأهل فصاحة وأهل فهم بلغة العرب والقرآن نزل بلغتهم، علموا أسباب النزول بل وعلموا أسباب ورود حديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومناسبات ذلك، ولا شك أن مثل هذه الأمور مما يُعين على فهم النص، ولهذا أسباب النزول في القرآن تُعين على فهم النص الشرعي من كلام الله عزّ وجلّ، كما أن أسباب ورود حديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تُعين على فهم النص، فالسلف رحمهم الله وهم الصحابة بالأصالة هم أعلم الناس ومنهجهم الأسلم والأعلم والأحكم، لا يقارن بمن جاء بعدهم من المتأخرين ممن دخلت عليهم العجمة ودخل عليهم أشياء كثيرة من علوم الإغريق واليونان ينظرون في نصوص الله عزّ وجلّ وبكلام الله عزّ وجلّ بعقولهم السقيمة وأفهامهم الخاطئة فيقولون: هذا يجوز على الله وهذا لا يجوز على الله، لا شك أن منهج السلف هو أسلم وأعلم وأحكم، وبهذا تعلم أن هذه المقالة مقالة خاطئة وسببها الجهل بمنهج السلف، ولهذا فالإنسان لا بدّ أن يتعلم منهج السلف ويعرف منهج السلف حتى لا يظن بهم الظن السّيء ويخالف هذا المنهج القويم الذي هو صالح لكلّ زمان ومكان، وبحمد الله قدّمنا فيما سبق أنه منهج مطّرد لا يختلف، ولهذا الآن أمامكم متن ابن قدامة رحمه الله، لو

(١) طه: ٥.

نظرت فيه لوجدت أن هذا المتن لا يختلف عن كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بل عبارات تخرج من مشكاة واحدة كذلك تجد أن هذه العبارات يتداولها الطحاوي رحمه الله تعالى وهو متقدم على ابن قدامى فهكذا عبارات السلف تخرج من مشكاة واحدة لأنه منهج غير متناقض ومطّرد.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَذْرَمِيُّ لِرَجُلٍ تَكَلَّمَ بِبِدْعَةٍ وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا: هَلْ عَلِمَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم؛ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوهَا؟ قَالَ: لَمْ يَعْلَمُوهَا. قَالَ: فَشَيْءٌ لَمْ يَعْلَمْهُ هَؤُلَاءِ عَلِمْتَهُ أَنْتَ؟ قَالَ الرَّجُلُ: فَإِنِّي أَقُولُ قَدْ عَلِمُوهَا. قَالَ: أَفَوَسِعَهُمْ أَلَّا يَتَكَلَّمُوا بِهِ، وَلَا يَدْعُوا النَّاسَ إِلَيْهِ أَمْ لَمْ يَسَعْهُمْ؟ قَالَ: بَلَى وَسِعَهُمْ، قَالَ: فَشَيْءٌ وَسِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَخُلَفَاءَهُ، لَا يَسَعُكَ أَنْتَ؟ فَانْقَطَعَ الرَّجُلُ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ -وَكَانَ حَاضِرًا لَا وَسَّعَ اللهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسَعْهُ مَا وَسِعَهُمْ.

وَهَكَذَا مَنْ لَمْ يَسَعْهُ مَا وَسِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابَهُ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَالْأَئِمَّةَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ مِنْ تِلَاوَةِ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَقِرَاءَةِ أَخْبَارِهَا وَإِمْرَارِهَا كَمَا جَاءَتْ؛ فَلَا وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ.

.....

هذه الجمل من كلام الموفق رحمه الله تعالى في تقرير أن منهج السلف رحمهم الله لا يجوز التجاوز عليه، وقد قدّمت: قفْ حيث وقف القوم فإنهم عن علمٍ وقفوا، فالإنسان ليس له أن يتكلّم إلا بما تكلّم به السلف الصالح رحمهم الله، ولا يتجاوز أقوال السلف ويُعَظِّمْ آثار السلف وأقوالهم وأفهامهم لأنه بذلك يكون عصمة من الزّلل والخطأ، ثم أورد ابن قدامة رحمه الله الموفق هذه المناظرة، وهذه المناظرة حدثت فيما ذكر أهل الأخبار في مجلس الخليفة العباسي الواثق، هذا الرجل يسمى محمد بن عبد الرحمن الأذرميّ، هذا الأدرمي نسبة إلى قرية تسمى أذرمة، وهي قرية بالموصل من بلاد العراق، وقيل: إنه قد جيء به إلى مجلس الواثق مقيداً للمناظرة في مسألة أو في بدعة القول بخلق القرآن، فإنّكم تعلمون أنّ القول بخلق القرآن مما ابتدعه الجهميّةُ المعتزلةُ، وهذه البدعة زيّنوها للمأمون كما تعرفون، ثم المأمون هذه الشخصية الغريبة في التاريخ الإسلامي، والتي تحمل يعني متناقضات - يعني عجيبة – أنا قرأت في سيرة هذا الرجل، فتح بدعة شديدة أو على الأمة فتنة عظيمة حيث امتحن الناس بالقول في خلق القرآن، وصار يُلْزِمُ الناس بهذا القول، من الذي زيّن له هذا؟ زيّن له القاضي الجهميّ في زمانه أحمد بن أبي دؤاد الذي بسببه حدثت فتنة القول بخلق القرآن وإلزام الناس بهذا القول، تعرفون أنّه وقف لهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى وقفةً مشرّفة عظيمة نصر اللهُ بهذا الإمام السُّنَّةَ، لا نطيل في بيان هذه القضية ولكن أشير إلى أنّ أهل البدع، السلف رحمهم الله

تعالى عنهم قالوا: إن أهل البدع كالعقارب متى ما تمكّنت لدغت، فالمعتزلة ومن سار في ركابهم كانوا يرفعون شعارات قريبة من الشعارات التي يرفعها أهل البدع الآن في مسألة يعني: الرأي والحرية ويعني: عدم التضييق على الناس، ولكنّهم حينما كان لهم سلطة وقوّة ماذا فعلوا؟ فتكوا بأهل السُّنَّة، وقضية امتحان الناس بخلق القرآن قضية ظاهرة مما أجمع عليها أهل التاريخ وهي وصمة عارٍ في جبينهم، فإنهم امتحنوا الناس وضربوا الأئمة وسجنوا؛ بل وصل الأمر الى القتل، بل وصل الأمر إلى أنهم صاروا يعلمون الصبيان وهم في الكتاب القول بخلق القرآن ويلزمونهم بذلك – نسأل الله السلامة والعافية –، فإذاً هذه المناظرة حدثت بسبب هذا القول، طبعاً المناظر لهذا الشخص رحمه الله تعالى الأذرمي وهو شخصية يعني غير مشهورة في كتب أهل العلم لكنّه كان عالماً وعلمه وفصاحته وبيانه واضح من خلال المناظرة، ولكن روى عنه أبو داود والنّسائي ووثّقه أبو حاتم والنّسائي كذلك وثّقه فهو ثقة وإمام في بابه رحمه الله تعالى، المناظر له قلنا: هو أحمد ابن أبي دؤاد والمكان كان مجلس الواثق الخليفة العباسي، وقد ذكر أهل الأخبار أنه بعد هذه المناظرة ترك امتحان الناس بالقول بخلق القرآن الواثق، وأنّ من أسباب تركه للامتحان هذه المناظرة التي حدثت بين الأذرمي وابن أبي دؤاد، هده المناظرة أخرجها جمعٌ من أهل العلم، الخطيب البغدادي في تاريخه وكذلك ابن الجوزي من طريقه في مناقب الإمام أحمد وهذا المؤلف رحمه الله تعالى الموفق ذكرها في اللمعة وذكرها كذلك في كتاب التوابين له وأخرجها الآجريّ في الشريعة.

المسألة التي بعدها: ما الذي تستفيده من هذه المناظرة؟ لا شك أن الماتن الموفق ابن قدامه رحمه الله تعالى أوردها لسبب:

أولاً: تستفيد المنهج الذي سلكه المناظر مع هذا المبتدع، أي أنه ثمة قضية وهدف يريد أن يصل إليه الأذرمي رحمه الله تعالى وهذا من دقيق فهمه وعلمه، هو يريد أن يصل إلى هدف من هذه المناظرة، يعلم أن أحمد بن أبي دؤاد أنه مخاطب ومجادل شديد المجادلة ولا يرجع إلى الحق بل معاند، ولهذا فإن الهدف من المناظرة ليس هو أحمد بن أبي دؤاد وإنما هو يريد أن يوصل رسالة للواثق وفعلاً هذه الرسالة تقبّلها الواثق ووصلت من خلال المنهج الذي سلكه في المناظرة، ولهذا من حُسن المناظرة أنك تناظر وقد لا تريد إقناع الخصم ولكن تريد من خلف الخصم ممن يسمع هذه المناظرة وهذا من حسن المنهج في المناظرة، فسلك

منهج التسلسل في السؤال، سأله أسئلة ثم طالبه بالإجابة، كانت هذه الأسئلة مفحمة لهذا الجهميّ، فسأله عن العلم بهذه البدعة – يعني القول بخلق القرآن – هل عَلِمَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وخلفاؤه هذه البدعة؟ فلما سأله كان الجواب بالنفي، قال: لا، وإذا كان النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وخلفاؤه وأصحابه رضوان الله عليهم لا يعلمونها فكيف تعلمها أنت؟؟ مقتضى هذا السؤال أنك تُجَهِّل الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنت أعلم من الرسول!– واضح –، ثمّ سأله إذا لم يعلموها فكيف تعلمها أنت؟؟ وهذا الإلزام قوي، ولهذا لمّا رأى الخصم أنّه ملزم بهذا الإلزام حاد عن الجواب، أَوَّل ما قال: لم يعلموها، ثمّ لمّا رأى أنّه محجوج وقد خصم قال: قد علموها، والأذرمي رحمه الله كأنّي به قد عرف الجواب هو جعل الاحتمالين عنده، الاحتمال الأول أن يقول: لم يعلموها فوضع له جواب، والاحتمال الثاني أنه يقول: عَلِمُوْهَا ووضع له جواب، وهذا من حُسن المناظرة أنك عندما تناظر تجعل الاحتمالات عندك متعددة بحيث أنّ الخصم لو جاوب بجواب فالجواب عندك حاضر، فلمّا رأى أن الخصم والمجادل حاد عن الجواب انتقل المناظر رحمه الله تعالى إلى مرحلةٍ أخرى، ثمّ سأله إذا كانوا قد علموها – بعد أن حاد عن الجواب – قال: هل وسعهم وأمكنهم أن يُعْرِضُوا عن الكلام فيها وأن يتركوا الدعوة إليها أم لم يسعهم؟ إذا كانوا علموها؛ فهل يسعهم أن لا يدعوا إليها؟ أنت الآن تدعو الناس إلى القول بخلق القرآن تلزم الناس مع أنّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما ألزم بهذا وأنت تزعم أنّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عَلِمَهَا بعد أن قلت قبل ذلك أنّه لم يعلمها، ألم يسعهم أن يسكتوا وأن لا يمتحنوا الناس؟؟ فلمّا سأله هذا السؤال أجاب الخصم أنّه وسعهم، هنا وقع في ما أراد المناظر أن يوقعه فيه، و هذا ما أراده المناظر رحمه الله تعالى الأذرمي؛ أراد أن يصل إلى هذه المرحلة هذا هو الهدف، وهو يريد بهذا الموضع أن يقول بهذا أنّه وسعهم أن يسكتوا وأن لا يَدْعُو الناس إلى هذه المقولة، فهذا هو الهدف من المناظرة، هو يريد أن يرسل رسالة إلى الواثق أن يتوقف عن امتحان الناس بالقول بخلق القرآن بهذه العقيدة الباطلة، فكان الجواب العظيم شيءٌ وسع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والخلفاء من بعده لا يسعك أنت؟؟ هذه رسالة موجهة لمن؟ إلى الواثق، ولهذا قال الخليفة – وقد كان حاضراً –: لا وسّع الله على من لم يسعه ما وسعهم، فإذا كان النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما دعا الناس إلى هذه المقولة ولا امتحن الناس بها كيف يسعك أيها الواثق يا خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن تمتحن الناس بهذه المقولة؟

أنت دخلت في أمر كان ينبغي لك أن لا تلج فيه وأن لا تقلد من كان قبلك بامتحان الناس بهذه المسألة، ولهذا يقال أنّه بعد هذه المناظرة وقف الواثق عن امتحان الناس، توقف عن امتحان الناس بالقول بخلق القرآن وذكروا أنّه تاب منها.

الفائدة الأخرى التي ينبغي أن نشير إليها: قضية المناظرات، المناظرات العقديّة وما يتبع ذلك هذا موضع ينبغي أن يَتبيّن فيه الإنسان وأن لا يلج فيه إلا على وجه الحاجة الملحّة والضرورة، أما أن تكون المناظرات أمام الناس كما ترى الآن في وسائل الإعلام – فهذا – لو نظرت إلى منهج السّلف لوجدت أنّ هذا يخالف منهج السّلف لأن المناظرات يحصل فيها شبه ويحصل فيها أقوال وهذه الشبه قد تقع في قلب من يجلس يسمع هذه المناظرة فيقع في قلبه شيءٌ من الزيغ فيهلك، ولهذا التوسّع في مثل هذه الأمور لا ينبغي وخلاف منهج السّلف وإنما يُلجأ إليه عند الحاجة والضرورة.

وَهَكَذَا مَنْ لَمْ يَسَعْهُ مَا وَسِعَ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابَهُ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَالْأَئِمَّةَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ مِنْ تِلَاوَةِ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَقِرَاءَةِ أَخْبَارِهَا وَإِمْرَارِهَا كَمَا جَاءَتْ؛ فَلَا وَسَّعَ اللهَّ عَلَيْهِ.

فَمِمَّا جَاءَ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ قَوْلُ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾(١)، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَاراً عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾(٣)، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾(٤)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُّ﴾(٥).

.....

هنا الآن شرع الموفق رحمه الله تعالى في ذكر صفات الله عزّ وجلّ وبيان المنهج السّلفي في تقريرها، ولهذا معنا في هذه الجمل مسائل:

المسألة الأولى: أن نقول: إن صفات الله عزّ وجلّ باستقراء أهل العلم تنقسم إلى قسمين، صفات ذاتية وصفات فعلية، ما المراد بالصفات الذاتية؟ هي الصفات التي لا تنفك عن الله بوجه من الوجوه، والله عزّ وجلّ لم يَزَلْ ولا يزال متّصف بها، هذه هي الصفات الذاتية؛ كصفة العلم على سبيل المثال صفة ذاتية، يعني الله عزّ وجلّ لم يزل عليماً ولا يزال عليماً سبحانه وتعالى بكل شيء، فالله عزّ وجلّ لا ينفك عن هذه الصفة بوجه من الوجوه، و أما الفعلية – ويعبّر بعض أهل العلم بالصفات الاختيارية – هي التي تتعلق بمشيئة الربّ سبحانه وتعالى، إن شاء الرب فعلها وإن شاء لم يفعلها، كصفة النزول فصفة النزول مما يمثّل عليه بأنه من الصّفات الفعلية، فالله عزّ وجلّ ينزل إلى السماء الدنيا متى ما شاء سبحانه وتعالى، وكما جاء في الخبر أنه ينزل في الثلث الآخر من الليل، فهي صفة فعلية بمعنى أنها تابعة للمشيئة.

هذان القسمان ربّما يذكر قسم ثالث في بيان الصّفات أن الصّفة التي تنسب إلى الله عزّ وجلّ ربّما تكون

(١) الرحمن: ٢٧.

(٢) المائدة: ٦٤.

(٣) المائدة: ١١٦.

(٤) الفجر: ٢٢.

(٥) البقرة: ٢١٠.

صفة ذاتية فعلية، وذلك باعتبارين، قد تنظر إليها باعتبار فترى أنها من الصفات الذاتية، وتنظر إليها باعتبار آخر فترى أنها من الصفات الفعلية الاختيارية، ولهذا يمثّل أهل العلم لهذا بصفة الكلام لله عزّ وجلّ، فالله سبحانه وتعالى متكلّم سبحانه وتعالى، فأصل صفة الكلام ذاتية لأن الله لم يزل ولا يزال موصوفاً بالكلام، لم يكن ثمّ وقت الرب سبحانه وتعالى لم يكن متكلّماً، فالله موصوف بالكلام، من هذا الوجه تعتبر صفة ذاتية، وبالاعتبار الآخر والوجه الآخر قد تعتبر هذه الصفة فعلية، باعتبار آحاد الكلام ومفردات الكلام تعتبر صفة فعلية اختيارية لأنها متعلقة بالمشيئة باعتبار آحاد الكلام، فهذه الصفة مما يمثّل أنها باعتبار ذاتية وباعتبار آخر فعلية، باعتبار آحاد الكلام، كيف باعتبار آحاد الكلام؟ أي الله سبحانه وتعالى كلّم موسى بعد أن لم يكن مكلّماً له أليس كذلك؟ فكلام الله عزّ وجلّ لموسى بهذا الاعتبار من الصفات الفعلية الاختيارية، لأنه كلّمه بعد أن لم يكن مكلّماً له سبحانه وتعالى، بهذا الاعتبار تعتبر صفة فعلية اختيارية.

المسألة التي تلي هذه المسألة في بيان الصفات في الله عزّ وجلّ: أنه لا بدّ أن تعلم أن المضافات إلى الله عزّ وجلّ نوعان، الذي يضاف إلى الله عزّ وجلّ نوعان: أعيان وأوصاف، فالصفات إذا أضيفت دلّت الإضافة على أنها إضافة وصف أو صفة، ووصف له قائم به وليست مخلوقة، لأن الصفة لا تقوم بنفسها بل لا بدّ لها من موصوف تقوم به، فالرحمة هذه إضافة أعيان أم إضافة أوصاف؟ أوصاف، الرحمة والرضا والغضب، فإذا أضيفت إلى الله عزّ وجل فهي إضافة صفة للموصوف، وأما ما يضاف إلى الله عزّ وجلّ النوع الثاني هي الأعيان، أي الأشياء التي تقوم بنفسها؛ أشياء محسوسة تقوم بنفسها، وأما التي قبلها أوصاف أشياء معنوية لا تقوم بنفسها وإنما تحتاج إلى شيء تقوم به فهذه إضافة أوصاف، أما الأعيان التي تقوم بنفسها تضاف إلى الله عزّ وجلّ، فالأصل فيها أن الإضافة للتشريف والتعظيم فالله عزّ وجلّ يضيف بعض المخلوقات إليه، ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾[1] كما دعا في النص ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ إضافة ماذا؟ تشريف وتعظيم، وقوله (بيت الله) إضافة تعظيم، وأمّا رحمة الله وما سوى ذلك من الصفات فهي إضافة أوصاف فلا بدّ أن تعرف هذا حتى يتبيّن لك عند بحث مسائل الصفات.

المسألة التي تليها بعد هذه القواعد المهمّة في هذا الباب، ذكر الموفق رحمه الله تعالى من آيات الصفات

(١) الشمس: ١٣.

صفة الوجه لله عزّ وجلّ وهي ثابتة في الكتاب والسُّنَّة، كما ذكر الموفق رحمه الله تعالى وأورد الدليل من كلام الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾(١) وفي السُّنَّة عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّك لن تنفق نفقة تبتغي فيها وجه الله إلّا أُجرت عليها»(٢) هذا الحديث متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقّاص، وهذه الصفة ثابتة لله عزّ وجلّ بكتاب الله وسُنّة رسوله وأجمع السلف عليها، وهي كغيرها في منهج أهل السُّنَّة أن الله عزّ وجلّ له وجه يليق بجلاله سبحانه وتعالى ليس كوجوه المخلوقين قطعاً؛ على حدّ قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٣).

المسألة التي تليها ممّا أورده الموفق من بيان الصفات، صفة اليدان لله عزّ وجلّ وهي ثابتة بكتاب الله لقول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٤) والسُّنَّة مستفيضة في ذكر هذه الصفة، من ذلك قول النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة» ومن ذلك قول النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الطويل «وبيده الأخرى القبض»(٥) فهذه أحاديث صحيحة وثابتة في وصف أن الربّ سبحانه وتعالى له يدان تليق بجلاله سبحانه وتعالى كما أن له وجه، وليس فيما وصف الله عزّ وجلّ به نفسه تمثيل، والواجب الوقوف حيث وقف القوم، وهذه الصفة ثابتة لله عزّ وجلّ وقد جاء خبرها في كلام الله وكلام رسوله، ممّا يتعيّن بحثه في هذا الموضع أن وصف الله عزّ وجلّ بأن له يدان أو باليد ورد على أنحاء متعددة أو على أوصاف متعددة، ورد بصيغة الإفراد بقوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾(٦) وبالتثنية بقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٧) وبالجمع بقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾(٨) وهذا بحمد الله ليس فيه تناقض، والقرآن يصدّق بعضه بعضاً وعليه تدل لغة العرب، أما الإفراد فلا إشكال فيه، بيده، فلا إشكال فيه لأنه من إضافة الجنس وهذا

(١) الرحمن: ٢٧.

(٢) صحيح البخاري (٥٦).

(٣) الشورى: ١١.

(٤) المائدة: ٦٤.

(٥) صحيح البخاري (٧٤١٩).

(٦) الملك: ١.

(٧) المائدة: ٦٤.

(٨) يس: ٧١.

معروف في لغة العرب، إضافة المفرد وتريد به الجنس، أي جنس اليد لا حقيقة العدد، : ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾(١) أي جنس يد الرّب سبحانه وتعالى، وأمّا التّثنية فلا إشكال فيها؛ لأن الله عزّ وجلّ له يدان، وأما الجمع بقوله تعالى: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾(٢) وصفها مجموعة أيدينا، مع أن الله عزّ وجلّ قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٣) مَبْسُوطَتَانِ﴾(٣) الجمع بين ذلك أن نقول: إنه من عادة العرب أن المثنّى إذا أُضيف إلى ضمير جمع أو إلى ضمير تثنية فإنه يُجمع مراعاةً لخفّة اللفظ على اللسان، وهذا ورد في غير صفة اليدين في قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(٤) فهما امرأتان، فجمع هنا مراعاة لخفّة اللفظ في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾(٥) فلو ثنّا لكان في اللفظ ثقل، وبعض أهل العلم قالوا: إن الجمع بقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾(٦) إن هذا من أساليب العرب، وأن العظيم إذا أراد أن يتكلّم فإنه يتكلّم بهذا الضمير؛ ولا يريد حقيقة العدد، فلا إشكال فيها بحمد الله.

ثم ذكر الماتن رحمه الله تعالى صفة النفس لله عزّ وجلّ، وأهل السُّنَّة يقفون ويعبّرون بما عبّر الله تعالى به وعبّر به رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وهي ثابتة في الكتاب والسُّنَّة كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾(٧) فأثبت للرب سبحانه وتعالى ذلك، وقال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الحديث القدسي: «وكتب ربّكم على نفسه الرحمة» في النص من كلامه، وبالسُّنَّة قول النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه»(٨) فعبّر عن النفس، فصفة النّفس لله عزّ وجل يجب إثباتها لله عزّ وجلّ على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى.

---

(١) الملك: ١.

(٢) يس: ٧١.

(٣) المائدة: ٦٤.

(٤) التحريم: ٤.

(٥) يس: ٧١.

(٦) يس: ٧١.

(٧) المائدة: ١١٦.

(٨) صحيح مسلم (٢٧٢٦).

ثمّ قال الماتن رحمه الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[1]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾[2] فهنا ذكر صفة لله عزّ وجلّ وهي صفة المجيء والإتيان، وأن الله عزّ وجلّ يجيء سبحانه وتعالى، وهي ثابتة في كتاب الله كما ذكر الماتن من قول الله عزّ جلّ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[3] وفي السُّنَّة الصحيحة: «حتى إذا لم يبقَ إلّا إلّا من يعبد الله عزّ وجلّ أتاهم ربّ العالمين»[4] فأثبت النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للرب سبحانه وتعالى صفة صفة الإتيان كما روى ذلك الحديث البخاري ومسلم، وليس فيما وصف الله عزّ وجلّ نفسه تمثيل ولا تشبيه له بخلقه، فهذه نمرّها كما قال الماتن رحمه الله تعالى كما جاءت؛ ونقطع أن الله عزّ وجلّ لا مثيل له، وليس فيما وصف الله عزّ وجلّ به نفسه أو وصفه به رسوله صلّى الله عليه وسلّم تمثيل.

كذلك من الصفات التي ذكرها الموفق رحمه الله تعالى، ذكر شيئاً من الصفات الفعلية، بعد أن ذكر الصفات الذاتية ذكر الصفات الفعلية، فذكر صفة المجيء والإتيان ثم ذكر صفة الرضا، وأهل السُّنَّة يثبتون هذه الصفة على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى وأن الله عزّ وجلّ يرضى وسبحانه وتعالى يغضب.

---

(١) الفجر: ٢٢.

(٢) البقرة: ٢١٠.

(٣) الفجر: ٢٢.

(٤) صحيح البخاري (٤٥٨١).

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾(١)، وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٢)، وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(٣)، وقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الكُفَّارِ ﴿غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾(٤)، وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ﴾(٥)، وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾(٦).

.....

الموفق رحمه الله تعالى شرع بعد أن ذكر شيئاً من صفات الله عزّ وجلّ الذاتية شرع في ذكر الصفات الفعلية، وقبل ذلك ذكرت لك المجيء، وهنا ذكر صفة لله عزّ وجلّ وهي صفة الرضا وأن الله سبحانه وتعالى يرضى، وصفة المحبّة وأنه سبحانه وتعالى يرضى ويحب ويغضب ويسخط سبحانه وتعالى، وهذه الصفات ثابتة لله عزّ وجلّ على الوجه اللائق به على حدّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٧) ولهذا أهل السُّنَّة يُقعّدون قاعدة مهمّة أن القول في الذات كالقول في الصفات، فهؤلاء الذين يخالفون منهج أهل السُّنَّة هم يثبتون لله عزّ وجلّ ذاتاً ليست كالذوات، كذلك يلزمهم أن يقولوا: إن لله عزّ وجلّ صفات ليست كصفات المخلوقين ولا فرق، ولهذا قدّمت لك أن منهج السلف مطّرد وغير متناقض، بينما منهج الخلف ومنهج أهل الكلام فإنه متناقض، هذه الصفات التي ذكرها لا بدّ من البيان أنه قد خالف بهذه الصفات طوائف، وأشهر الطوائف ممّن اشتهرت المخالفةُ فيها هم الأشعرية والماتريدية، فإنهم يتأولّون هذه الصفات الفعلية كصفة الرضا والغضب، يتأولّونها ويحرّفونها عن ظاهرها، فعلى سبيل المثال لو نظرت في كتب بعض المفسّرين لوجدت أنه يقول: إن الرضا إرادة الإحسان، يتأوّل تأويلاً غير سائغ في هذا الموضع، والغضب إرادة الانتقام، ولا يثبتون هذه الصفات على الوجه اللائق بالله عزّ وجلّ، أما طائفة

(١) البقرة: ٢١٠.

(٢) المائدة: ١١٩.

(٣) المائدة: ٥٤.

(٤) المجادلة: ١٤.

(٥) محمد: ٢٨.

(٦) التوبة: ٤٦.

(٧) الشورى: ١١.

أخرى وهم الكُلّابية بهذه الصفات الفعلية فإنهم يجعلونها أزلية قديمة؛ كيف أزلية؟ يعني أن الله عزّ وجلّ لم يزل راضياً عمّن علم أنه يموت على الإيمان ولو كان في ذلك الوقت كافراً، وساخطاً على من يعلم أنه سيموت على الكفر ولو كان في زمان مؤمناً، كيف هذا؟ أي صفة الرضا عندهم أزلية أن الله لم يزل راضياً عمّن يعلم أنه يموت على الإيمان، ولم يزل ساخطاً على من يعلم أنه سوف يموت على الكفر، أي يلزم من هذا؛ وهم يقولون بذلك ويصرحون بذلك؛ أن عمر بن الخطّاب وهو يعبد الأصنام كان الله عزّ وجلّ عنه راضياً، ومن ارتد ممّن صحب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ ارتد لم يزل الله عزّ وجلّ ساخطاً عليه؛ لماذا؟ لأن الله يعلم أنه سيموت على الكفر ولو كان يصلّي ويقيم الشريعة، أي الآن في الصفات الفعلية عندنا طوائف، أما الطائفة الأولى وهم الجهمية والمعتزلة فهؤلاء لا يثبتونها، وأما الطائفة الأخرى وهم الأشعرية والماتريدية فهم يتأوّلون الصفات الفعلية بما يثبتونه من الصفات، وإن شاء سوف أورد لك حجتهم في ذلك العقلية، وأما الكُلّابية وهم طائفة، فجعلوا الرضا والغضب أزلي بمعنى أنّه كالصفات الذاتية لله عزّ وجلّ، فالله لم يزل راضياً عمّن يعلم أنه يموت على الإيمان ولم يزل ساخطاً عمّن يعلم أنه سوف يموت على الكفر، ما الذي حمل الكُلّابية على هذا الزّلل العظيم؟ الذي حملهم على الوقوع في هذا الزّلل هو علم الكلام، عندهم قاعدة وأصل كلامي منطقي اجتهدوه من علم الإغريق واليونان وجعلوا يحكّمون النصوص عليه أو يحكّمونه على النصوص، فما هذه القاعدة أو الدليل عندهم؟ ما يسمّونه بحلول الحوادث، قالوا: لو أنّا قلنا بأن الله عزّ وجلّ يرضى في وقت دون وقت لكان الله عزّ وجلّ محلاً للحوادث، والله تعالى منزّه عن ذلك. أي أرادوا أن ينزهوا الله عزّ وجلّ عن هذا فوقعوا فيما هو شرّ منه، حتى وقعوا فيما يُعلم قطعاً أنه باطل عقلاً وشرعاً، وقد ذكرت لك الإلزام لهم في هذا، أما الأشعرية فإنّهم تأوّلوا هذه الصفات كما ذكرت لك وسوف إن شاء الله نأتي على الكلام على هذا المنهج فيما بعد إن شاء الله.

ذكر الماتن رحمه الله تعالى – الإمام الموفق – صفة الرضا وهي ثابتة لله عزّ وجلّ على الوجه اللائق، وذكر النص من ذلك من كلام الله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1] وثبت بالسُّنَّة كذلك «إن الله ليرضى عن

(١) المائدة: ١١٩.

العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها»[1] والنصوص كثيرة جدّاً، ذكرت لك الكلّابية، وأمّا المعطّلة من الجهمية والمعتزلة فهم ينفون هذه الصفة أساساً لا يثبتونها، ويجعلون الرضا اسم لشيء مخلوق يسمى الرضا، وهي مخلوقات منفصلة عن الله عزّ وجلّ، وأما الكُلّابية فيجعلون الرضا والغضب أزليّا كما ذكرت لك، وأما الأشعرية فهم يتأولون هذه الصفات الفعلية بما يثبتونه من السبع من الصفات، ثم ذكر الماتن رحمه الله تعالى صفات الله عزّ وجلّ، صفة المحبّة وصفة الغضب وغير ذلك من الصفات الفعلية لله عزّ وجلّ.

هنا مسألة مهمّة جدّاً وقد ذكرت لك أن الأشعرية يثبتون سبعاً من الصفات، وأما ما سوى هذه السبع من الصفات فإنهم يتأولونها ولا يثبتونها، فمثلاً عندهم صفة الغضب إرادة الانتقام، الرضا إرادة الإحسان وهكذا، لماذا يثبتون سبعاً من الصفات؟ وما هذه الصفات السبع؟ لا بدّ أن تعرف هذا، يثبتون سبعاً من الصفات وأما ما عداها كذلك الماتريدية ويزيد الماتريدية عليهم بصفة يسمّونها صفة التكوين والخلق عن الأشعرية، عندهم دليل عقلي قالوا إن العقل دلّ على إثبات السبع من الصفات، وأما ما عداها فلم يدل عليها العقل، فعندهم أن العقل هو الأصل - نسأل الله السلام والعافية - وأما الشرع فهو ليس أصلا عندهم، وإنما دليل (...)[2] وإنما الاعتماد على العقل، ما هذا الدليل العقلي - الذي لأجله أثبتوا السبع من الصفات ونفوا ما عداها -؟ هم يقولون: إن عقولنا دلتنا على هذه السبع من الصفات مع النص، فنحن نثبتها، وأما ما لم يدل عليه العقل من النصوص فنحن نتأوّل هذه الصفات، عندهم دليل سأذكره لكم باختصار وسهل أن تعرفه، يقولون الفعل الحادث دلّ على القدرة، احفظ الآن، أي الآن الصفة الأولى الفعل الحادث دل على القدرة يثبتون صفة القدرة، والإحكام دلّ على العلم أي إحكام هذا العالم بنجومه وكواكبه ونظامه دلّ على العلم، احفظ الصفة الثانية صفة العلم، والتخصيص دلّ على الإرادة، الصفة الثالثة الإرادة، كيف التخصيص؟ يعني هذا غني وهذا فقير وهذا مريض، دلّ على أن الله عزّ وجلّ مريد، وهذه الصفات الثلاث لا تكون إلا من حي، تم الآن أربع صفات أثبتوها، لا تكون إلا من حي أي صفة الحياة أن الله عزّ وجلّ حيّ، كم أثبتوا الآن أربع، قالوا والحي إما أن يكون سميع، إما أن يكون موصوفا بالسمع والبصر

(١) صحيح مسلم (٢٧٣٤).

(٢) كلمة غير مفهومة.

والكلام أو موصوفا بضد ذلك، والكمال أن يوصف الحي بأنّه سميع بصير متكلم، عرفت الآن؛ هذا الدليل العقلي عندهم، كم أثبتوا الآن؟ لأن العقل دل عليه، هذا باختصار هذا الدليل عندهم هذا عمدتهم، يقول الفعل الحادث دل على القدرة، والتخصيص دل على الإرادة، والإحكام دلل على العلم، وهذه لا تكون إلا من حي، والحي لا يكون إلا سميعا وبصيرا ومتكلما أو موصوف بضد ذلك، والكمال أن يكون الرب سبحانه وتعالى متصف بتلك الصفات، فعندهم أن العقل دلّ على هذا، ما سوى ذلك لم يدل عليه العقل، ما دل عليه العقل، وبالتالي لا نثبته، ولهذا صفة الرضا لم يدل عليها العقل فماذا يعملون معها؟ يتأولونها بما يثبتونه من السبع من الصفات، طبعاً هم متناقضون في ذلك لماذا؟ لأن هذا منهج غير مضطرد منهج متناقض، يعني تثبت صفة السمع والبصر والكلام تقول: إن الله عزّ وجلّ سميع على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى؛ أما إذا جاءت صفة الرضا تقول: إن الرب سبحانه وتعالى لا يرضى، إنما الرضا هو إرادة الإحسان، ما الذي حملك على أنّك تقع في هذا التناقض؟؟ مرة تزن بهذا الميزان ومرة أخرى تزن بميزان آخر، أنا أُبين لك السبب، هي مسألة تراكميّة يا إخوان، بدعة ثم تلقفها الناس وبدأوا يُقَرِّرُوْنَها، السبب عند كل أهل البدع أهل الكلام والذين ولجوا في علم الكلام ومما يُعَدُّ من الفرق الكلامية الجهميّة والأشعرية والماتريدية والكلابيّة وسائر هؤلاء عندهم مشكلة كبيرة جداً؛ دليل هو الذي أوقعهم فيما وقعوا فيه هذا، الدليل هو الدليل العقلي، أول من ابتدع هذا الدليل هم الجهميّة، ابتدع هذا الدليل جهم بن صفوان، ابتدع هذا الدليل وتعاقب الناس على الأخذ بهذا الدليل، هذا الدليل عندهم أنّنا لا نستطيع أن نُثبت أنّ هذا العالم حادث ومخلوق إلا بدليل عقلي، -أنا لا أريد أن أُفَصِّل فيه لكن أريد أن أشير إليه-، يسمونه دليل الأعراض وحدوث الأجسام، يعني هم الآن يناظرون الفلاسفة والملاحدة والزنادقة فيستدلون عليهم بأنّ هذا العالم مخلوق بهذا الدليل، مسماه دليل الأعراض وحدوث الأجسام، ولا أريد أن أفصل في هذا الدليل لكن أبسطه لكم، -يعني بأسلوب بسيط جداً أبينه لكم-، هذا دليل الأعراض وحدوث الأجسام عندهم هذا هو الدليل على أن الله عزّ وجلّ هو خالق العالم، يسمونه دليل إثبات الصانع يعني إثبات أن الله خلق العالم، أما الدهريّة والملاحدة والزنادقة يقولون: العالم قديم وليس له خالق بل هو وجد من القدم هكذا لا خالق له، هم يريدون أن يثبتوا أن هذا العالم الذي نراه ونحسّ به مخلوق، يستدلون عليه بدليل عقلي يسمى دليل

الأعراض وحدوث الأجسام، وهو دليل مبتدع لم يعرفه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولا الصحابة، أفلا يسعنا ما وسع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والصحابة؟ فلا وسّع الله على من لا يسعه ما وسع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والصحابة، ابتداع فدخلوا في هذه البدعة وتلقفوها من الجهميّة وصاروا يأخذون بهذا الدليل، لأجل هذا الدليل وقعوا في ما وقعوا فيه من إثبات السبع من الصفات ونفي ما عداها، دليل الأعراض وحدوث الأجسام ببساطة وبعبارات مختصرة – لا أريد أن أتكلم بكلام المناطقة – يقولون: هذا العالم تقوم به أعراض، الأعراض ما هي؟ يعني الأشياء التي تتغير يعني مثلاً الرطوبة اليبوسة الحرارة البرودة تسمى أعراض، فكل ما تقوم به الأعراض فهو مخلوق، فعندهم الدليل على أن هذا العالم مصنوع ومخلوق أنه تقوم به الأعراض يتغير، أليس هذا العالم يتغير؟ يتغير، الإنسان يتغير، يثبتون أنك تتغير مخلوق أنّك تتغير تكون صغير ثمّ تكبر؛ دل على أنّك مخلوق، فهم عندهم أنّ هذا هو الدليل على أنّ العالم مخلوق، هذا الدليل، يجعلوه هو الأصل، وصاروا يحتكمون إلى هذا الدليل، فعندهم هذا الدليل أثبتنا به أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم صادق، هم لأنهم يقولون في عبارة هذا الدليل: لا يُعْلَمُ صدقُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلّا بما يُعلم به حدوث العالم – يعني أن العالم مخلوق –، جعلوه أصل وتحاكموا إليه وإن اختلفوا في مقدماته وفي جزئياته، لكن متفقين على هذا الدليل، هذا دليل مبتدع ما عرفه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وما دلّ أمته عليه، وإثبات أن هذا العالم مخلوق لا يحتاج إلى هذا الدليل، بل أدلة مستقرة في النفوس وفي الفطر أنّ هذا العالم مخلوق وليس قديما، فلمّا ولجوا في هذا الباب وقعوا في ما وقعوا فيه، ثمّ صارت بهم البدع إلى أن نفوا هذه الصفات، فعندهم أصل هذا الدليل، ولهذا عندهم أن هذا العقل أصل، ولهذا الأشعريّة يقولون نثبت السبع من الصفات، وأما ما عداها فلا نثبتها، لأنّ العقل ما دلّ عليها، لأن العقل عندهم أصل، وهذا الذي يفرّق بين منهج السلف ومنهج الخلف، لأنّ هؤلاء جعلوا العقل أصلا وجعلوا أنّ العقل يعارض النقل، لهذا ألّف ابن تيمية رحمه الله تعالى كتابه المشهور المعروف (درء تعارض العقل مع النقل)، بينهما بحمد الله لا تعارض، ولكن انظر إلى أنّ البدع تبدأ شبراً ثمّ ذرعاً ثم باعاً ثمّ فراسخ وأميال كما قال أهل العلم، أول ما يوردوا هذا الدليل، ثمّ وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الضلال المبين نسأل الله السلامة والعافية، أظن أن عبارة الدليل واضحة وكلامي عن الأشعرية إن شاء الله واضح، ودليل الأعراض وحدوث الأجسام واضح يعني

العبارات فيه، يعني أبسطّها لكم بأبسط عبارة، يعني أن هذا العالم تقوم به الأعراض فهو حادث وكل ما تقوم به الأعراض فهو حادث، جاؤوا لتطبيق الدليل صفة الرضا الغضب، كيف؟ قالت الكُلابيّة لو قلنا: إن الله يرضى في وقت دون وقت لقلنا إن الحوادث تقوم به – والله تعالى منزه عن ذلك –، لأنهم عندهم أنا أثبتنا أن هذا العالم مخلوق لأنه تقوم به الحوادث، فقالوا: بأن الرضا أزلي وأنّ الغضب أزلي، انظر كيف لأجل هذا الدليل صاروا يُحَكّمون على النصوص، وقالت الأشعريّة والماتريدية –حسب ما يقولوا– لأنه قالوا: إذا يغضب في وقت دون وقت فإنه تقوم به الأعراض! فهمتم، انظر إلى أنهم وقعوا في التشبيه والتمثيل، الله لا يقاس بخلقه حتى يقال به؛ حتى يقال كما قيل، الله عزّ وجلّ يغضب وغضبه ليس كغضب المخلوقين تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيرا.

- سؤال: ؟؟؟

جواب: هناك مشكلة وجدليّة كبيرة جداً هو أنّ أهل البدع خاضوا في تقرير توحيد الربوبيـة وبـالغوا في مثل هذا، مع أنّ توحيد الربوبية مركوز في الفطر، الأعرابي كما ذكرتُ في فطرته أن هذا العـالم مخلـوق، فهـم استهلكوا أوقاتهم وجميع ما لديهم في تقرير أنّ هذا العالم مخلوق، وأنّ الله خالق هذا العالم، ولهذا هم لّما دخلوا في هذه الأمور دخلوا في علم المنطق ودخلوا في علم الكلام وصاروا يردونـ هـم أردوا -حتـى نكـون أهـل إنصاف- أرادوا الخير لكن كم من مريد للخير لم يصيبه، لكنهم لّما سلكوا غير مسلك الصحابة وقعوا في مـا وقعوا فيه، فهم أرادوا نصر الإسلام، هؤلاء الفلاسفة الدهريّة تسلّطوا على أهل الإسلام وقـالوا: إن العـالم قديم! فأرادوا أن يثبتوا أن العالم حادث وليس بقديم ومخلوق، فدخلوا في هذا وأوغلوا فوقعوا في ما وقعـوا فيه، ولهذا كلّ من دخل في علم الكلام الجويني والرازي وغيره كلّهم ندموا على أنّهم خاضوا في هـذا الأمـر واستغرقوا أوقاتهم ولو اكتفوا بما جاء في كتاب الله وسنّة الرسول لكفاهم، توحيد الربوبية مركوز في الفطـر ما يحتاج كل هذا التقرير، وهذا يجرّنا إلى قضية مهمة جداً وهو أن بعض الناس يثير بعض القضـايا العقديّـة ويبالغ فيها، مثل قضية الإلحاد وظاهرة الإلحاد المبالغة في هذا الأمر، لا بد من معالجة الشيء وفق الضـوابط الشرعيّة ودون مبالغة، فالإلحاد -كظاهرة- تعتبر ظاهرة شاذّة على الفطر وعلى العقـول لا يمكـن أن يقبـل بهذا الأمر وبحمد الله، وجود الرب سـبحانه وتعـالى لا يمكـن أن يتطـرق إليـه شـك في العقـول السـليمة والأفهام السليمة، يعني مركوز في فطرها، فيعالج الأمر المعالجة الصحيحة حتى لا نقع في ما وقع فيـه أهـل الكلام، هم عندهم القضيّة مثل ظاهرة الإلحاد، هم عالجوا هذه القضية وبـالغوا في معالجتهـا حتـى وقعـوا وخالفوا منهج السلف، كل شيء يُقدر بقدره، فأمر توحيد الربوبية مستقر بحمد الله، ولهـذا الخصـومة بـين الأنبياء وبين أقوامهم ليست في توحيد الرّبوبية كما ذكر الله عزّ وجلّ في مواضع، وإنّما هـي في مـاذا؟ هـي في توحيد العبادة، بل أبو جهل وأبو لهب يعترف بالربوبية أن الله الخالق الرازق المحيي المميت وإنّما الخصومة في مسائل توحيد العبادة.

- سؤال: ؟؟؟

جواب: لا، هم لا يثبتون الصفات، كل الصفات لا يثبتونها، ولكن إذا جاءوا لهذا النص قالوا: الرضا شيء يفعله الله عزّ وجلّ أو يخلقه الله عزّ وجلّ، كل الصفات، الصفات الفعلية ولّا ذاتية لا يثبتونها لله عزّ وجلّ، نعم شيئاً خلقه الله عزّ وجلّ سمّاه الرضا هكذا يعبرون بهذا، نعم.

وَمِنْ اَلسُّنَّةِ، قَوْلُ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ اَلدُّنْيَا»(١) وَقَوْلُهُ «يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ اَلشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»(٢) وَقَوْلُهُ: «يَضْحَكُ اَللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ قَتَلَ أَحَدُهُمَا اَلْآخَرَ ثُمَّ يَدْخُلَانِ اَلْجَنَّةَ»(٣) ، فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِمَّا صَحَّ سَنَدُهُ، وَعُدِّلَتْ رُوَاتُهُ، نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نَرُدُّهُ، وَلَا نَجْحَدُهُ، وَلَا نَتَأَوَّلُهُ بِتَأْوِيلٍ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ، وَلَا نُشَبِّهُهُ بِصِفَاتِ اَلْمَخْلُوقِينَ، وَلَا بِسِمَاتِ اَلْمُحْدَثِينَ، وَنَعْلَمُ أَنَّ اَللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لَا شَبِيهَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٤)، وَكُلُّ مَا تُخَيِّلَ فِي الذِّهْنِ أَوْ خَطَرَ بِالبَالِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى بِخِلَافِهِ.

.....

هذه الجمل من كلام الموفق بن قدامه رحمه الله تعالى تتضمّن مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الموفق رحمه الله تعالى ما يشير إلى صفة النزول لله عزّ وجلّ وهي من الصّفات الفعلية كما ذكرنا، وهذا النزول ثابت لله عزّ وجلّ على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، وليس كنزول المخلوقين – تعالى الله عن ذلك – لأن الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٥) وأنه سبحانه وتعالى ليس له سميّ ولا مثيل ولا كفؤ سبحانه وتعالى، وهي ثابتة بالسُّنَّة الصحيحة، يدل على ذلك قول النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (ينزل ربّنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السّماء الدنيا؛ إذا بقي – أو إذا لم يتبقَ – إلّا الثلث الآخر) في رواية (حين يبقَى ثلث الليل الآخر)، وهو النزول الإلهي إلى السّماء الدنيا، هذا النزول القاعدة فيه كالقاعدة في غيره من الصفات، يثبت لله عزّ وجلّ على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، لا نتأوله ولا نبحث فيه في وجه يخالف منهج السلف، بل نمرّه كما جاء في النص، ولهذا من المسائل التي لا بدّ من بيانها في هذه الصفة حتى نقدر الله سبحانه وتعالى حقّ قدره؛ أهل العلم بحثوا مسائل لا يحسن بحث هذه المسائل إلّا في مقام التعليم والمُدارسة، وقالوا: إن الرب سبحانه وتعالى إذا نزل هل يكون سبحانه وتعالى فوقه شيء؟ هذا السؤال نجزم

(١) صحيح البخاري (١١٤٥).

(٢) ضعيف. أحمد (١٧٣٧١). ضعيف الجامع (١٦٥٨).

(٣) صحيح البخاري (٢٨٢٦).

(٤) الشورى: ١١.

(٥) الشورى: ١١.

جزماً قاطعاً أن الله سبحانه وتعالى لا يكون فوقه شيء سبحانه وتعالى، فهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، ولأننا لو قلنا بذلك لأبطلنا صفة العلو لله سبحانه وتعالى والتي هي من صفاته الذاتية ونحن قلنا: إن من الصّفات الصّفات الذاتية ومثّلنا لها بصفة العلم، كذلك صفة العلو صفة ذاتية، ما معنى ذاتية؟ أي لا تنفك عن الرب بأي حال من الأحوال، فالله عزّ وجلّ لم يزل عالياً ولا يزال عالياً سبحانه وتعالى على خلقه، وإيراد هذا السؤال – يعني أن الرّب سبحانه وتعالى إذا نزل هل يكون سبحانه وتعالى فوقه شيء –؟ هذا سؤال فاسد، الذي أورده إنما أورده لأنه في الحقيقة وقع في قلبه أدران التشبيه فأورد هذا السؤال، وإلّا فالرب سبحانه وتعالى لا يُقاس بخلقه، قاعدة، لا يقاس الخالق بالمخلوقين، والله عزّ وجلّ لا مثيل له وهو موصوف بهذه الصفات، ولهذا لا يُقال كذلك إن السماء تقلّ الرب سبحانه وتعالى، فهو الغني عن كل شيء، وكل شيء محتاج إليه، وهذه الأسئلة كما ذكرت لك لا ينبغي أن تورد إلّا في مقام التعليم والمدارسة، لكن قد تَرِدُ على الذهن، قد يسأل سائل، فتستطيع بهذا العلم أن تجيب على السائل الذي جاء الشيطان فقدح في قلبه شيء من الشّبه الشيطانيّة.

المسألة التي تليها – يعني مما يُبحث – بسبب تعمّق الناس بمثل هذه الأمور لأنهم ما تلقوا النصوص بالقبول وقالوا أمرّوها كما جاءت، مما يُبحث: أنه كيف يُجمع بين حديث النزول واختلاف ساعات أهل الأرض، فمن المعلوم أن أهل الأرض يختلفون في الوقت، فالآن عندنا الساعة مثلاً ما يقارب الخامسة والنصف، تجد أنه في شرق الأرض الآن قد تصل الساعة إلى الثالثة والنصف، وفي غربها ما يقارب الساعة التاسعة والنصف، اختلاف ساعات الليل بين سكّان الأرض، والرب ينزل في الثلث الآخر من الليل كيف يجمع بين ذلك؟ أن يقال: القاعدة في هذا أن الله سبحانه وتعالى أخبر أمته وخلقه أنّه ينزل إلى السّماء الدنيا على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم حين يبقى ثلث الليل الآخر، وهذا الخطاب شامل لأهل الأرض جميعاً، وعجزك عن تصوّر هذا لأنك لا تتصور إلّا نزول المخلوق أما الله سبحانه وتعالى فلا يُقاس بخلقه، المخلوق هو الذي إذا نزل يكون له هذا التصوّر أمّا الرب سبحانه وتعالى فنزوله ليس كنزول خلقه، وهذا إن كان مستحيلاً بالنسبة للمخلوقين – كيف أنه ينزل؟ – فالخالق سبحانه وتعالى لا يستحيل عليه شيء، ولهذا عبّر شيخ الإسلام ابن تيمية بعبارة أذكرها لك بنصّها قال: (فالنزول الإلهي لكلّ قوم مقدار ثلث ليلهم)

فيختلف مقداره بمقادير الليل في الشمال والجنوب، يعني الله سبحانه وتعالى ينزل في الثلث الآخر لأهل كل موضع بحسبهم، أي أن الثلث الآخر إذا مضى، فلو قال لك إنسان: كيف؟ قل: الرب سبحانه وتعالى لا يُقاس بخلقه، ولهذا قاعدة مهمّة جدّاً لا بدّ أن تعرفها أن تعرف أن الله لا مثيل له ولا يُقاس بخلقه، ما الذي حمل هؤلاء على الوقوع والتأويل لهذه الصفات؟ لمّا قاسوا الله عزّ وجلّ بخلقه، ولأنه وقع في قلوبهم أدران التشبيه؛ فأرادوا أن يتخلصوا من هذه الأدران بتحريفها وتأويلها الذين سمّوه تأويلاً، وإلا لو خلصت قلوبهم من أدران التشبيه؛ لعلموا أن الرب سبحانه وتعالى يحكم ويفعل ما يريد ولا يُقاس بخلقه، ولا يُقال: إنه كيف إذا نزل لأهل الأرض يكون؟ الله عزّ وجلّ لا يُسأل عن صفاته بكيف، والمخلوق إذا نزل يعلوه شيء أما الرب سبحانه وتعالى فهو العالي سبحانه وتعالى، ينزل وهو عالٍ، إذا قال لك كيف؟ تقول: لا يُسأل عن صفات الله عزّ وجلّ بكيف، ولهذا هناك قاعدة عند أهل العلم: أن النصوص تخبر أو جاءت بما تُحار به العقول لا بما تُحيله العقول، يعني قد يُحار عقلك بهذا، فهذا شيء طبيعي، لأن صفة الله عزّ وجلّ لا يمكن أن تتصورها ولا أن تقدرها حق قدرها، والواجب عليك الإيمان؛ والإيمان بأثر الصفة المترتب عليها، الله عزّ وجلّ لم يخبرك على لسان رسوله أنه ينزل حتى تقول كيف ينزل؟ أو كيف كذا أو أن تبحث بهذه المسائل، أثر صفة النزول ما هو؟ قُرْبُهُ من خلقه واستجابة دعاء الداعين وسماع شكوى المشتكين إلى الله عزّ وجلّ، وفضل الله عزّ وجلّ عظيم بهذا النزول، لا تنحرف عمّا أراد الله تعالى لك وكن عبداً موفقا على منهج السلف في مثل هذا، وإن شاء الله يأتي موضع لبيان منهج السلف رحمهم الله والصحابة في التعامل مع نصوص الصفات، المتأخرين إذا جاءت هذه الصفة قالوا كيف ينزل؟ كيف إذا نزل؟ هل ينفك عن صفة العلو إذا نزل؟ إلى غير ذلك من المباحث التي لا فائدة من فيها، أما السلف رحمهم الله فيتلقونها بالقبول ويَخْلُصُون إلى ما أراد الله عزّ وجلّ إخبارهم به، أنه إذا نزل ماذا يقول؟ هل من داعٍ؛ فأجيبه، هل من مستغفر؛ فأغفر له، هذا آثار الصفات لا بدّ أن تؤمن بها.

المسألة التي تليها: ذكر الماتن رحمه الله تعالى صفة العجب لله عزّ وجلّ وأن الله عزّ وجلّ يعجب، وهي من الصفات الفعلية وليست من الصفات الذاتية، وورد ذكرها في القرآن في قراءة ﴿بَلْ عَجِبْتُ

وَيَسْخَرُوْنَ﴾[1] على قراءة الضم وهي قراءة حمزة و الكسائي وخلف وهي قراءة سبعية صحيحة، وجاء في الحديث: «يعجب ربّك من الشاب ليس له صبوة»[2]، وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف فثمّة أحاديث صحاح في هذا الموضع، من ذلك ما رواه البخاري: «عجب الله من قوم يدخلون الجنّة بالسلاسل»[3]، كذلك في البخاري نص آخر: «عجب ربّنا من فلان وفلانة»[4]، وكذلك ورد في الحديث الصحيح: «عجب ربّك من قنوط عباده وقرب غِيَرِهِ عليهم»[5] أي تغييره عليهم، فالحاصل أن صفة العجب لله عزّ وجلّ تثبت تثبت له على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، ثبتت في كتاب الله وبسُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ثم قال الماتن الإمام الموفق بن قدامه رحمه الله تعالى: (وكل ما تخيّل في الذّهن أو خطر بالبال فإن الله تعالى بخلافه) وهذا يجرّنا إلى مسألة عظيمة وقاعدة عظيمة في المنع من تكييف صفات الله عزّ وجلّ؛ وأن الله تعالى لا يمكن أن يصل الإنسان إلى تخيّل صفاته، ولو فعل ووقع في هذا المحظور – لأن الشيطان يرد عليه –، فالله تعالى بخلاف ذلك، ولهذا كلّما تتخيل لن تصل إلى شيء، بل تقطع قطعاً جازماً وتعقد قلبك على ذلك أن الله تعالى بخلاف ذلك، ولا يجوز أن تبحث في صفات الله عزّ وجلّ بهذه التّخيلات، بل تقطع هذه الوسوسة، تعرف أنك لن تصل إلى شيء، ولهذا قدّمتُ لك بقاعدة عند السلف وهي: قطع الطمع عن إدراك كيفية الصفات، لا تستطيع أن تصل إليه، ولو دخل عليك الشيطان في هذا الباب فإنك تقطع بأن ما صَوَّرَهُ لك الشيطان؛ الله تعالى بخلاف ذلك، والله عزّ وجلّ قال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾[6] لا يمكن أن تحيط بكيفية صفات الله عزّ وجلّ علما، والنصوص كما ذكرتُ لك تأتي بما تُحار به العقول لا بما تُحيله العقول، والله عزّ وجلّ سمّى نفسه ووصف نفسه ووصفه رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وليس فيما وصف به نفسه أو ما وصفه رسوله صلّى الله عليه وسلّم تنزيه ولا تشبيه، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيرا.

---

(١) الصافات: ١٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح البخاري (٣٠١٠).

(٤) صحيح البخاري (٣٧٩٨) بنحوه.

(٥) صحيح. أحمد (١٦١٨٧) بلفظ (ضحك). الصحيحة (٢٨١٠).

(٦) طـه: ١١٠.

- سؤال: ؟؟؟[1]

جواب: قدّمنا لك أن الأولى التعبير بنفي التمثيل لا بنفي التشبيه، وإن كان التعبير بنفي التشبيه وارد في كلام السلف، لكن حتّى تكون دقيقا في ألفاظك وتوافق النص عبّر بنفي المثلية، لأنه هو الذي جاء نفيه في النص ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] سبحانه وتعالى.

ثَمَّ صفة ذكرها الماتن وهي صفة الضحك لله عزّ وجلّ وهي صفة ثابتة لله عزّ وجلّ على الوجه اللائق، جاءت في حديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «عجب ربّك من قنوط عباده وقُرْبِ غِيَرِه عليهم - أي التغيير عليهم من حال الضرّاء إلى حال الرخاء - ينظر إليكم أَزِلِيْنَ قَنِطِيْن فيظلّ يضحك يعلم أن فرجكم قريب»[3] جاء في الحديث «كذلك يضحك الله إلى رجلين» هذا الضحك لله عزّ وجلّ صفة لله عزّ وجلّ كغيره من الصفات، يعني بعض الناس ربّما إذا سمع بهذه الصفة يستوحش، هذا لا يصح، كل ما أخبر الله عزّ وجلّ به يجب الإيمان به على الوجه اللائق، وليس في ذلك شيء، فأنت تقطع إذا قال: إن الله يضحك، تقول: نعم إن الله يضحك، لأن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخبرنا أن الرب سبحانه وتعالى يضحك، لكن قطعاً ضَحِكُ الرب سبحانه وتعالى ليس كضحك المخلوقين، وهذا يفيدك فائدة عظيمة أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا أورد هذا الحديث - حديث أبي رزين من الصحابة - قال أبو رزين من الصحابة لمّا حدّث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بهذا الحديث قال: «أو يضحك الرب؟»، هذا صحابي يسأل النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (نعم)، فماذا قال هذا الصحابي؟ قال: (كيف يضحك؟) أم حاول يتأولها؟ انظر إلى منهج السلف في التعامل مع النصوص والصفات، قال: «لن نعدم من رب يضحك خيرا»[4]، الله أكبر، لم يبحث بعقله كيف أن الله عزّ وجلّ يضحك، الله عزّ وجلّ له كذا له كذا، بل آمن بأثر الصفة، الله عزّ وجلّ أخبرك بأنه يضحك وأخبرك أنه ينزل، فلا تنظر بأدران التشبيه بهذه الصفات ولكن انظر إلى آثار هذه الصفات، فهذا الصحابي بما جَبَلَ الله قلبَه عليه من الإيمان، قال: «لن نعدم من رب

(١) السؤال غير مسموع.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) المستدرك (٨٦٨٣) بنحوه. راجع الصحيحة (٢٨١٠).

(٤) صحيح. أحمد (١٦١٨٧). الصحيحة (٢٨١٠).

يضحك»، «أَوَ يضحك الرب؟» استبشار؛ استبشر، إذا كان الرب سبحانه وتعالى يضحك فذاك من علامات أن رحمته سبحانه وتعالى بخلقه، فهذه الصفة ثابتة لله عزّ وجلّ ونؤمن بأثرها؛ أن الرب سبحانه وتعالى فضله عظيم على خلقه وأنه محسن سبحانه وتعالى، وهذا يدلك على الفرق بين منهج السلف ومنهج الخلف، أما منهج الخلف فإنه يخالف هذا المنهج تجد أنه إذا أُخبر بمثل هذه الصفات قال: كيف ينزل؟ ولهذا يأتي معنا إن شاء الله في صفة الاستواء سؤال الإمام مالك رحمه الله تعالى في هذا الموضع.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾(٢)، وَقَوْلُ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبُّنَا اَللهُ اَلَّذِي فِي اَلسَّمَاءِ تَقَدَّسَ اِسْمُكَ»(٣)، وَقَالَ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اَللهُ؟» قَالَتْ: «فِي اَلسَّمَاءِ» قَالَ: «اِعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٤) رَوَاهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ اَلْأَئِمَّةِ، وَقَالَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحُصَيْنٍ: «كَمْ إِلَهًا تَعْبُدُ؟ قَالَ سَبْعَةً، سِتَّةً فِي اَلْأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي اَلسَّمَاءِ»، قَالَ: «مَنْ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: «اَلَّذِي فِي اَلسَّمَاءِ»، قَالَ: «فَاتْرُكْ اَلسِّتَّةَ، وَاعْبُدْ اَلَّذِي فِي اَلسَّمَاءِ، وَأَنَا أُعَلِّمُكَ دَعْوَتَيْنِ؛ فَأَسْلَمَ» وَعَلَّمَهُ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ: «اَللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي»(٥) وَفِيمَا نُقِلَ مِنْ عَلَامَاتِ اَلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ فِي الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ : «إِنَّهُم يَسْجُدُوْنَ بِالأَرْضِ، وَيَزْعُمُوْنَ أَنَّ إِلَهَهُم فِي السَّمَاءِ»(٦)، وَرَوَى أَبُو دَاوُد فِي سُنَنِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةَ كَذَا وَكَذَا» وَذَكَرَ اَلْخَبَرَ إِلَى قَوْلِهِ «وَفَوْقَ ذَلِكَ اَلْعَرْشُ، وَاَللهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ ذَلِكَ(٧)» فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِمَّا أَجْمَعَ اَلسَّلَفُ – رَحِمَهُمْ اَللهُ – عَلَى نَقْلِهِ وَقَبُولِهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِرَدِّهِ وَلَا تَأْوِيلِهِ وَلَا تَشْبِيهِهِ وَلَا تَمْثِيلِهِ.

سُئِلَ اَلْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ –رَحِمَهُ اَللهُ– فَقِيلَ :يَا أَبَا عَبْدِ اَللهِ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٨) كَيْفَ اِسْتَوَى؟ فَقَالَ: اَلِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، ثُمَّ أَمَرَ بِالرَّجُلِ فَأُخْرِجَ.(٩)

.....

هذه الجمل من كلام الموفق رحمه الله تعالى تتضمن الكلام عن مسألة صفة الاستواء لله عزّ وجلّ،

(١) طـه:٥.

(٢) الملك: ١٦.

(٣) ضعيف جدا. أبو داود (٣٨٩٢). ضعيف الجامع (٥٤٢٢).

(٤) صحيح مسلم (٧٧٢).

(٥) ضعيف. الترمذي (٣٤٨٣)، صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٤٨٣).

(٦) لا سند له، أفاده الشارح كما ستجده بعد قليل.

(٧) ضعيف. أبو داود (٤٧٢٣). الضعيفة (١٢٤٧).

(٨) طـه:٥.

(٩) رواه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات (٨٦٧)، وقال العسقلاني رحمه الله في الفتح (٤٠٧/ ١٣): إسناده جيد.

والاستواء من الصفات الفعلية لله عزّ وجلّ، وهي ثابتة في كتاب الله وسُنَّةِ رسوله صلّى الله عليه وسلّم، بل جاء الاستواء في سبعة مواضع من كتابه سبحانه وتعالى، وهو استواء حقيقي يليق بجلاله سبحانه وتعالى، ومعنى الاستواء في لغة العرب يراد به العلوّ والاستقرار والارتفاع والصعود، وكل هذه المعاني ورد تفسيرُها عن السلف رحمهم الله عزّ وجلّ، وهذا مما أجمع عليه السلف، وحكى الإجماعَ فيه غير واحدٍ منهم، أما الأشاعرة فيجعلون الاستواء عائداً إلى العرش لا إلى الله عزّ وجلّ، استواء الله عزّ وجلّ على عرشه، والمعتزلة يقولون: استواء الله على عرشه هو الاستيلاء، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١) يعني استولى، وقد وافقهم على ذلك جملةٌ من المتأخرين من الأشعرية، يعني الأشعرية المتقدمون منهم يخالفون المتأخرين، لا بد تعرف هذا إن شاء الله ويأتي بيانه في موضعه، جملة من الأشعرية المتأخرين كالجويني والآمديّ صاروا إلى القول بتأويل الاستواء إلى معنى الاستيلاء بينما المتقدمين منهم على خلاف ذلك، واستدلوا وزعموا أن ذلك تدل عليه لغة العرب، استدلوا ببيت مصنوع يزعمون أنّه للأخطل يقولون فيه: قد استوى بشرٌ – يعني بشر ابن مروان – على العراق من غير سيفٍ ولا دمٍ مهراق، قالوا: معنى استوى هنا استولى، فمعنى الرحمن على العرش استوى استولى، طبعاً هذا باطل، والبيت هذا مصنوع، ولا نطيل في ذلك لأن الإطالة ربما تخرجني عن المقصود في هذا الشرح، ولهذا سئل الخليل بن أحمد وهو من أئمة اللغة، هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: هذا ما لا تعرفه العرب ولا هو جائز بلغتها، والاستواء في لغة العرب يطلق على العلوّ والارتفاع والصعود والاستقرار ولم يرد في لغة العرب معنى الاستواء بالاستيلاء، بل هو تحريفٌ للكلم عن مواضعه.

المسألة التي تليها ممّا تتعلق بمسائل الاستواء هي ما ذكره الله عزّ وجلّ من العرش، فالعرش لغةً السرير الخاص بالملك، وفي الشرع العرش العظيم الذي استوى عليه الربّ سبحانه وتعالى، فالرحمن على العرش استوى، العرش هو العرش العظيم الذي استوى عليه الرب سبحانه وتعالى لّما خلق الخلق، وهو أعلى المخلوقات وأعظمها وأكبرها، جاء وصفه بالقرآن بأنه عظيم ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(٢) بأنّه مجيد وبأنّه كريم.

---

(١) طه: ٥.

(٢) التوبة: ١٢٩.

كريم.

المسألة التي تليها: الكرسي ممّا يتعلق بمباحث الاستواء على العرش الكرسي، والكرسي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ﴾[1] جاء ذكره بالنص، كما نقل عن ابن عباس فيما صحّ عنه (موضع قدمي الرب سبحانه وتعالى، والعرش - كما قال ابن عباس - لا يقدر أحد قدره)[2]، هذا الحديث رواه الحاكم وابن خزيمة في التوحيد وإسناده صحيح، قال: إن الكرسي موضع القدمين، مما يتعلق بكلام ابن قدامة تخريج بعض الأحاديث، حديث «ربنا الذي في السماء تقدس اسمك» هذا الحديث أخرجه أبو داود وبعضهم ضعّف إسناده وبعضهم حسّن اسناده، ممن حسّن هذا الاسناد شيخ الإسلام ابن تيمية، حديث حصين ابن عبد الرحمن «كم تعبد» هذا الحديث أخرجه الترمذي وحسّنه وفيه من يُضَعَّف، وأما ما نقله ابن قدامة من علامات أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلم هذا النقل بعد البحث لا سند له، وأما الحديث الذي رواه أبو داود في سننه أنه «ما بين سماء إلى سماء مسيرة كذا وكذا» فهذا الحديث مشهور، هذا الحديث حديثٌ مشهور ويسمى بحديث الأوعال وإنما سمّي بذلك لأن في متن هذا الحديث و«فوق ذلك ثمانية أوعال ما بين ركبهنّ وأظلافهنّ كما بين السماء والأرض»، طبعاً مما ينبغي البيان فيه هذا الحديث حديث الأوعال؛ تكلّم السلف فيه وذكر بعض أهل السلف أنه ما ينكره إلّا الزنادقة من أهل البدع، والحقيقة أن هذا الحديث ضعفه جمعٌ من أهل العلم، ومن المتأخرين ممن ضعفه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى، وبعضهم حسّن إسناده مثل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وقبله الإمام ابن خزيمة، وممن يُصَحِّح هذا الحديث من المعاصرين الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله تعالى وكذلك الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى، والجمع في الحديث؛ ولو كان في إسناده ضعف فإنّه لو صح لا مانع من ذلك كما قال الشيخ الفوزان حفظه الله لمّا سئل عن هذا الحديث؛ قال الشيخ الفوزان رحمه الله - وأنا أنقل لكم العبارة بنصها - وما ذكر من أنّه «فوق ذلك ثمانية أوعال» يعني: هذه ذِكْرُ الأوعال هذا هو سبب الاستيحاش من الحديث، قال: لا مانع من ذلك والأوعال ملائكة خلقها الله تعالى ولا يعلم خلقها إلا الله عزّ وجلّ، خلقها الله عزّ وجلّ على صورة أوعال، فلا مانع من هذا إذا صح الحديث

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) صحيح. الحاكم (٣١١٦). وصححه ووافقه الذهبي، وصححه أيضا الألباني في مختصر العلو (ص١٠٢) رحمهم الله تعالى.

ولا مانع، وليس في ذلك غرابة وليس فيه شيء من ذلك، أما الزنادقة والملاحدة فلا عبرة بكلامهم وبأقوالهم فإذا صحّ الحديث فهو حجة، وليس في ذِكْرِ الأوعال ما يستغرب؛ فإن الله عزّ وجلّ يخلق ملائكته على أيّ صفة كانت، طبعاً ثَمَّ رسالة أُلِّفَتْ في حديث الأوعال أَلَّفَهَا عبدُ الله بن يوسف الجديع في بيان طرق هذا الحديث وتوصّل إلى أنّ هذا الحديث ضعيف، وعموماً سواء صحّ الحديث أو كان الحديث ضعيفاً فإن هذه المسائل من مسائل الاجتهاد تصحيح الحديث، لكن المعنى أنّه ينبغي أن لا يُجازف الإنسان في هذه المسائل ولا يستوحش من ذكر هذه الأوعال فإن الله عزّ وجل ّ يخلق ملائكته على أيّ صورة كانت، بل إنّ الملائكة تأتي إلى الأرض وجاء إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم جبريلُ في صورة ماذا؟ في صورة رجل، وملائكته سبحانه وتعالى يخلقها في أيّة صورة كانت، وليس في ذلك شيء.

مما يُبحث من المسائل التي لا تبحث إلا على سبيل المُدارسة والتعليم: أنّ الربّ سبحانه وتعالى إذا نزل إلى السماء الدنيا هل يخلو من العرش؟ هذه المسائل لا تُبحث إلا على سبيل المدارسة والتعليم، والجواب أن نقول: مُوْرِدُ هذا السؤال مُتَنَطِّعٌ وإيراده غير مناسب، والصواب أننا نسكت عمّا سكت عنه الصحابة، النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا أخبرهم أنّه ينزل لم يسألوه هذه المسائل، ولكن لمّا بُحثت هذه المسائل في كلام بعض الناس كان لا بد من الجواب، والصواب: أنّ الربّ سبحانه وتعالى ينزل ولا يخلو منه العرش سبحانه وتعالى، فإن قيل: كيف؟ قيل: الربّ سبحانه وتعالى لا يُقاس بخلقه ولا يُسأل عنه بكيف.

وصلّى الله عليه وسلّم على نبينا محمد.

شَرحُ لُمعَةُ الاعْتِقَادِ للشَّيْخِ فَهْد المقْرِن

الشّريط الثّالث

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا اله الّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيّه مِنْ خَلْقِه، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، وبعد.

اللّهم علّمنا ما ينفعنا وارزقنا العلم النافع والعمل الصّالح يا ربّ.

قبل أن نقرأ كان بالأمس ثمّة أسئلة ونقرأ هذه الأسئلة ونجيب عليها على وجه الاختصار ونفصّل فيما يحتاج التفصيل مما يحتاج البيان.

- سؤال: هل ثبتت هذه المناظرة عن عبد العزيز الكناني؟

جواب: أظنه اختلط عليه، هذه المناظرة غير مناظرة الحيدة للكناني، وأما مسألة إثبات المناظرة في الحيدة فيه كلام كثير جداً، ولكن هذه الأمور قد لا يحتاج إليها سند، إسناد الحيدة الواصل إلينا فيه مقال، لكن هذه مشهورة ومعروفة ولا يحتاج إلى إثبات سند مثل هذه الأمور.

- سؤال: حكم تعلّم بعض العلوم عن الأشاعرة مثل تلاوة القرآن؟

جواب: إذا لم يوجد من يعلّم هذا العلم في البلد غيرهم أو في تلك البلد، الأصل الإنسان أن يبتعد عن أهل البدع، وسوف يأتي عندنا في مسألة هجران أهل البدع، وقدر المستطاع، فإذا كان تعلّم هذا العلم، تعلم التلاوة فيها تعلّم الواجب و تصحيح التلاوة فهذا لا بأس أن يتعلم الإنسان، لكن بما يتعلق بأحكام التجويد والقراءات، لأن الأصل أن لا يأخذ الإنسان هذه العلوم إلا عن أهل السُّنَّة ولا يجلس إلا مع أهل السُّنَّة.

- سؤال: ما الذي دفع القول بعدم خلوّ الله عزّ وجلّ من عرشه بحال نزوله، وما الراجح في هذه المسألة؟

جواب: تقدّم الكلام عن هذه المسألة وأن عبارات ابن تيمية وكلام السلف رحمهم الله هو ما ذكرنا لك؛ هو أن الربّ سبحانه وتعالى ينزل ولا يخلو منه عرشه، والله تعالى لا يقاس بخلقه.

- سؤال: يسأل عن قول ابن قدامة (وجب إثبات لفظه؛ وترك التعرض لمعناه) ظاهره التفويض؟

جواب: سبق الكلام على أن هذا الكلام غير صحيح وأن ابن قدامة من أبعد الناس عن هذا، وبيّنا مقصود ابن قدامة رحمه الله تعالى.

- سؤال: ما سبب كون أكثر الأئمة المعروفين بالعلم والفقه مثل ابن حجر العسقلاني والبيهقي والرازي على عقيدة الأشاعرة؟

جواب: أما قوله أكثر الأئمة المعروفين بالعلم والفقه على مذهب الأشاعرة؛ فهذا ليس بصحيح، الأكثر هم أهل السُّنَّة والجماعة وأهل التحقيق، أما وجود بعض أهل العلم من شرّاح الأحاديث وقعوا في مسلك الأشاعرة في مسائل الصفات؛ فلذلك أسباب: من الأسباب: البيئة التي ينشؤون فيها والمدرسة التي تعلّموا العلم فيها، ولهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى على عبده أن يوفقه الله عزّ وجلّ بأن يتعلم على منهج أهل السُّنَّة وعلى طريقة أهل السُّنَّة. وسبق الكلام عن صفة الاستواء وأنها من الصفات الفعليّة.

- سؤال: ما مراد الإمام أحمد رحمه الله تعالى (ونصف الله عزّ وجلّ بلا حدّ ولا غاية)؟

جواب: هذا الحقيقة يحتاج بيان وتوضيح أن عبارة الإمام أحمد هنا في قوله (بلا حدّ ولا غاية) لا بد أن يعرف أن الحدّ والغاية هما نهاية الشيء ومداه الذي ينتهي إليه، ومعنى كلام أحمد بهذا الموضع فيما نقله عنه ابن قدامة؛ أننا نتقبل هذه الصفات الواردة ولا نحدّدها ونجعل لها غايات ومنتهى من قبل أنفسنا، بل نجريها وفق قوله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]، فالخلق علمهم قاصر أنْ يُحدّدوا أو يصفوه سبحانه وتعالى على ما هو عليه إلا بما أخبر به سبحانه وتعالى عن نفسه، ومن هذا تعلم أن عقول الخلق لا تحيط بصفات الربّ سبحانه وتعالى، ولهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى في خطبته في كتابه الرسالة: (الحمد لله الذي هو كما

(١) الشورى: ١١.

وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه)، هذا لا بدّ أن تعرفه أن هذا مراد الإمام أحمد فيما نقله عنه ابن قدامة.

نعيد كلام الإمام أحمد (وَلَا نَصِفُ اللهَ بِأَكْثَرَ مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بِلَا حَدٍّ وَلَا غَايَة): هذا هو مراد الإمام أحمد، يعني أن نتقبّل هذه الصفات وفق ما جاءت في كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، هذا من وجه، ومن وجه أنه جاء في عبارات السّلف أن الربّ سبحانه وتعالى هو على العرش بحدّ، هو على العرش بحدّ، نقل هذا عن عبد الله بن المبارك، وسُئل الإمام أحمد عن هذا فقال: نعم، وافقه على ذلك، فما المراد بذلك؟ الحدّ هنا هو ذلك الحدّ الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، لأن الكيف مجهول، كيف استوى؟ مجهول للخلق، ولأن الجهميّة ينفون الحدّ ويقولون بلا حدّ، ويريدون بذلك أن الله تعالى لا وجود له، وأنّ الله ليس بشيء - كما قد بيّن ذلك الإمام الدارمي رحمه الله تعالى في الرد على بشر المرّيسي - وأن مآلهم في قولهم بلا حدّ نفي أنّ الله سبحانه وتعالى موجود، والله تعالى يقال: له حدّ لا يعلمه أحدٌ غيره سبحانه وتعالى، ولا يجوز لأحد أن يتوهم لحدّه سبحانه وتعالى غاية في نفسه، ولكن يؤمن بالحدّ كما جاء في كتاب الله وفي سُنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

إذاً عبارات السّلف، تارةً يقولون: بلا حدّ، وتارةً يقولون: بحدّ، تارةً يقولون: بحدّ ويعنون أن الله سبحانه وتعالى موجود، والله تعالى يقال: له حدٌّ لا يعلمه أحدٌ غيره سبحانه وتعالى، ولا يجوز لأحدٍ أن يتوهم لحدّه سبحانه وتعالى غاية في نفسه، ولكن يؤمن بالحدّ كما جاء في كتاب الله وفي سنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، اذاً عبارات السّلف تارةً يقولون: بلا حدّ، وتارةً يقولون: بحدّ، تارةً يقولون: بحدّ ويعنون شيئاً مُعيناً - وذكرته لك من كلام الإمام أحمد - وإذا وصفوا الله عزّ وجلّ قالوا: هو على العرش بحدّ ويريدون بذلك الردّ على الجهميّة.

بقي مصطلح الحدّ، مصطلح الحدّ هذا إنما تكلّم به السّلف لأنّ أهل البدع تكلّموا فيه، فكان واجب عليهم البيان والرد على أهل البدع، لأنّ بعض من لا يُحسن هذا الموضع يعيب على السّلف التكلّمَ بهذه المصطلحات، فالسّلف رحمهم الله إنّما تكلّموا والأئمّة كالإمام أحمد وعبد الله

بن المبارك في الردّ على الجهميّة، والردّ على أهل البدع، لم يقولوا ذلك ابتداء وإنّما سؤال فجواب، إذاً تارةً يعنون بلا حدّ معنى، وتارةً يثبتون الحدّ بمعنىً آخر، يعني هو على العرش بحدّ لإثبات أنّ الربّ سبحانه وتعالى استوى على العرش، نعم.

من أراد الاستزادة من هذه المسألة فليرجع إلى كتاب (تنزيه الشّريعة عن الألفاظ الشّنيعة) للشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله، وكتاب الردّ على بشر المرّيسي للدّارمي، وعبارات شيخ الإسلام التي ذكرها في درء تعارض العقل مع النقل، هذا هو خلاصة ما ذكره الأئمّة في هذه المسألة.

فَصْلٌ

مِنْ صِفَاتِ اَللهِ تَعَالَى اَلْكَلَامُ

وَمِنْ صِفَاتِ اَللهِ تَعَالَى؛ أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ قَدِيمٍ، يَسْمَعُهُ مِنْهُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، سَمِعَهُ مُوسَى عليه السلام مِنْهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَسَمِعَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، وَمَنْ أَذِنَ لَهُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَنَّهُ – سُبْحَانَهُ – يُكَلِّمُ اَلْمُؤْمِنِينَ فِي اَلْآخِرَةِ، وَيُكَلِّمُونَهُ، وَيَأْذَنُ لَهُمْ فَيَزُورُونَهُ، قَالَ اَللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(١)، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾(٢)، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾(٣)، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾(٤)، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾(٥)، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾(٦)، وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَقُولَ هَذَا أَحَدٌ غَيْرُ اَللهِ.

وَقَالَ عَبْدُ اَللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه إِذَا تَكَلَّمَ اَللهُ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ صَوْتَهُ أَهْلُ اَلسَّمَاءِ(٧)، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

---

(١) النساء: ١٦٤.

(٢) الأعراف: ١٤٤.

(٣) البقرة: ٢٥٣.

(٤) الشورى: ٥١.

(٥) طه: ١١، ١٢.

(٦) طـه: ١٤.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (١٤١/ ٩) تعليقا.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه (فتح الباري) (٤٥٦/ ١٣) – عن أثر ابن مسعود السابق –: (وقد وصله البيهقي في الأسماء والصفات من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن مسلم بن صبيح – وهو أبو الضحى – عن مسروق).

والحديث رواه أيضا ابن ماجه رحمه الله في المقدمة من السنن (٦٢/ ١)؛ وقال: (باب في ما أنكرت الجهمية).

وَرَوَى عَبْدُ اَللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ رضي الله عنه عَنْ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «يَحْشُرُ اَللَّهُ اَلْخَلَائِقَ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ عُرَاةً حُفَاةً غُرْلاً بُهْمًا، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا اَلْمَلِكُ، أَنَا اَلدَّيَّانُ» رَوَاهُ اَلْأَئِمَّةُ، وَاسْتَشْهَدَ بِهِ اَلْبُخَارِيُّ.

وَفِي بَعْضِ اَلْآثَارِ أَنَّ مُوسَى عليه السلام - لَيْلَةً رَأَى اَلنَّارَ - فَهَالَتْهُ فَفَزِعَ مِنْهَا، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا مُوسَى، فَأَجَابَ سَرِيعًا اِسْتِئْنَاسًا بِالصَّوْتِ فَقَالَ: لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، أَسْمَعُ صَوْتَكَ، وَلَا أَرَى مَكَانَكَ، فَأَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا فَوْقَكَ، وَأَمَامَكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، فَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ لَا تَنْبَغِي إِلَّا للهِ تَعَالَى، قَالَ: كَذَلِكَ أَنْتَ يَا إِلَهِي، أَفَكَلَامَكَ أَسْمَعُ، أَمْ كَلَامَ رَسُولِكَ؟ قَالَ بَلْ كَلَامِي يَا مُوسَى.(١)

.....

ثَمَّ مسائل سبق الكلام عليها في مسألة الاستواء، ومن المسائل التي يحسن أن نبحثها في مسألة الاستواء يعني لم نذكرها هي مسألة أو صفة العلوّ لله عزّ وجلّ، لمّا ذكرت صفة الاستواء لا بدّ من بيان صفة العلوّ، وهذه الصفة من صفات الله عزّ وجلّ الثابتة لله عزّ وجلّ، وهو أنّ الله سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه، وأدلة هذه الصفة يذكر أهل العلم أنّ من أدلتها العقل والفطرة والنصّ والإجماع.

أما العقل في إثبات هذه الصّفة؛ فيستدلّ أهل العلم في إثباتها لأنّ - تعرفون أنّ العمدة هو النصّ - ولكن في مقام البيان والإيضاح يستدلّ بالأدلة العقليّة، من الأدلّة العقليّة على إثبات هذه الصّفة، يستدلون بطريقة معروفة عند المناطقة وعند علماء أصول الفقه يسمّونها طريقة السّبر والتّقسيم، وهذه طريقة علميّة معروفة عند علماء الأصول ويقال بإثبات صفة العلوّ لله عزّ وجلّ: إن الله تعالى لمّا خلق الخلق إما أن يكون خلقهم في ذاته أو خارج ذاته، والأول ممتنع عقلاً وشرعاً - أن يكون خلق الله سبحانه وتعالى الخلقَ في ذاته -، فتعيّن الثاني؛ وهو أنّ الله سبحانه وتعالى خلقهم خارج ذاته سبحانه وتعالى، فيقال إما أن يكون - الاحتمالات - إما أن يكون خلقهم عن

(١) رواه أحمد في الزهد (٣٤٢) من كلام وهب بن منبه.

يمينه أو عن شماله أو خلقهم فوقه أو هم تحته، فهذه جهات أربع، العقل لا يتصور إلا هذه، وأكمل الجهات أن يكون الربّ سبحانه وتعالى فوقهم والخلق تحته سبحانه وتعالى، فتعيّن أنّ الله خلقهم وهو عالٍ عليهم سبحانه وتعالى، فهذا الدليل العقلي، طبعاً في مقام الحجاج والمناظرة يُستدلّ بمثل هذه الأدلّة، لهذا في الحيدة – لو راجعت الحيدة للكناني في مناظرة الحيدة – لوجدتم أنّه يستدلّ بهذه الأدلّة في الردّ على بشر المرّيسي في قوله بخلق القرآن.

أما دليل الفطرة على إثبات هذه الصفة فالله تعالى فَطَرَ الخلق على الإقرار بذلك، حتّى إنّ البهائم تطلب الفرج من السماء، وهذه ضرورة يجدها الإنسان من نفسه لا ينازع بها إلا معاند، ولهذا لمّا تكلّم الجويني في نفي هذه الصفة – وهو من متأخري الأشعريّة – قال له الهمذاني – وكان حاضراً حلقة الدرس – فقال: دعنا من هذا التقرير، ولكن أخبرني عن هذه الضرورة التي يجدها الإنسان من نفسه؛ أنّه إذا دعا لا يطلب إلّا جهة العلوّ، فعند ذلك قال: الجويني حيرني الهمذاني؛ حيرني الهمذاني – كما هو مشهورٌ من هذه القصّة – هذه ضرورة يجدها الإنسان في نفسه.

أما النصّ – الأدلّة النصيّة والشرعيّة – أو ما يسّمى في الاصطلاح السّمع؛ فأكثر من أن يحصر، الأدلّة على أنّ الله سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه، ولهذا ألّف ابن القيّم رحمه الله تعالى كتابه الماتع المسمّى (اجتماع الجيوش الإسلاميّة على غزو المعطّلة والجهميّة) وذكر فيه أكثر من ألف دليل على علوّ الله سبحانه وتعالى على خلقه، وكذلك ابن قدامة رحمه الله تعالى له رسالة في إثبات صفة العلوّ، وهذه الأدلّة متنوّعة، وقد ذكر ابن أبي العزّ رحمه الله تعالى في شرح الطّحاويّة أن هذه الأدلّة وردت على عشرين وجه، على عشرين وجه – الأدلّة الشرعيّة والنصيّة –، تارةً في التصّريح بالفوق وتارةً في التصّريح بالعلوّ المطلق وذكر هذه الأوجه فلتراجع، أما الاشعريّة موقفهم من هذه الصّفة فالمتقدمون منهم كالباقلّاني يثبت هذه الصّفة كما صرّح في كتابه التمهيد، أما متأخرو الأشعريّة ينفون هذه الصّفة لله عزّ وجلّ ينفون صفة العلوّ، ومن هؤلاء الجويني كما ذكرت لك والغزّالي والآمدي والرّازي، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في نقض التأسيس

- تأسيس الرازي -، قال: بعد أن أورد كلام المتقدمين من الأشعريّة في إثبات هذه الصّفة يقول- وهو يعني الرّازي -: عُلِمَ أنّ هذا الرّازي ونحوه هم مخالفون لأئمتهم في ذلك، وأنّ الذي نصره الرّازي هو صريح قول الجهميّة والمعتزلة، الذين متقدمو الأشعريّة يتبرّؤون منهم.

المسألة الّتي تليها وهي متعلقة بصفة العلوّ: أن يقال: علوّ الله عزّ وجلّ يقسّم إلى ثلاثة أقسام، علوّ الذات وعلوّ القدر وعلوّ القهر، علوّ الذات هو الّذي يخالف فيه أهل البدع، أما الأقسام الأخرى فيوافقون أهل السُّنَّة، ولهذا موقف أهل السُّنَّة ممّن ينكر هذه الصّفة صرّحوا بكفره لظهور الأدلّة في علوّ الله سبحانه وتعالى وأنّ الأدلّة ليست خافية.

ممّا يبحث في هذا الموضع معنى كون الله عزّ وجلّ في السماء يعني أنّه سبحانه وتعالى على السماء، كما جاء في بعض النصوص، فحرف الفاء يأتي بمعنى (على) في لغة العرب، وليست تأتي بمعنى الظرفية إذا قيل إنّ الله عزّ وجلّ في السماء، لأن السماء لا تحيط به سبحانه وتعالى، ولأنّ العرب تقول: كلّ ما عَلَاك فهو سماء، وهذا معروفٌ في لغة العرب، والمطر يسمى في لغة العرب سماء لأنّه ينزل من علوّ، ولهذا - يعني كون الله عزّ وجلّ في السماء - معناه أنّه على السماء سبحانه وتعالى.

المسألة الّتي تليها في كلام الإمام مالك؛ سُئل الإمام مالك عن الاستواء فقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثمّ أمر بالرّجل فأخرج)[1] هذا الأثر أخرجه ابن قدامة في إثبات العلوّ والدارمي في الردّ على الجهميّة وهو مشهور عن الإمام مالك، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ومثل هذا الجواب ثابتٌ عن ربيعة شيخ الإمام مالك، وروي عن أمّ سلمة وفي سنده مقال، والصحيح أنّه ثابت عن مالك وعن شيخه ربيعة ما يسمّى أو ما يسمّيه أهل العلم بلقب ربيعة الرأي، هذا الأثر الثابت وهذا الجواب من الإمام مالك له قصّة وهو أنّ الإمام مالك كان في حلقة من حلقات[2] العلم وكان يدرّس وكان

(١) رواه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات (٨٦٧)، وقال العسقلاني رحمه الله في الفتح (٤٠٧/ ١٣): إسناده جيد.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٤٠/ ٣).

الإمام مالك رحمه الله ممّن يعظّم أحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان مجلس العلم الذي يحضره الإمام مالك مجلس مهيب، وذكر أهل الأخبار أنّ الإمام مالك رحمه الله تعالى أَوْكَلَ بهذا المجلس حرّاس يقفون في هذه الحلقة، فمن أساء الأدب أو تعدى أو كذا؛ فإنّه يُخرج من هذه الحلقة، فجاء هذا الرّجل أفاقي – يعني من غير أهل المدينة –، فجاء والإمام مالك يدرّس فقال: الرّحمن على العرش استوى؛ كيف استوى؟ سأل هذا السؤال، فالإمام مالك لمّا سُئل هذا السؤال أطرق وعلته الرّحضاء – عَرِقَ – من هذا السؤال، سؤال لا يجوز السؤال عنه، فأجاب الإمام مالك رحمه الله تعالى بالإجابة العظيمة السّديدة التي صارت قاعدة عند علماء السّلف، قال: الاستواء غير مجهول، وفي رواية الاستواء معلوم يعني معناه في لغة العرب معلوم، الله عزّ وجلّ لا يخاطبنا إلا بما نعلم، يطلق على الاستقرار والعلوّ والصعود والارتفاع هذه معانيه في لغة العرب، لهذا أعرابي جاءوا إليه فكان في عالية بيته فقال: استووا إليّ؛ يعني اصعدوا اليّ، هذه معاني تعرفها العرب، فقال الاستواء غير مجهول، في رواية معلوم يعني معلوم معناه في لغة العرب، والكيف غير معقول، وفي رواية والكيف مجهول، الكيف مجهول، لأن الله عزّ وجلّ لا يمكن أن يصل الإنسان إلى كيفية صفاته سبحانه وتعالى، هذه قاعدة أنّك إذا سُئِلْتَ عن صفة أنّ تقول هذه الصّفة معلوم معناها باللّغة، لكن كيف أنّ الله سبحانه وتعالى اتّصف بها فهذا ممّا استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه، ولا يمكن للإنسان أن يصل إلى كيفية اتصاف الربّ سبحانه وتعالى بهذه الصّفات، ولهذا قدّمنا لك قاعدة: قطع الطّمع – عن ماذا – عن إدراك كيفية الصّفات، وقال ابن قدامة: وكلّ ما تخيّلته من التخيّلات؛ اعلم أنّ الله سبحانه وتعالى بخلافه وهنا تنتهي، تنتهي لأنّك تعرف لن تصل إلى شيء، فإذاً والكيف مجهول أو والكيف غير معقول، هذا كلام سديد، والإيمان به واجب، لماذا الإيمان به واجب؟ لأنّه نزل أو جاء في النصّ بكلام الله وكلام رسوله، وورد إثبات هذا الاستواء في كلام الله عزّ وجلّ في سبع مواضع كما ذكرنا، والسؤال عنه بدعة، يعني أنّ تسأل عن كيفيّة صفات الله عزّ وجلّ فهذه بدعة، فَأُمِرَ بالرّجل فأخرج، فأشار إلى حرّاس الحَلْقة فأخذوه وأخرجوه من هذه الحلقة لأنّه في الحقيقة سؤاله سؤال تعنت وسؤال بدعي، وأراد الإمام

مالك أن يؤدبّ الطّلاب لأجل هذه السؤال ويعلموا أنّ هذا لا يجوز، ولهذا كلام الإمام مالك صار قاعدة عند السّلف، وهي قاعدة محكمة تستطيع أنّ تجيب بها على أيّ صفة من صفات الله عزّ وجلّ، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن أثر الإمام مالك يقول: وقوله – يعني الإمام مالك – من أنبل جواب وقع في هذه المسألة و أشدّه استيعاباً، يعني كلام مالك رحمه الله تعالى كلام استوعب المسألة من جميع الوجوه، وهذا يدلك على فائدة مهمة ألّف فيها ابن رجب رحمه الله تعالى رسالة اسمها (بيان فضل علم السلف على علم الخلف) انظر إلى كلام الإمام مالك كلمات معدودة وهي أنفع للمسلمين من كتب مؤلفة أليس كذلك، بكلمات معدودة، وهذ ما يدلّك على أن كلام السلف رحمهم الله أنفع من كلام الخلف، كلام قليل ولكنه عظيم النفع، هذا ممّا يُمثّل لفضل علم السلف على علم الخلف ولهذا عليك بالآثار وعليك بفقه السلف إن أردت أن توفّق إلى العلم النافع والعمل الصالح.

السَّبر والتقسيم هذه قاعدة وطريقة علمية عند علماء المنطق وأخذها علماء أصول الفقه، أعيدها: وهذه استدلّ بها أهل العلم في مقام الاحتجاج على من ينكر علوّ الله عزّ وجلّ، فيُقال بالعقل بطريقة السبر والتقسيم: إن الله عزّ وجلّ لّما خلق الخلق إمّا أن يكون خلقهم في ذاته أو خارج ذاته، الأول ممتنع – أن يكون خلق الله عزّ وجلّ الخلق في ذاته – لأنه يلزم من ذلك أن يكون الله سبحانه وتعالى محلًّا لما يُستكره ويَقْبُح، وهذا متفق عليه بين أهل الإسلام وأهل العقول السليمة، وإمّا أن يكون خلقهم؛ فإذاً تعيّن أنه خلقهم خارج ذاته سبحانه وتعالى، وإذا كان الله عزّ وجلّ خلقهم خارج ذاته، فإمّا أن يكون خلقهم عن يمينه أو عن شماله أو وهو فوقهم أو خلقهم فوقه أو خلقهم تحته لأن الجهات التي يتصورها العقل لا يتصوّر إلّا هذه الجهات، أمّا ما عداها فلا يتصور العقل هذه الجهات، وأكملُ الجهات هي جهة الفوق وهي أن لله سبحانه وتعالى خلقهم وهو فوقهم سبحانه وتعالى، والخلق تحته سبحانه وتعالى، فهذه هي طريقة السبر والتقسيم، وهذا الدليل قد يُعرض بغير هذه الصورة، بصور أخرى لكن هذا خلاصة الكلام في هذا الدليل.

ثمّ تكلّم ابن قدامه رحمه الله تعالى عن صفة الكلام لله عزّ وجلّ وسوف نبحث هذه المسألة من وجوه، قال ابن قدامة: ومن صفاته أنه متكلّم بكلام قديم.

المسألة الأولى تحت كلام ابن قدامه أن نقول: صفة الكلام ثابتة لله عزّ وجلّ بالعقل وبالسمع وبالإجماع، أمّا دلالة العقل على صفة الكلام فقد عاب اللهُ آلهةَ الكفّار في قوله: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[1] عاب عليهم أن هذه الآلهة لا تنطق، فالأشعرية ممّن يُثبت هذه الصفة في الجملة، وقد أورد الموفق رحمه الله تعالى الأدلة على أن الله سبحانه وتعالى متكلّم، فأورد قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[2] وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[3] والأدلة في ذلك كثيرة جدّاً وذكرها رحمه الله تعالى لكن من وجه المناسبة أن نقول في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ هذه صريحة في أن الله سبحانه وتعالى كلّم موسى، ولهذا مثل هذا النص حار فيه أهل البدع، توقفوا فيه لم يستطيعوا أن يجيبوا عليه، لا يقبل التأويل ولهذا عمرو بن عبيد وهو من أئمة أهل الكلام ومن أئمة الاعتزال في ما ذُكر من الأخبار جاء إلى أبي عمرٍو البصري – من أئمة القراءات – فسأله أن يقرأ قول الله عزّ وجلّ: ﴿وكلّم اللهَ موسى تكليما﴾[4] بنصب لفظ الجلالة ليجعل موسى هو الذي كلّم اللهَ، يعني وكلّم اللهَ موسى تكليما يريده أن يقرأ بهذا الحرف ويجعلها قراءة، ويجعل موسى هو المتكلّم لأجل أن ينفي صفة الكلام عن الله عزّ وجلّ، فقال له أبو عمرٍو البصري رحمه الله تعالى: (هبني قرأت كذلك – بهذا الحرف – فما تصنع بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ لا تستطيع، واضح أن الكلام صادر من الله سبحانه وتعالى وهو أن الله هو الذي كلّم موسى، ولهذا هم يحرّفون هذه الآيات ولا نطيل في ذكر ما يقولون من التحريفات الواهية.

---

(١) الأنبياء: ٦٣.

(٢) النساء: ١٦٤.

(٣) الأعراف: ١٤٣.

(٤) النساء: ١٦٤.

المسألة التي بعدها – ممّا يتعيّن العلم به في هذا الموضع – أن يُقال أنه خالف أهل السُّنَّة في هذا الاعتقاد طوائف من أهل البدع في صفة الكلام.

الطائفة الأولى وهم الجهمية، قالوا: الكلام ليس من صفات الرب سبحانه وتعالى؛ وإنما هو خلق من مخلوقاته يخلقه في الهواء أو في أي مكان شاء، وإضافته إلى الله عزّ وجلّ إضافة تشريف وتعظيم، هذا قول الجهمية

والمعتزلة، نفوا صفة الكلام وقالوا: إن كلام الله عزّ وجلّ إنما هو خلق من مخلوقاته يخلقه في الهواء، ولهذا في تفصيل هذا الكلام يقولون: إن الله عزّ وجلّ لّما كلّم موسى خلق كلاماً فسمعه موسى ويختلفون في هذا الكلام الذي خلقه الله عزّ وجلّ هل سمعه من الشجرة أو سمعه في الهواء إلى غير ذلك من الترّهات والتحريفات الباطلة، الأصل أن تعرف هذا بأنهم قالوا: إن الكلام خلق من خلقه سبحانه وتعالى – مخلوق –.

الطائفة الثانية ممّن خالف صفة الكلام هم الأشعرية ولا بدّ أن تعرف كلام الأشعرية لأن كثير من الناس يخفى عليه كلام الأشعرية في هذا الموضع، قالت الأشعرية: إن كلام الله عزّ وجلّ – يدخل مع الأشعرية الماتريدية – يقولون: إن كلام الله معنى قائم بنفسه وهو ما يسمونه الكلام النفسي، كلام الله معنى قائم بنفسه لا يتعلق بمشيئته ولا باختياره، وهذه الحروف والأصوات المسموعة مخلوقة، عبارة عن المعنى القائم بنفسه سبحانه وتعالى، أي القرآن عبارة عن كلام الله، يعبّرون بعبارة عن كلام الله، يثبتون الكلام النفسي الذي هو قائم في ذات الرب سبحانه وتعالى، أمّا القرآن الذي هو من كلام الله عندنا يقولون: عبارة عن كلام الله، ويوافقهم على ذلك الكلّابية بل إن الكلّابية أسبق، عبد الله بن سعيد بن كلّاب أسبق من الأشعري، والأشعري وافق ابن كلّاب في هذا، ولكن ابن كلّاب يقول: حكاية عن كلام الله –نفس المذهب– ولكن يقول: حكاية عن كلام الله القائم بنفسه القائم بذاته، والأشعري يقول عبارة، فلا بدّ أن تعرف أن الأشعرية يعبّرون بالعبارة والكلّابية يعبّرون بالحكاية، وإلّا مذهبهم واحد، وإذا نظرت في هذي المذهبين– يعني مذهب الجهمية والمعتزلة ومذهب الأشعرية والماتريدية والكلّابية – علمت أنه عند

التحقيق فإن مذهب المعتزلة والأشعرية متفق على أن المصحف الذي هو كلام الله الذي بين أيدينا من النّظم العربي مخلوق، القرآن يقولون: مخلوق، مذهبهم متفق على ذلك، وأنا أثبت لك ذلك من نصوصهم، يعني يقولون: القرآن مخلوق، قال البيجوري أو الباجوري - هذه عبارته في شرح جوهرة التوحيد، وهو متن مشهور ونظم معروف في عقيدة الأشعرية - يقول: (مذهب أهل السُّنَّة - طبعاً هم يسّمون أنفسهم أهل السُّنَّة -مذهب أهل السُّنَّة أن القرآن بمعنى الكلام النفسي- ليس بمخلوق- الكلام النفسي- يعني الكلام القائم بذات الرب سبحانه وتعالى الذي في نفسه سبحانه وتعالى - وأمّا القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرأه فهو مخلوق) يُصرّح بأن القرآن مخلوق، وهذا الذي ذكرت لك أن مذهب الجهمية والأشعرية والمعتزلة متفق على أن القرآن مخلوق، هذا قاله في شرح جوهرة التوحيد صفحة (٩٤)، وقال في تحفة المريد صفحة (٩١) كذلك: (وأمّا القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرأه فهو مخلوق - إذاً هم يتفقون على أن القرآن مخلوق - لكن يمتنع أن يُقال ويُراد به اللفظ الذي نقرأه إلّا في مقام التعليم) تأملتَ هذه العبارة؟ إذاً الأشعرية عندهم باطنية في هذا المذهب، يعني يُظهرون قولا – طبعاً لأنه عَظُمَ النّكير على من قال القرآن مخلوق - فلهذا انتحلوا هذا المذهب الذي هو ملفّق، ظاهره أنه موافق لمذهب أهل السُّنَّة وحقيقته هو مذهب الجهمية، وهذه العبارات هي ليست إلّا تصريح منهم في كتبهم، لم آتي بشيء من عندي، ولهذا تعرف أن السّجزي رحمه الله تعالى شنّع في النكير على الأشعرية في رسالته في الرد على من أنكر الحرف والصوت، رسالته إلى أهل زَبِيْد - مشهورة وحُقّقت ومطبوعة -، كذلك ابن قدامه رحمه الله تعالى في كتابه الماتع الذي عنوانه (حكاية المناظرة) - وذكرته لك -، يقول ابن قدامه رحمه الله تعالى عن مذهب الأشعرية في حكاية المناظرة، يقول: (ولا نعرف في أهل البدع طائفة يكتمون مقالتهم ولا يتجاسرون على إظهارها إلّا الزنادقة والأشعرية) لأنهم في الحقيقة يُظهرون شيئا ويُبطنون شيئا، لهذا صاحب تحفة المريد يقول: (لا نقول اللفظ إلّا في مقام التعليم) هذه باطنية، فإذاً ابن قدامه رحمه الله تعالى عرف حقيقة مذهب الأشعرية في مسألة كلام الله عزّ وجلّ، ولهذا يقول في موضع آخر - في حكاية المناظرة عن قول الأشعري - قال: (فقوله قول المعتزلة -

لا محالة – إلّا أنه يريد التلبيس، فيقول في الظاهر قولاً يوافق أهل الحق؛ ثمّ يفسره بقول المعتزلة) فإذاً تعرف من هنا أن مذهب الأشعرية في مسألة كلام الله عزّ وجلّ حقيقته موافقةُ قول الجهمية والمعتزلة، مذهب خطير جدّاً فاسد – والعياذ بالله –.

المسألة التي بعدها قال الموفق: (وأنه متكلّم بكلام قديم) وهذا يجرّنا إلى بحث مسألة، أهل السُّنَّة يرون أن الله تعالى متكلّم بكلام قديم، يعني أن الله لم يزل موصوفاً بصفة الكلام أزلاً، وأمّا آحاد كلامه سبحانه وتعالى فمتجدد، ولهذا يعبّرون بأن صفة الكلام – كلام الله عزّ وجلّ – قديم النوع متجدد الآحاد، يعبّرون بهذه العبارة حتّى يتبيّن المعنى، ولهذا هذا الموضع ممّا انتُقض على الموفق رحمه الله تعالى، ولهذا يقول الشيخ محمّد بن صالح العثيمين في شرح اللمعة: (يعني قديم النوع حادث الآحاد لا يصلح إلّا هذا المعنى على مذهب أهل السّنة وإن كان ظاهر كلامه – يعني الموفق – أنّه قديم النوع والآحاد) طبعاً الإمام ابن قدامة حاشاه أن يكون يقول بهذا القول أنّه قديم على الإطلاق ولكن قد تكون بعض العبارات تحتاج تحرير، ولهذا هو مسبوق بمثل هذه التعبيرات، فالشّيرازي من أئمة الحنابلة وهو جدّ بيت آل الحنبلي في مسائل الامتحان عبّر بمثل هذه التعبيرات، ولهذا السّفّاريني في منظومته كذلك عبّر بمثل هذه العبارة الّتي تحتاج تفصيل وبيان، قال: كلامه سبحانه وتعالى قديمٌ أعيى الورى بالنصّ يا عليم، ولهذا الشيخ عبد الله بن بطين رحمه الله تعالى – مفتي نجد في زمانه – علّق على هذا الموضع من كلام السّفّاريني في المنظومة قال: فيه نظر؛ فإن مذهب السّلف أنّ كلام الله ممّا يتعلّق بمشيئته، إذاً التعبير بأنّ كلام الله قديم هذا غير سديد، لا بدّ أن تقول قديم النوع حادث الآحاد، ولهذا الشيخ ابن سحمان – في تعليقه كذلك على منظومة السّفّاريني – قال: هذا هو من جنس ما قبله من الألفاظ المبتدعة الّتي لم ينطق بها السّلف، والّذي عليه أهل السّنة أنّه حادث الآحاد قديم النوع، حادث الآحاد قديم النوع، وهذا لعلّه هو ما أراده الموفق رحمه الله تعالى – وإن كانت العبارة مجملة –، ولهذا يدلك على أنّه مستقر عند كلام السّلف رحمهم الله أنّهم لا يريدون أنّه قديم بإطلاق؛ أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قال: ولم يقل أحدٌ منهم –يعني السّلف– أنّ نفس الكلام المعيّن قديم ولا قال أحدٌ

منهم أنّ القرآن قديم، ممّا يدل على أنّه عبارة مجملة تحتاج توضيح وإلّا السّلف رحمهم الله – ومنهم الموفق ممّن يتابع مذهب السّلف – لا يقولون بذلك، إذاً تعرف أنّ الكلام أو أن يقال أنّ الله سبحانه وتعالى كلامه قديم النوع حادث الآحاد، و قدّ قدّمنا لك أنّ صفة الكلام صفة ذاتية باعتبار وصفة فعليّة باعتبار، فإذاً موسى كلّمه الله عزّ وجلّ بعد أنّ لم يكن مكلّماً له، هذا ممّا يدلك على ذلك، فإذاً عبارة السّلف أو توضيح السّلف وكلام الأئمة: قديم النوع حادث الآحاد؛ هو لأجل ذلك لأجل البيان، وهذه المصطلحات والتعبيرات لم ترد في النصوص، ولكن لّما تكلّم فيها وصارت مصطلحات مشهورة ومعروفة تعيّن أن يعبّر بها لأجل البيان والإيضاح.

قال الماتن رحمه الله تعالى – الإمام الموفق – بقي (فيناديهم بصوت) ويأتي إن شاء الله الكلام على الحرف والصوت في المسائل، لكن أحب أن أنبّه إلى قضيّة معيّنة وهي موقف السّلف والنّصوص في بيان صفات الله عزّ وجلّ (فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ) وهذا هل يكون في كلام المخلوقين؟ لا يكون القريب غير البعيد أليس كذلك؟ أما كلام الربّ سبحانه وتعالى فيستوي فيه القريب والبعيد، وهذا يدلّك على أنّ الله سبحانه وتعالى لا يُقاس بخلقه، ولا مثيل له سبحانه وتعالى.

فَصْلٌ

اَلْقُرْآنُ كَلَامُ اَللَّهِ

وَمِنْ كَلَامِ اَللَّهِ سُبْحَانَهُ اَلْقُرْآنُ اَلْعَظِيمُ وَهُوَ كِتَابُ اَللَّهِ اَلْمُبِينُ، وَحَبْلُهُ اَلْمَتِينُ، وَصِرَاطُهُ اَلْمُسْتَقِيمُ، وَتَنْزِيلُ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ اَلرُّوحُ اَلْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِ سَيِّدِ اَلْمُرْسَلِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَهُوَ سُوَرٌ مُحْكَمَاتٌ، وَآيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، وَحُرُوفٌ وَكَلِمَاتٌ.

مَنْ قَرَأَهُ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، لَهُ أَوَّلٌ وَآخِرُ، وَأَجْزَاءٌ وَأَبْعَاضٌ، مَتْلُوٌّ بِالْأَلْسِنَةِ، مَحْفُوظٌ فِي اَلصُّدُورِ، مَسْمُوعٌ بِالْآذَانِ، مَكْتُوبٌ فِي اَلْمَصَاحِفِ، فِيهِ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ، وَنَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ، وَخَاصٌّ وَعَامٌّ، وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١) وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(٢) وَهُوَ هَذَا اَلْكِتَابُ اَلْعَرَبِيُّ اَلَّذِي قَالَ فِيهِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾(٣) وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(٤)؛ فَقَالَ اَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾(٥)، وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ شِعْرٌ، فَقَالَ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾(٦) فَلَمَّا نَفَى اَللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ شِعْرٌ، وَأَثْبَتَهُ قُرْآنًا، لَمْ يُبْقِ شُبْهَةً لِذِي لُبٍّ فِي أَنَّ اَلْقُرْآنَ هُوَ هَذَا اَلْكِتَابُ اَلْعَرَبِيُّ اَلَّذِي هُوَ كَلِمَاتٌ وَحُرُوفٌ وَآيَاتٌ لِأَنَّ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ لَا يَقُولُ أَحَدٌ: إِنَّهُ شِعْرٌ.

---

(١) فصلت:٤٢.

(٢) الإسراء: ٨٨.

(٣) سبأ: ٣١.

(٤) المدثر:٢٥.

(٥) المدثر:٢٦.

(٦) يّس: ٦٩.

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(١) وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِ مَا لَا يُدْرَى مَا هُوَ، وَلَا يُعْقَلُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾(٢) فَأَثْبَتَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْآيَاتُ الَّتِي تُتْلَى عَلَيْهِمْ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾(٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾(٤) بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كهيعص﴾(٥)، وقَالَ ﴿حم، عسق﴾(٦)، وَافْتَتَحَ تِسْعًا وَعِشْرِينَ سُورَةً بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ؛ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَرَأَهُ وَلَحَنَ فِيهِ؛ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ حَسَنَةٌ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ.(٧)

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «اِقْرَءُوا الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ؛ يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَعُمَرُ رضي الله عنه: (إِعْرَابُ الْقُرْآنِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ حِفْظِ بَعْضِ حُرُوفِهِ).(٨)

---

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) يونس: ١٥.

(٣) العنكبوت: ٤٩.

(٤) الواقعة: ٧٧- ٧٩.

(٥) مريم: ١.

(٦) الشورى: ١، ٢.

(٧) قال الشيخ الألباني رحمه الله تحت حديث الضعيفة (٦٥٨٤) – معلّقا على قول الإمام ابن قدامة رحمه الله في اللمعة -: (قلت: وهذا غريب جداً، فإنه لا أصل له بهذا اللفظ مطلقاً في شيء من طرقه التي وقفنا عليها، وقد تقدم تخريجها وبيان عللها، فكيف مع ذلك يصححه؟! فأخشى أن يكون مدسوساً عليه).

(٨) كنز العمال (٤١٧٦) وعزاه إلى ابن الأنباري في الإيضاح.

وَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: (مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهُ)(١)، وَاتَّفَقَ اَلْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدِّ سُوَرِ اَلْقُرْآنِ، وَآيَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ وَحُرُوفِهِ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ اَلْمُسْلِمِينَ فِي أَنَّ مَنْ جَحَدَ مِنْ اَلْقُرْآنِ سُورَةً أَوْ آيَةً، أَوْ كَلِمَةً، أَوْ حَرْفًا مُتَّفَقًا عَلَيْهِ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَفِي هَذَا حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى أَنَّهُ حُرُوفٌ.

.....

كلام الموفق رحمه الله تعالى في تقرير مسائل في كلام الله عزّ وجلّ وفي الموقف من القرآن وما يَتْبَعُ ذلك من مسائل، ولهذا قد يطول المقام في بيان هذه المسائل، ولكن نذكر ما يتعيّن البيان فيه من هذه المسائل، قال الموفق رحمه الله تعالى: (منه بدأ وإليه يعود) وهذه العبارة عبارة من عبارات السّلف يتواردون في ذكرها في كتبهم، وهذا هو اعتقاد أهل السُّنَّة في القرآن، قال عمرو بن دينار: (أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود)(٢)، طبعاً ذكرنا أن كلام السّلف قليل ولكنّه عظيم النفع، هم يريدون هذه العبارات ويريدون بذلك الرّد على أهل البدع، تأكيد وتأصيل العقيدة السلفية، فالقرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود؛ يريدون به معانٍ عظيمة ثبتت بالأدلّة، أمّا قولهم مه بدأ فقد قدّمت لك مذهب الجهمية، ماذا قال الجهمية والمعتزلة في كلام الله عزّ وجلّ؟ قالوا: مخلوق، ولهذا يقولون: كلام الله عزّ وجلّ لموسى هو أن الله سبحانه وتعالى خلق كلاماً فسمعه موسى، تارة يقولون: من الشجرة، فإذاً الذي سمعه موسى حين كلّمه الله عزّ وجلّ، سمع كلام الله من الشجرة أو من الهواء على اختلاف في ما بينهم، فإذاً ابتداؤه ليس من الله، فإذاً السلف يقولون منه بدأ يريدون بذلك الرد على الجهمية والمعتزلة الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى خلق الكلام في محل؛ إما أن يقولون: الشجرة وإمّا الهواء، فبدأ الكلام من ذلك المحل؛ لأن عندهم أن كلام الله مخلوق، ولهذا هم امتحنوا أهل السُّنَّة بالقول بخلق القرآن وأن القرآن مخلوق.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٩٩٠١) عن ابن مسعود موقوفا.

(٢) شعب الإيمان (١٦٧).

وأما مقصود السّلف: منه بدأ وإليه يعود، يريدون أن هذا القرآن يُرفع في آخر الزمان كما ثبت في السُّنَّة من قول عبد الله بن مسعود - موقوفا عليه - وهذا صحّ عن ابن مسعود، وهذا ممّا لا يُقال بالرأي فله حكم الرفع، وقال عبد الله بن مسعود (وأن هذا القرآن الذي ينزل بين أظهركم؛ يوشك أن يُرفع فلا يبقى في الصدور ولا في المصاحف منه شيء) [1] وهذا الأثر رواه الدارمي في فضائل القرآن وهو مشهور ورواه غيره وهو ثابت عن عبد الله بن مسعود، ومثله لا يُقال بالرأي، وله حكم الرفع.

قال الموفّق رحمه الله تعالى: (والقرآن حروف وكلمات من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات) إلى آخر كلامه، هنا مسألة لا بدّ من بحثها وهي هل يقُال: إن القرآن حرف وصوت؟ وإن الله عزّ وجلّ يتكلّم بحرف وصوت؟ طبعاً إطلاق القول نفياً أو إثباتاً من البدع التي أُحدثت بعد المئة الثالثة أي بعد القرون المفضّلة - كما قرر ذلك ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتبه في مواضع متعددة -، لمّا أُحْدِثَت البدع وحدثت بدعة الأشعرية في كلام الله عزّ وجلّ والقول بأن القرآن عبارة عن كلام الله؛ قابلهم طائفة وقالوا: إن القرآن هو الحروف والأصوات بإطلاق، فتوهّم قومٌ أنهم يعنون بالحروف حروف المداد الذي يُكتب والأصوات أصوات العبادة فبعضهم نفى وبعضهم أثبت، ولهذا لم يقل السّلف ولم يتكلموا بمسألة الحرف والصوت إلّا بعدما أُحدث الكلام فيها ووقعت الشناعة، ولهذا الصواب أن تعرف أن مذهب السلف أن القرآن جميعه كلام الله عزّ وجلّ حروفه ومعانيه، وأن الله تعالى يتكلّم بصوت يُسمع وحرف يُكتب وكلامه سبحانه وتعالى لا يُماثل كلام المخلوقين، وكذلك حروفه سبحانه وتعالى لا تُماثل ولا تُشبّه بحروف المخلوقين، وصوته سبحانه وتعالى لا يشبه صوت المخلوق، فإذاً القرآن وكلام الله عزّ وجلّ يتكلّم بحرف يُكتب وبصوت يُسمع، والذي أنكر ذلك هم الأشعرية، ولهذا العزّ بن عبد السّلام له رسالة اسمها (المُلحة في إنكار الحرف والصوت)، أما السّلف فيقولون: إن الله عزّ وجلّ يتكلّم بكلام بحرف وصوت، حرف يُكتب وصوت يُسمع، وأما الأشعرية الذين يقولون: إن كلام الله

(١) رواه البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) (ص٨٦)، وقال القرطبي رحمه الله في التفسير (٣٢٦/ ١٠): (وإسناده صحيح).

نفسي؛ فإن الله عندهم لا يتكلّم بحرف ولا بصوت، هذا يجرّنا إلى مسألة مهمّة وهي مسألة اللفظ بالقرآن - وهي تابعة لمسألة كلام الله عزّ وجلّ بالحرف والصوت -، هل يُقال لفظي بالقرآن مخلوق أو يُقال غير مخلوق؟ طبعاً لمّا حدثت فتنةُ الجهمية وقام الإمام أحمد لهم نصرَ اللهُ السُّنَّة، فصار أهل السُّنَّة يعظّمون قول الإمام أحمد ويسألونه وتأتيه رسائل وأسئلة في تفصيل مسائل كلام الله عزّ وجلّ، هل ما أتلو هو كلام الله؟ هل يُقال لفظي بالقرآن مخلوق؟ مسائل كثيرة متشعبة ومتعددة، لكن هذه المسألة - مسألة اللفظ - حدث بسببها فتنةٌ عظيمة بين أهل السُّنَّة أنفسهم، وقع بينهم خلاف بعد ما مات الإمام أحمد، بسبب اللفظ المجمل في هذه العبارات، ولهذا الإجمال قد يسبب الخلاف، فلا بدّ من التفصيل حتّى يزول الإجمال، أما الألفاظ المجملة هذه قد تقع بسببها فتنة، ولهذا الآن هم في دائرة أهل السُّنَّة لمّا أزال الله عزّ وجلّ فتنة الجهميّة صار بين أهل السُّنَّة خلاف، هل يُقال لفظي في القرآن مخلوق أم غير مخلوق؟ وكلّهم ينسب ما يقول به إلى الإمام أحمد وألّف ابن منده رسالة في هذا، وألّف في الردّ عليه رسائل وحدثت فتنة بسبب أنهم لم يفهموا كلام الإمام أحمد، ولو قرأت في سيرة الإمام البخاري رحمه الله تعالى لوجدت أن البخاريّ رحمه الله تعالى ممّن تضرَّر من هذه الفتنة، الإمام البخاري لو قرأت في سيرته؛ شُغِّبَ عليه في هذه المسألة ونُسب إلى مذهب فاسد - وهو بريء منه الإمام البخاري رحمه الله تعالى -، بل كلامه موافق لكلام الإمام أحمد، لأنه امتُحن في مثل هذه المسألة ثم بعد ذلك حصل بينه وبين يحيى بن خالد الذهلي شيئاً من الخصومة، ثم مات البخاري كما تعرفون في قرية بعيدة رحمه الله وأُوْذِيَ بسبب هذه المسألة، ولهذا حتى تعرف هذه المسألة لا بدّ أن مسألة اللفظ وكلمة اللفظ كلمة مجملة لا بدّ من البيان، أنا أبين لك هذا البيان بإذن الله من كلام ابن القيم، لأن ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة شرح هذا وبيّنه بالتفصيل الذي وافق مذهب السّلف، وبيّن أن الإمام أحمد أخطأ عليه طائفتان ممّن لم يفهم كلام الإمام أحمد على مراده، فأولاً: اعرف ما معنى اللفظ، اللفظ كلمة مجملة ماذا تريد باللفظ؟ لو تقول لفظي في القرآن مخلوق؟ قبل أن تجيب فصّل، ماذا تريد باللفظ، قد تريد باللفظ الملفوظ، فهذا كلام الله عزّ وجلّ غير مخلوق قطعاً وهو

القرآن الملفوظ هو كلام الله عزّ وجلّ، والقرآن هذا قطعاً غير مخلوق، وإن أردت باللفظ التلفظ - الذي هو من فعل العبد ومقدوره - والذي يختلف باختلاف الناس، أليس كذلك؟ يعني التّلفظ في القرآن هل هو كتلفظ فلان أو فلان، يختلف التلفظ، فإن أُريد التلفظ الذي هو من فعل العبد ومقدوره فهذا مخلوق، عرفت الآن، لا بدّ أن تفصّل، قد تريد الملفوظ وقد تريد التّلفظ، فالملفوظ كلام الله عزّ وجلّ ليس بمخلوق، والتّلفظ الذي هو من فعل العبد بلسانه وبشفتيه وبسائر الأدوات فهذا مخلوق، قد تريد هذا وقد تريد هذا، ولهذا الإمام أحمد رحمه الله في ما هو صحيح عنه عبّر بعبارة دقيقة - لمّا سُئل عن هذه المسألة - قال: (من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد القرآن فهو جهمي)، ماذا يريد الإمام أحمد بهذه العبارة؟ من قال: لفظي بالقرآن مخلوق يريد الملفوظ فهو جهمي، وقال: (ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع)، أي في الحالتين هو مخطأ لماذا؟ إن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي - يريد القرآن -، انظر إلى العبارة تقييد (يريد القرآن) إن أراد الملفوظ فهو جهمي، وإن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، لماذا الإمام أحمد يمنع من الحالين؟ أما الحال الأول فهو واضح (من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد القرآن فهو جهمي) واضح أنه يريد الملفوظ، لكن لماذا يمنع من الإثبات؟ لأن اللفظ كلمة مجملة، فقد يريد بها كذا وقد يريد بها كذا، (ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع) لأنه ابتدع مسألة لم يتكلّم فيها السلف، ولأنها كلمة مجملة؛ قد تريد بها حق وقد تريد بها باطل، ففرّق الإمام أحمد بين الأمرين، أمّا الأول فحكم عليه بالتّجهم، وأمّا الثاني فحكم عليه بالبدعة، لماذا؟ لأن كلامه مجمل؛ فقد يدخل فيه ما ليس منه، قد يريد الملفوظ، فلا بدّ من البيان، يعني إذا سُئلت لفظي بالقرآن مخلوق؛ فماذا تقول؟ لا تُجيب، لا تقول مخلوق ولا تقول غير مخلوق، بل تفصّل، تقول إن أردت الملفوظ فالملفوظ كلام الله عزّ وجلّ ليس بمخلوق، وإن أردت التلفظ الذي هو من فعل العبد ومقدوره وبآلاته فهذا مخلوق، ويدلك على هذا أن الإمام أحمد في رواية أبي طالب لمّا قرأ عليه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] قال: هذا غير مخلوق، فحُكي عنه أنه قال أبو طالب: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) قال له

(١) الإخلاص:١.

الإمام أحمد: (أنا قلت لك: لفظي غير مخلوق؟؟) على وجه التعجّب، لماذا؟ لأن هذا إجمال فلا بدّ أن تفصّل، إن أردت التلفظ؛ وإن أردت الملفوظ، فلا بدّ أن تُفصل حتى يستقيم لك المعنى وحتى لا تقع في الغلط، فمن لم يفهم كلام الإمام أحمد وقع في الغلط، الإمام أحمد رحمه الله كلامه سديد في هذا الموضع وعبارته واضحة: (من قال لفظي بالقرآن مخلوق - يريد القرآن - فهو جهمي) لأن هذا هو مذهب الجهمية القول بالخلق في القرآن، (ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع) منع الإثبات والنفي، لماذا؟ لأن اللفظ كلمة مجملة، وأكثر ما يكون الخلاف بسبب الإجمال، وأنا أعطيك قاعدة في هذا الباب، لأنّ هذا بسببه - حتى (...)[1] ابن قتيبة رحمه الله - وهذه أول مسألة اختلف فيها أهل السُّنَّة؛ نقصد مسألة اللفظ وقع بسببها فتنةٌ بين أهل السُّنَّة، كانت الفتنة وكان الخلاف بين أهل السُّنَّة والجهمية، أمّا بسبب هذه المسألة فوقع الخلاف بين أهل السُّنَّة، ولهذا من القواعد المحكمة في هذا أنه عند الخلاف بالألفاظ المجملة لا بدّ من التفصيل حتى يزول الخلاف، لأن الإجمال من أسباب الخلاف، فعند الخلاف لا بدّ من التفصيل حتى يزول الخلاف.

ثانياً أنه عند الألفاظ المجملة وعند الخلاف بين أهل السُّنَّة لا بدّ من العود إلى الأصول والقواعد والجمل التي يتفق أهل السُّنَّة عليها، يعني هذه المسألة بسببها حصل خلاف بين أهل السُّنَّة وامتُحن البخاريُّ بسببها، ولو عادوا إلى الجمل - يعني الأصول والقواعد - لزال الخلاف، فالخلاف في دائرة أهل السُّنَّة لا يسوغ لأنهم متفقون، لكن هم بسبب هذه الألفاظ المجملة وقع بينهم الخلاف، وهذا يفيدك فائدتين، الفائدة الأولى: أنه عند الإجمال لا بدّ من التفصيل، وأنه عند الخلاف بين أهل السُّنَّة لا بدّ من العود إلى الجمل - يعني القواعد والأصول - وهذه القواعد ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مواضع من كتابه وفي مواضع من رسائله لمّا تكلّم عن مسألة اللفظ، قال: وهذا يفيدك فائدة أنه عند الخلاف بين أهل السُّنَّة - في مسائل الإيمان على سبيل المثال؛ في مسائل حكم مرتكب الكبيرة، مسائل كثيرة - أن تقول

(١) كلمة غير واضحة.

للمخالف معك – إذا كان من أهل السُّنَّة – لا بدّ أن نتفق على أشياء، فماذا تقول في الإيمان؟ إن قلت: إن الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هذا نقف عليه ونترك التفصيلات حتّى نتفق ولا نختلف لأننا في دائرة أهل السُّنَّة، فهذا مسألة اللفظ كلا الطائفتين تريد الحق، كلا الطائفتين في الحقيقة متّفقة – مذهبهم متفق – وإنما فهموا قول الإمام أحمد على غير وجهه ووقع بسبب هذا الفهم فتنة بين أهل السُّنَّة والجماعة، نعم.

فَصْلٌ

رُؤْيَةُ اَلْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِم يَوْمَ القِيَامَةِ

وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ في الآخرة بِأَبْصَارِهِمْ وَيَزُورُونَهُ، وَيُكَلِّمُهُمْ، وَيُكَلِّمُونَهُ، قَالَ اَللهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾(٢) فَلَمَّا حَجَبَ أُولَئِكَ فِي حَالِ اَلسُّخْطُ؛ دَلَّ عَلَى أَنَّ اَلْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ فِي حَالِ اَلرِّضَى، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَقَالَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا اَلْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ».(٣) حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَهَذَا تَشْبِيهٌ لِلرُّؤْيَةِ بالرؤية؛ لَا لِلْمَرْئِيّ بالمرئي، فَإِنَّ اَللهَ تَعَالَى لَا شَبِيهَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ.

.....

انتقل الموفق رحمه الله تعالى في كلامه في مسألة رؤية الرب سبحانه وتعالى، وما قرَّرَه الإمام الموفق رحمه الله تعالى هو معتقد أهل السُّنَّة والجماعة وأن الله سبحانه وتعالى يُرى في الآخرة، وأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يُرى في حال الدنيا كما قال الله عزّ وجلّ لموسى لمّا سأله الرؤية قال تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾(٤) فرؤية الله عزّ وجلّ في الدنيا ممتنعة، أما في الآخرة فهي ممكنة بل هي واقعة كما أخبر الله عزّ وجلّ، وذكر الإمام الموفق رحمه الله تعالى الأدلة على أن المؤمنين يَرَوْنَ ربّهم يوم القيامة، واستدل بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٥) ووجه الاستدلال بهذه الآية أنه أضاف النظر إلى الوجه الذي هو محله، وعدّاه بأداة إلى، إلى ربها، الصريحة في نظر العين فدل ذلك على أن الرب سبحانه

(١) القيامة:٢٢، ٢٣.

(٢) المطففين:١٥.

(٣) صحيح البخاري (٥٥٤).

(٤) الأعراف: ١٤٣.

(٥) القيامة: ٢٢، ٢٣.

وتعالى يُرى في الآخرة، ثم استدل بقول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[1] بيّن وجه الدلالة رحمه الله تعالى بأن هؤلاء هم الكفّار حُجبوا في حال السخط، وأن الله عزّ وجلّ سخط عنهم فلا يرونه؛ فدل على أن المؤمنين يرونه يوم القيامة ويرونه في الجنة، ثم أورد الأدلة من السُّنَّة – وهي متواترة – أدلّة رؤية الرب سبحانه وتعالى في الآخرة متواترة كما ذكر ذلك ابن القّيم رحمه الله تعالى في(حادي الأرواح) وهذه الرؤية تكون يوم القيامة والله عزّ وجلّ صرّح بها في كتابه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[2] كما جاء في صحيح صهيب كما في صحيح مسلم أن الزيادة هي النظر إلى وجه الرب سبحانه وتعالى.[3]

مما يَتْبَعُ هذه المسألة من البيان؛ أن يقال: (نفاة الرؤية طوائف) اللذين ينفون رؤية الناس لربهم في الآخرة طوائف، المعتزلة والجهمية قالوا: الرؤية بالأبصار تستحيل، فنفوا رؤية الله عزّ وجلّ، ولهذا قال الإمام أحمد: (من قال إن الله لا يُرى في الآخرة فهو كافر) لأنه أنكر مما ثبت بالأدلة الصحيحة الصريحة، وممن خالف في الرؤية كذلك الأشعرية – وإن كان ظاهر مذهبهم أنهم يقولون برؤية الله عزّ وجلّ بالآخرة –، لكن حقيقة المذهب نفي رؤية الله عزّ وجلّ، فيقول الأشعرية: يُرى ولكن لا في جهة، كيف لا في جهة؟ لأنهم يريدون أن يثبتوا صفة الرؤية وينفون صفة العلو، فيقولون: يُرى لا في جهة، وهذا من التناقض الذي وقعوا فيه وبسببه تسلطت عليهم المعتزلة – في هذا الموضع – وخصموهم وأقاموا عليهم الأدلة على أن كلامهم متناقض، مما يَتْبَعُ البيانَ الإشارةُ إلى مسألة في قوله تعالى، ولّما سأل موسى ربه أن يراه قال: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾[4] هنا في تفسير الزمخشري المسمى بالكشّاف كما قال عنه بعض أهل العلم: إن الزمخشري ينصر مذهب المعتزلة في كتابه (الكشاف في تفسير القرآن) وفيه من الاعتزاليّات ما لا تستخرج إلّا بالمناقيش، وهذا سيأتي معنا إن شاء الله؛ الحذر من قراءة كلام أهل البدع والقراءة في كتبهم – كتب أهل

(١) المطففين:١٥.

(٢) يونس: ٢٦.

(٣) صحيح مسلم (١٨١).

(٤) الأعراف: ١٤٣.

البدع - خطير جداً، فهو يأتي بالاعتزاليّات ويبثّها ويدخلها كما يدخل السّم في العسل، والآن عبارته قال في قوله تعالى ﴿لَنْ تَرَانِي﴾[1] قال: وهنا لن لنفي التأبيد، لن تراني؛ يعني للتأبيد أي لن تراني أبداً، يجعل من معنى لن الأبدية، معنى ذلك أن موسى لن يرى ربه أبداً، وهذا كيف أدخل مذهب الاعتزال؟ من حيث لا يشعر القارئ، لنفي التأبيد، لن تراني للتأبيد؛ أي لن تراني أبداً، فجعل من معاني لا: التأبيد، ولهذا ابن مالك؛ وفي الكافية الشافية متن أكبر من ألفية ابن مالك، يقول: (ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا) الذي يقول هذا هو الزمخشري، يجعل لن وينصر مذهب المعتزلة، لأنه لا يُعرف عن العرب هذا المعنى، وإنما أراد أن ينصر مذهبه الفاسد من خلال اللغة العربية فقال بتلك المقولة التي سمعتموها، فهذا ما يدلك على أن أهل البدع متى ما تمكّنوا نشروا مذهبهم الفاسد.

(١) الأعراف: ١٤٣.

الأسئلة

– سؤال: هذا يسأل يقول أنا من بلد تكثر فيها فرقة من فرق الخوارج فنحن كوننا مبتدئين في طلب؛ العلم فنرجو إعطاءنا نصيحة تساعدنا في توظيف هذا العلم طاهر بمجتمع تكثر فيه الأهواء على الرغم من وجود المضايقات فيه.

جواب: طبعاً أعظم ما يشتغل به طالب العلم هو طلب العلم ونشر العلم، كلّما تعلّم شيء ينشره بين الناس، ولهذا ذكرتُ لكم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾[1] وأن أهل العلم يربّون الناس بصغار العلم قبل كباره، فهذه المتون التي بين أيدينا التي نقرأها والتي أوصيكم بأن تقرؤونها وتكثروا من قراءتها وبحثها تفيدك بإذن الله لأن هذه اللمعة الآن تأتي على كل مسائل الاعتقاد بإجمال، ثم تنتقل إلى التفصيل بعد ذلك في شرح العقيدة الطحّاوية حتى تستوعب أكثر، لكن (...)[2] الإجمال كافي على مسائل، اشتغل بالعلم واترك عنك هؤلاء الخوارج والذين يسلكون هذا المسلك فإنهم لا يصيرون إلى شيء، اشتغل بالعلم اشتغل بتعليم الناس القرآن اشتغل بتعليم الناس السُّنَّة والتوحيد واترك عنك الخصومات والجدال معهم.

– سؤال: هذا يقول أنا أتعلّم القرآن من تجويد بعض القراءات ولا يوجد في منطقتنا غيره، يقصد والله أعلم أن هذا الرّجل غير مرضي الذي يتعلم عنه العلم.

جواب: أنا ذكرت لك إذا كان فضول العلم فلا تتعلم عنهم – يعني فيما يتعلق بالقراءات – أما إذا كنت تستطيع قراءة القرآن إلّا ربّما تلحن؛ فهذا لو كان مبتدع تتعلم عنه طريقة القراءات الصحيحة، أما ما عدا ذلك فلا أنصحك أن تأخذ العلم عن هؤلاء.

– سؤال: هل الماتريدية والأشعرية من أهل السُّنَّة، وأنت سمعت مذهبهم في مواضع في كلام الله عزّ وجلّ وفي الرؤية هل يُقال بأنهم من أهل السُّنَّة؟ حاشا وكلّا أن يُقال: إن الماتريدية

(١) آل عمران: ٧٩.

(٢) كلمة غير واضحة.

والأشعرية من أهل السُّنَّة، هم ينتحلون السُّنَّة ولكنهم ليسوا من أهل السُّنَّة على التحقيق والصحيح، ولهذا لا بدّ أن نفرّق بين متقدمي الأشعرية وبين متأخّريها، أما متأخرو الأشعرية فذكرت لك كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أنهم أقرب إلى موافقة الجهمية، وذكرنا مسألة القرآن قولهم فيه هو قول الجهمية على الحقيقة، والآن أتينا إلى مسألة الرؤية ذكرت لك قولهم، والحقيقة هو نفي للرؤية ولا إثبات لرؤية الله عزّ وجلّ في الآخرة، فلهذا تعلم من هذا أن قول بعض الفضلاء إن الأشعرية والماتريدية من أهل السُّنَّة فيما وافقوا فيه أهل السُّنَّة؛ إن هذا غير صحيح وأنهم ليسوا من أهل السُّنَّة على الحقيقة، ولهذا انظر إلى كلام المتقدمين من الحنابلة مثل ابن قدامه مثل السجزي في رسالته إلى أهل زبيد ومثل الشيرازي في مسائل الامتحان؛ تجد أنهم يعرفون حقيقة مذهب الأشعرية ولهذا اشتد نكيرهم عليهم.

- سؤال: يقول الأشعرية لا يجوز أن يُثبت الاستواء لأن الاستواء فيه معاني كثيرة.

جواب: أنا قد قدّمت لك أن متقدمي الأشعرية على خلاف متأخريهم في صفة الاستواء، المتقدمين يثبتونه والمتأخرون ينفون صفة الاستواء.

- سؤال: أقسام علو الله عزّ وجلّ؟

جواب: قلنا: علوّ الذات، علوّ القدر، علوّ القهر، والذي يخالف فيه أهل البدع هو علوّ الذات وهو أن الله سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه.

- سؤال: ما معنى قول الأشعرية في رؤية الله (يُرى لا في جهة)؟

جواب: لا معنى لها، معنى متناقض ولهذا تسلط بسبب هذا القول تسلط عليهم المعتزلة، هم متناقضون عندهم تناقض كبير جداً، أكثر المذاهب تناقضاً في باب الأسماء والصفات مذهب الأشعرية، (يُرى لا في جهة) هم يريدون أن يثبتوا الرؤية، وفي نفس الوقت وجدوا أنهم إذا أثبتوها يلزمهم إثبات صفة العلو فقالوا (يُرى لا في جهة).

- سؤال: سؤال فقهي خارج عن محل الدرس، يسأل عن إعفاء اللحية؟

جواب: إعفاء اللحية واجب وليس للإنسان فيه خيار والنصوص ثبتت بذلك.

- سؤال: هذا يسأل عن رؤية الله عزّ وجلّ في النوم، وهل صحّ عن الإمام أحمد أنه رأى الله في المنام؟

جواب: طبعاً رؤية الله عزّ وجلّ في المنام؛ أولاً: الله عزّ وجلّ لن يتمكن أحد من رؤيته في الدنيا، ولهذا قال الله عزّ وجلّ لموسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾[1] لأنه يستحيل أن يُرى الرب سبحانه وتعالى في الدنيا، هذا مما اتفق أهل الإسلام عليه، أمّا ما يراه النائم فإنه كما قال أهل العلم: هذه الرؤية التي يراها هي بحسب ما يقوم بقلبه من تعظيم الرب سبحانه وتعالى، فقطعاً أن ما يراه في المنام لا يكون الرب سبحانه وتعالى، وإنما يرى أعماله في صورة الرب سبحانه وتعالى، وباب الأحلام والمنامات هذا لا سلطان للإنسان عليه، فهو قد يكون من الشيطان وقد يكون من الله سبحانه وتعالى، وهي أمثال مضروبة يضربها الملك على رأس الآدمي وعلى رأس ابن آدم، فإذاً هي بحسب ما يقوم به الإنسان، ما يراه الإنسان في المنام عن ربه إذا رأى فإنه لا يرى الله عزّ وجلّ على حقيقته وعلى صورته، وذلك ممتنع، وإنما هي مثل لما يقوم في قلبه من تعظيم الله عزّ وجلّ.

- سؤال: يقول: قلت: إن الأشعرية يثبتون السبع الصفات بالدليل العقلي، يعني هو يطلب إعادة هذا الدليل العقلي.

جواب: نتصور الدليل، تعريف لماذا هم يثبتون السبع من الصفات وينفون ما عداها؟ الدليل أعيده مرة أخرى يقولون: (فعل الحادث دلّ على القدرة، والتخصيص دلّ على الإرادة، والإحكام دلّ على العلم، وهذه لا تكون إلّا من حي، والحي لا يكون إلّا سميعا بصيرا متكلّما أو ضد ذلك، والكمال أن يكون متّصف بهذه الصفات السمع والبصر والكلام) هذا باختصار هذا دليلهم، والعقل يدلّ على ذلك، فيثبتون السبع من الصفات، طيب وما عداه؟ قالوا: لم يدل العقل عليه، فعندهم المشكلة أنهم جعلوا العقل، فإذا فهمت الخلاف بين أهل السُّنَّة وبينهم، الخلاف أساسي وجذري في أنه ما العمدة؛ ما الأصل في النصوص في باب الأسماء والصفات،؛ فيما يوصف الله عزّ وجلّ؛ هل هو تحكيم العقل أم تحكيم الشرع؟ هذا عند أهل السُّنَّة أما عند أولئك

(١) الأعراف: ١٤٣.

فالأصل العقل، انحراف أصلي، فهم عندهم الأصل، لماذا الأصل عندهم العقل؟ لأنهم عندهم أصلاً أن هذا العالم ما ثبت أنه محدث ومخلوق إلّا بالعقل، والرسول ما عَلِمْنَا أنه صادق إلّا بعقولنا، هكذا قالوا: لا يُعلم صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلا بما يُعلم به حدوث العالم، هكذا عبارتهم لا يُعلم صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلّا بما يُعلم به حدوث العالم – أن العالم مخلوق –، ثم استدلّوا على أن هذا العالم حادث بأنه تقوم به الأعراض؛ وما تقوم به الأعراض فهو حادث وليس بقديم، هذا هو السبب عندهم لمّا جعلوا هذا أصلاً، ولهذا الخلاف بين أهل السُّنَّة وبين أهل البدع خلاف أصلي جذري، ولهذا السلف رحمهم الله عابوا أهل الكلام، علم الكلام وتحكيم العقل ليس موقوفا على الأشعرية والماتريدية حتّى في زماننا هذا، هناك من يحاكم النصوص إلى عقله وأنتم سمعتم الآن من ينفي أو يردّ الأحاديث النَّبويّة بعقله، ويقول: إن هذه الأحاديث لا توافق الفطرة السوية مثل حديث العرنيين، والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا أوصاهم بشرب أبوال الإبل؛ كل هذا لا يتوافق مع الفطرة! هذا هو يدخل في هذا الأصل، العمدة ما هو العقل أم الشرع؟ فهؤلاء جعلوا العقل حاكم على الشرع وهذا – والعياذ بالله – من الانحراف والخطأ والزّلل، وبسببه ضلّ من ضلّ في مسائل متعددة، لا تحسبون هذا الكلام الذي نقوله هو كلام نظري، بل هو كلام عملي تمارسونه في حياتكم وتشاهده بين الناس، تحكيم العقل على النّصوص، مثل ما فعل هؤلاء الأشعرية والماتريدية والكُلّابية والمعتزلة، يُفعل في هذا الزمن، ولهذا لا تظن أن أهل البدع انقرضوا وانتهوا، أذكر مقولة للشيخ صالح الأطرم رحمه الله لمّا جاء الكلام في هذه المسائل عن المعتزلة قال: (يا أبنائي – ويعبّر بعبارة يا عيالي – يجيئكم من يقول لكم المعتزلة والجهمية والأشعرية والماتريدية هذه لماذا تدرسونهم؟ ادرسوا الأشياء الثانية الجديدة وكذا) نفس المقولة هو الحقيقة طريق لإبطال منهج السلف وعقيدة السلف، أنت حينما تدرس الرد على الجهميّة و الماتريدية هذه الأصول البدعيّة تتكرر في كلّ زمان ومكان، ولهذا حينما تقرأ كلام السّلف كلام الموفق بن قدامه رحمه الله تعالى وعباراته تجد التأصيل، تجد تعظيم السُّنَّة وتعظيم الوحي يقع في قلبك، أهل السُّنَّة أكثر تعظيما للنصوص وأكثر إجلالا لهذه النصوص،

ولهذا أهل السُّنَّة هم في الحقيقة العبّاد وأهل الصلاح وأهل الاستقامة وأهل القلوب السليمة وأهل العقول السليمة.

- سؤال: نحن أهل السُّنَّة نثبت لله عزّ وجلّ العلوّ بالدلائل ونثبت أنه مع كل شيء بالدلائل وفي مكان ولكن نقول: إن الله فوق العرش في السماء بذاته ومع كل شيء وكل مكان باعتبار علمه وقدرته وسمعه وبصره، حصل لهذا لبس، لما لا نثبت أن الله في السماء وأنه في كل مكان بدون تأويل؟

جواب: لم أفهم الحقيقة السؤال، لكن الله عزّ وجلّ في السماء، نحن نقف حيث وقف النص، الله عزّ وجلّ هو الذي أخبرنا أنه سبحانه وتعالى في السماء وأن علمه سبحانه وتعالى في كل مكان وأنه لا يخفى عليه سبحانه وتعالى شيء، وسمعه وسع الأصوات كما قالت عائشة: (سبحان من وسع سمعه الأصوات لقد كانت المجادلة تحدّث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يخفى عليّ بعض حديثها فأنزل الله عزّ وجلّ عذرها) و﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[1] إلى آخر الآيات، فنحن لا نتكلّم إلا وفق النصوص ولا نتعدّى النصوص، هذا والله أعلم وصلّى الله وسلّم على نبينا محمّد.

(١) المجادلة: ١.

شَرحُ لُمعَةُ الاعْتِقَادِ للشَّيْخِ فَهْد المقْرِن

الشّريط الرّابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله، وصفيّه من خلقه صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً وبعد

فَصْلٌ

القَضَاءُ وَالقَدَرُ

وَمِنْ صِفَاتِ اَللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ اَلْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ، وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ مَشِيئَتِهِ، وَلَيْسَ فِي اَلْعَالَمِ شَيْءٌ يَخْرُجُ عَنْ تَقْدِيرِهِ، وَلَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ تَدْبِيرِهِ، وَلَا مَحِيْدَ عَنْ اَلْقَدَرِ اَلْمَقْدُورِ، وَلَا يَتَجَاوَزُ مَا خُطَّ فِي اَللَّوْحِ اَلْمَسْطُورِ، أَرَادَ مَا اَلْعَالَمُ فَاعِلُوهُ، وَلَوْ عَصَمَهُمْ لَمَا خَالَفُوهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُطِيعُوهُ جَمِيعًا لَأَطَاعُوهُ، خَلَقَ اَلْخَلْقَ وَأَفْعَالَهُمْ، وَقَدَّرَ أَرْزَاقَهُمْ وَآجَالَهُمْ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، قَالَ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(١)، وَقَالَ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾(٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾(٥).

رَوَى اِبْنُ عُمَرَ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «مَا اَلْإِيمَانُ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ" فَقَالَ جِبْرِيلُ: صَدَقْتَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦)، وَقَالَ

(١) الأنبياء:٢٣.

(٢) القمر:٤٩.

(٣) الفرقان: ٢.

(٤) الحديد: ٢٢.

(٥) الأنعام: ١٢٥.

(٦) صحيح مسلم (٨).

اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «آمَنْتُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلْوِهِ وَمُرِّهِ»(١)، وَمِنْ دُعَاءِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم اَلَّذِي عَلَّمَهُ اَلْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ يَدْعُو بِهِ فِي قُنُوتِ اَلْوِتْرِ «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»(٢)، وَلَا نَجْعَلُ قَضَاءَ اَللَّهِ وَقَدَرَهُ حُجَّةً لَنَا فِي تَرْكِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

.....

الموفق ابن قدامة رحمه الله تعالى شرع في هذا الفصل في بيان الركن السادس من أركان الإيمان بالله عزّ وجلّ؛ وهو الإيمان بالقدر خيره وشرّه حلوه ومرّه، ولهذا تحت هذا الفصل يأتي معنا مسائل، المسألة الأولى هل بين القضاء والقدر فرقٌ، طائفة من أهل العلم جعلوا القضاء والقدر بمعنى واحد ولم يفرّقوا بين القضاء والقدر، من هؤلاء ابن قيّم الجوزية رحمه الله تعالى، وطائفة أخرى قالوا: القدر ما يسبق المقدّر أو ما يسبق القضاء، فإذا وقع القدر سُمّي قضاءً، يعني القدر هو ما هو كائن في علم الله عزّ وجلّ، أمّا إذا وقع فإنه يُسمى قضاء، ولا مشاحة بالاصطلاح سواء فرّقنا بينهم أم لم نفرّق بينهم، ولكن من باب تقريب العلم أن تذكر مثل هذه المسائل، وقبل أن نخوض في مباحث القضاء والقدر وما يتعلّق بمسائله لا بدّ من بيان قواعد وضوابط في بحث مسائل القضاء والقدر، لأنه إذا لم ينتبه الإنسان إلى هذه القواعد والضوابط ضلّ في باب القضاء والقدر، ولهذا من أعظم أسباب الضلال هو الخوض في باب القضاء والقدر، وهو مدخل من مداخل الشيطان على العبد، فإنه إذا لم ينضبط بالقواعد الشرعية في بحث هذه المسائل وقع في الخلط العظيم.

من القواعد التي لا بدّ من بيانها أن يُقال: إن الله سبحانه وتعالى حكم عدل ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(٣)، لا بدّ أن يعقد العبدُ قلبَه على هذا، يعقد العبدُ قلبَه على أن الله سبحانه وتعالى عادل وحكم عدل، وأن الله سبحانه وتعالى لا يظلم خلقه بأي حال من الأحوال، فهو قد حرّم على نفسه الظلم وجعله بين الخلق محرّماً، هذه عقيدة عند المسلم، لا بدّ أن يعقد قلبه عليها، فإذا خاض في بحث هذه المسائل كان قلبه منعقدا على هذه المسألة؛ فعلم أن ما لا يتصوره من المسائل فإن الله سبحانه وتعالى منزّه عن الظلم، ولهذا لمّا خاضت القدرية

(١) ضعيف جدا. الطبراني في الكبير (٦٩/ ١٧). الضعيفة (٦٤٨٨).

(٢) صحيح. أبو داود (١٤٢٥). قيام رمضان للشيخ الألباني رحمه الله (ص ٣١).

(٣) الكهف: ٤٩.

والجبرية في مثل هذه المسائل؛ جملة منهم أو دوافعهم في الظاهر أنها تنزيه الله عزّ وجلّ عن الظلم، فهم أرادوا تنزيه الله عزّ وجلّ عن الظلم؛ فأخطأوا في هذه المسائل وضلّوا، لأنهم لم يستمسكوا بالصراط المستقيم، ولم يسلكوا مسلك من كان قبلهم من أهل العلم من علماء السّلف، هذه قاعدة مهمّة.

من القواعد المهمّة في بحث مسائل القضاء والقدر أن لا يتعمّق الإنسان في بحث هذه المسائل وسوسةً وفكراً، فإن التعمّق في بحث هذه المسائل ذريعة للضلال والخسران – أعاذنا الله وإياكم من ذلك – فمسائل كثيرة يتعمّق الإنسان فيها ولم فعل كذا؟ ولم كذا؟ فإذا تعمّق ولم يستمسك بالنصوص زلّت قدمه في هذا الباب، ولهذا نسأل الله الثبات لنا ولكم على الإسلام حتّى نلقاه، من بعض الشخصيات من المعاصرين ومن المتقدّمين لّما خاضوا في مثل هذه المسائل وأوغلوا وقادهم الشيطان انحرفوا – والعياذ بالله – حصل من بعضهم الردّة عن سبيل الله وعن الإسلام بسبب هذه المسائل، ولهذا الطوائف لا أذكر الشخصيات ولكن من بعض الشخصيات المشهورة لهذا الزمان الذي كان له مؤلفات وله سبق في نشر الدين والعقيدة ولكنه انحرف؛ مثل شخصية مشهورة في هذا الزمان عبد الله القصيمي صاحب كتاب مشهور بعدما– والعياذ بالله انحرف – له كتاب (هذه هي الأغلال) قبل ذلك له (الصراع بين الإسلام والوثنية) في تقرير منهج السّلف و(البروق النجديّة) في الردّ على بعض علماء الأزهر الذين شككوا في عقيدة السّلف، ثم بعد ذلك ألّف هذه الأغلال و(العالم ليس عقلاً انحرف)، مما ذُكر من أسباب انحرافه أنه كان يتخوّض في هذه المسائل، وعنده وساوس شيطانية في هذا الباب – والعياذ بالله – اعتدّ بعقله، ثمّ دخل هذا الباب ولم ينته به إلّا وقد زلّت قدمه – نسأل الله السلامة والعافية – وهذه آيات قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] فينبغي للإنسان أن يعرف مثل هذه الأمور.

من القواعد المهمّة في بحث مسائل القضاء والقدر؛ أن بحث هذه المسائل لا بدّ أن يكون وُفق ما جاءت به النصوص، ما جاءت به النصوص يبحثه طالبُ العلم ويُقرِّرُه وُفق ما جاءت به النصوص، فلا يتعمّق ولا يبحث مسائل لم ترد في النصوص، دائماً يكون الإنسان في بحث هذه المسائل وفق ما جاءت به النصوص الشرعية من كلام الله ومن كلام رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

---

(١) الحجر:٧٥.

من القواعد المهمّة التي تُذكر في هذا الباب أن الله سبحانه وتعالى – وأشار إليها الموفق – أن الله تعالى ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1] ماذا تفيدك هذه القاعدة؟ أن أفعال الله عزّ وجلّ لا يُقال فيها لم؟ هذا من وساوس الشيطان على العبد، يقول له: لماذا هذا غني؟ لماذا هذا فقير؟ لماذا هذا مُبتلى؟ ولماذا هذا معافى؟ ولهذا أسأل الله لنا ولكم العافية، الإنسان إذا ابتُلي بشيء يأتي إليه الشيطان فيوسوس له، ومن وساوسه لماذا أنت ابتُليت دون غيرك؟ لماذا هذا معافى وأنت مُبتلى؟ هذه من وساوس الشيطان، فالله عزّ وجلّ لا يُسأل عمّا يفعل، لا يُقال له لمَ فعل كذا؟ ولمَ أغنى فلاناً وأفقر فلاناً؟ هذه ممّا لا يُسأل الرب سبحانه وتعالى، والخلق خلقه سبحانه وتعالى وهو يتصرّف بهم سبحانه وتعالى وفق حكمته وإرادته، فلا يُقال لأفعاله لمَ؟

القاعدة الخامسة: أن حكمة الله عزّ وجلّ في خلقه لا تحيط بها عقول الخلق، عقول الخلق قاصرة عن أن تحيط بحكمة الله عزّ وجلّ ومُراد الله عزّ وجلّ، لماذا جعل هذا غنياً وهذا فقيراً وهذا مؤمنا وهذا كافرا؟ لا تستطيع أن تصل إلى هذه الحكمة لأن عقلك قاصر عن ذلك، ولهذا قدّمنا لكم في المسائل السابقة أن الإنسان لا بدّ أن يعرف أن عقله قاصر ومحدود، فمن لم يؤمن بقصور العقل البشري خاض في مسائل وبحث مسائل القضاء والقدر واستقلّ بعقله وقع في الضلال – نسأل الله السّلامة والعافية – لأن عقله قاصر، الله سبحانه وتعالى حكمته لا تحيط بها عقولُ الخلق، لا يمكن للإنسان أن يعرف، لهذا الله عزّ وجلّ يبتليه لحكمة ويعافيه لحكمة، وسبحانه وتعالى لا يُقال له لم فعل كذا؟

من القواعد المهمّة في بحث مسائل القضاء والقدر: أنه لا عذر لأحد على الله سبحانه وتعالى، ليس ثمّ أعذار للخلق لترك الأوامر وفعل المناهي لا عذر لهم، فالله تعالى أقام الحجج على خلقه ببعثة الرسل وإنزال الكتب وما أقامه الله عزّ وجلّ من الحجج من الفطرة السويّة ومن دلالتهم على طريق الخير وطريق الشر ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2] فلا حجّة لأحد على الله سبحانه وتعالى ولا عذر لأحد، والله عزّ وجلّ قطع هذه الأعذار، ولا يمكن للإنسان أن يحتجّ على الله عزّ وجلّ في مثل هذه المسائل.

---

(١) الأنبياء:٢٣.

(٢) البلد:١٠.

القاعدة السابعة التي يمكن أن تُذكر: أن القدر والقضاء لا يمكن أن يكون حجّة في ترك العمل، وهذه سوف نبحثها إن شاء الله بشيء من التفصيل في كلام الموفق رحمه الله تعالى، لا يمكن - القضاء والقدر - أن يكون حجّة في ترك العمل، ولهذا قلنا فيما سبق: إن الإنسان في بحث هذه المسائل يكون وفق النصوص، والله عزّ وجلّ بيّن قواعد القضاء والقدر في كتابه وفي سُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

من القواعد التي أخبرنا بها النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أن عِلْمَ الله سابق فيما هو كائن، لهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حدّث أصحابه وقال: «ما من نفس منفوسة إلّا وقد كتب الله مقعدها من الجنة أو من النار» حدّث من؟ الصحابة رضوان الله عليهم، فقالوا: يا رسول الله؛ إذا كان الأمر فيما أُمر منه فلمَ العمل؟ أفندعُ العمل؟ فقال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم -قاعدة محكمة في هذا الباب-: «اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خُلق له»(١)، ولهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أوتي جوامع الكلم قال: اعملوا، لاحظ، «اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خلق له» يعني كلّ سييسر لما خلقه الله عزّ وجلّ له إمّا طريق الجنة وإمّا طريق النار، ولم يكتفي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بهذا؛ بل ربط هذه القاعدة بدلالة شرعية وبقاعدة أو بآية من كتاب الله عزّ وجلّ، ثم تلا قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(٢) اجمع بين قول النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبين الآية يزول عندك كثير من الإشكال، «اعملوا فكلٌّ ميسر لِمَا خُلِقَ له» يعني كلٌّ سييسر الى ما خلقه الله عزّ وجلّ ولِمَا قضاه الله عزّ وجلّ في الأزل؛ أنّ هذا سيكون من أهل السعادة وذاك من أهل الشقاوة، وهذا القدر الذي عَلِمَهُ الله عزّ وجلّ، الإنسان من أسبابه يتعاطى الأسباب، ولهذا تلا قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ من الذي أعطى؟ العبد، ﴿واتَّقَى﴾ من الذي اتقى؟ العبد، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ من الذي صدّق؟ العبد، ثمّ قال الله عزّ وجلّ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾، ييسره الله عزّ وجلّ لطريق الخير، فالمطلوب من العبد أن يعمل بعمل أهل الخير وبطريق أهل الخير وأن يسلك هذا الطريق، فإنّه سييسر إلى الجنّة، وليس معنى ذلك أنّ الإنسان يتكل على ما كتبه الله عزّ وجلّ! فهذا عجزٌ وقصورٌ في الفهم، ودلالات النّصوص - والنّصوص يجمع بينها ولا يفرق -

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٤٧) بنحوه.

(٢) الليل: ٥-١٠.

تفهم مجموعة لا يستقلّ بفهم نصّ، ولهذا «اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له» يفهم وفق قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ ولهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال هذا الكلام ثم تلا ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ فإذاً عليك يا عبد الله أن تعمل بطريق أهل الخير حتّى تُيسّر لعمل أهل الخير، وأنت تعمل بهذا الطريق تسأل الله الثبات، تخشى ممّا كتبه الله عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ وتعلم أن ربّك سبحانه وتعالى لا يظلم، وأنه سبحانه وتعالى يعطي على القليل الكثير، وأنّه إذا عَلِمَ من قلب عبده الخير يسّره إلى الخير، فلا بدّ؛ لأن الأعمال لها تعلّقات، يعني العمل له تعلّقات، ومن تعلّقات العمل الظاهر فيما يبدو للناس ومن تعلّقات العمل الباطن، وهذا لا يتطلع عليه إلّا الله، ولهذا في الحديث الآخر «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة – في رواية – فيما يبدو للناس»[1] فدلّ على أن العمل له تعلّقات؛ تعلّق بظاهره وتعلّق بباطنه، والله سبحانه وتعالى هو علّام الغيوب، ولهذا الإنسان يخشى ممّا في قلبه، أن يقع في قلبه أشياء تكون سبب – والعياذ بالله – للضلال، فالإنسان لا بدّ أن يصلح ظاهره ويصلح الباطن، والأعمال لها تعلّقات كما ذكرت لك، فلهذا «فيما يبدو للناس» و«إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس» فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، إذاً هذه الملاحق وهذه الأشياء مهمّة جدّاً في فهم مسائل القضاء والقدر، من لم يفهم هذه القواعد وقع بالزلل، فإذاً وساوس الشيطان وأسئلة عوام الناس – لأنه يكثر السؤال عن هذه المسائل –، إذا جمعت هذه القواعد ورتبتها تبيّن لك كثير ممّا يسأل عليه الناس، فإن الناس يسألون – عوام الناس – لمَ كذا؟ ولمَ كذا؟ فتخبرهم بهذه القواعد حتّى يستقيم لهم سلوكُ هذا السبيل الذي سلكه الصحابة والتابعون، فالصحابة رضوان الله عليهم لمّا أُخبروا بالقضاء والقدر أجابهم النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يتعدّوا في ذلك، فما قالوا: يا رسول الله لمَ ولمَ وكذا وكذا؟ ولكن عملوا بما أخبرهم النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

المسألة التي تلي هذه المسألة: أنّه لا يتم الإيمان بالقضاء والقدر حتّى تؤمن بأربعة أمور أو ما يسمّيه بعض أهل العلم (مراتب الإيمان بالقضاء والقدر).

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٩٨).

المرتبة الأولى: أن الله سبحانه وتعالى عَلِمَ ما يكون جملةً وتفصيلاً على وجه التفصيل وعلى وجه الأجمال، وأحاط الرب سبحانه وتعالى بكلّ شيء علماً، ولا يخفى عليه شيء، وهو عالم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وعِلْمُ الله تعالى محيط، ولا تحيط به عقول الخلق ولهذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1] ما يكون في السماء والأرض ولهذا ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2] فعِلْمُ الله عزّ وجلّ لا يمكن أن تحيط العقول بعلمه سبحانه وتعالى، علِم الله عزّ وجلّ ما كان وما لم يكن لو كان كيف يكون؟ فعلمه محيط، المرتبة الأولى هذه مرتبة العلم.

المرتبة الثانية: أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقاديرَ كلّ شيء، كل شيء كائن قد كتبه الله عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ، ولهذا يقول الله عزّ وجلّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهَّ يَسِيرٌ﴾[3]، إذاً كلّ شيء قد كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ، وهذا اللوح المحفوظ عند الرب سبحانه وتعالى كلّ شيء قد كُتب فيه؛ مقادير الخلائق؛ أحوال الخلق؛ مصيرهم؛ كلّ شيء مكتوب في اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: أنّه لا يكون شيء في هذا العالم إلّا بإرادته ومشيئته، أنّه لا يكون شيء في هذا العالم إلّا بإرادة الرب سبحانه وتعالى ومشيئته سبحانه وتعالى، فإرادة الله عزّ وجلّ ومشيئته سبحانه شاملة لكلّ شيء، وهذه الإرادة والمشيئة دائرة بين الرحمة والحكمة، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ولا يُسأل عمّا يفعل سبحانه وتعالى وهم يُسألون، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[4]، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُّ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[5]، فمشيئة الله عزّ وجلّ وإرادته شاملة لكلّ شيء هذه المرتبة الثالثة.

---

(١) الحج: ٧٠.

(٢) الأنعام:٥٩.

(٣) الحديد:٢٢.

(٤) القمر:٤٩.

(٥) الأنعام: ١٢٥.

المرتبة الرابعة: أن كلّ شيء في السماوات والأرض مخلوق لله عزّ وجلّ لا خالق غيره سبحانه وتعالى، كلّ شيء مخلوق لله عزّ وجلّ في هذا العالم ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(١)، كل شيء مخلوق، ولهذا أفعال العباد مخلوقة لله عزّ وجلّ، قال تعالى عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢) ما هنا سواء قيل: إنها مصدرية أو قيل: إنها صلة موصول بمعنى (الذي) فمعناها واحد - وإن كان الأوجه والأقرب أن يُقال: إنها صلة موصول بمعنى (الذي) -، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فإذاً هذه الآية مما يستدلّ به السّلف على أن أفعال العباد مخلوقة لله عزّ وجلّ، إذاً كل هذا العالم هو من خلق الله عزّ وجلّ، هذه هي المراتب، إذا انتهينا إلى هذا نأتي إلى مسألة أخرى وهي مهمّة في مسائل بحث الخلاف في القضاء والقدر أو الطوائف التي خالفت منهج أهل السُّنَّة، نسمّي هذه المسألة (التسلسل التاريخي لمسألة المخالفة في باب القضاء والقدر)، أول ما ظهر التكذيب بالقدر - بدعة القدرية - ظهرت على يد شخصيتين، أمّا الشخصية الأولى فيسمّى معبد الجُهنيّ -وكان يقيم بالبصرة-، الشخصية الثانية يسمى غيلان الدمشقي وهو في ظاهر اسمه يقيم في دمشق، ولهذا يقول أهل العلم: إن مَعْبَدًا تلقّف القول ببدعة القدر من ماذا؟ من المجوس - باعتبار أن البصرة أقرب البلدان إلى بلاد الفرس، والفرس جنس الفرس يدينون بدين المجوس -، وأمّا غيلان فتلقف هذه البدعة في باب القضاء والقدر من النصارى، كلا الطائفتين - أو كلا الديانتين - المجوس والنصارى لهم انحراف بباب القضاء والقدر.

هذه البدعة لمّا ظهرت بدعة القدرية والتكذيب بالقدر؛ عاصر بعض الصحابة هذه البدعة، ممّن نُقل عنه من الأقوال التي تدلّ على أنه كان معاصراً لهذه البدعة - التكذيب بالقدر - عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وعبد الله بن عبّاس وتبرّأ رضوان الله عليهما من هذه البدعة، كانت هذه البدعة تقوم على نفي القدر - التكذيب بالقدر -، صورة هذه البدعة أن الله تعالى لا يعلم الشيء حتّى يقع، ما الذي حملهم على ذلك؟ لمّا خاضوا في مسائل القضاء والقدر - بزعمهم تنزيه الله تعالى عن الظلم - قالوا: إن الله تعالى لا يعلم الشيء حتّى يقع، وهؤلاء في أول ظهورهم أنكروا مرتبة من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر وهي مرتبة العلم،

(١) الفرقان: ٢.

(٢) الصافات:٩٦.

ولهذا إنكار هذه المرتبة كُفْرٌ؛ أن الله لا يعلم الشيء حتى يقع! لا يعلم طاعة المطيع ومعصية العاصي حتّى يقع من هذا! هذا يتضمن نسبة الجهل إلى الله عزّ وجلّ، هم أرادوا التنزيه فوقعوا فيما هو – والعياذ بالله – أشر ممّا فرّوا منه، فنسبوا الجهل إلى الله سبحانه وتعالى، ولهذا أول ظهور لهذه الطائفة تبرّأ منهم الصحابة وكفّروهم، لهذا نُقل عن بعض السّلف أنهم قالوا: ناظروهم بالعلم، فإن أقرّوا به – علم الله عزّ وجلّ – خُصِمُوا؛ وإن أنكروه كفروا.

فإنكار هذه المرتبة كُفْرٌ بالله عزّ وجلّ، وكان طائفة منهم – من القدرية – أول ظهور هذه البدعة طائفة تقول: إن الله تعالى يُقدّر الخير؛ وأمّا الشر فليس من قدر الله عزّ وجلّ، ولهذا لمّا نُقلت هذه البدعة لابن عبّاس نُقل عنه في الآثار أن ابن عبّاس قال: (والذي نفسي بيده لينتهيّن بهم سوءُ رأيهم حتى يُخرجوا اللهَ من أن يُقَدّر الخير كما أخرجوه من أن يُقدّر الشر)[1] وهذا ما صاروا إليه؛ فقالوا: إن الله عزّ وجلّ لم يقدّر الخير ولا الشر، فهذا أول ظهور لبدعة القدرية، ولهذا لمّا خرجوا في وقت السّلف سمّاهم السّلفُ مجوسَ هذه الأمّة، سمّيت القدرية بأنهم مجوس هذه الأمّة، ونقل في ذلك أحاديث وهذه الأحاديث لا تصح على جهة الرفع[2]، ما يصحّ منها شيء لأنه هناك قاعدة – مهمّ أن تعرفها – أنه لم تُسمّ فرقة ولم يصحّ في فرقة بتسميتها إلّا الخوارج، أمّا القدرية فوردت في الأحاديث المسندة ولكن لا تصحّ على وجه الرفع وإنما هي موقوفة على الصحابة – سمّاهم الصحابة مجوسا – هذه الأمّة لماذا سُمّوا مجوس؟ ما وجه الشبه بالمجوس؟ لأن لهم وجه بقول الثّنويّة المجوس، ما معنى الثنوية؟ الذين يقولون بإلهين، الثنوية المجوس يقولون: بأن هذا العالم له خالقين، أحدهما إله النور وهو خالق الخير هكذا يقول المجوس، وإله الظلمة إله الشر وهو خالق الشر، وهما يتصارعان حتّى يغلب إلهُ الخير إلهَ الشر هكذا يقول المجوس، ولهذا هم عبدة النار باعتبار أن النار هي رمز لإله النور، فهؤلاء وجه الشبه؛ شابهوا المجوس، لأنهم يقولون: بأن الله خلق الخير – في أول ظهور لهم – طائفة منهم قالوا: إن الله خلق الخير وأمّا الشر فإن الله لم يخلقه، فأثبتوا خالقا غير الله سبحانه وتعالى، من هذا الوجه أشبهوا المجوس ولهذا سمّاهم السّلف مجوس هذه الأمّة، هذا المذهب تطوّر أو تغيّر، مرّ بمرحلة التغيّر

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١١١٦).

(٢) حديث (القدرية مجوس هذه الأمة) صحيح، أخرجه أبو داود (٤٦٩١) عن ابن عمر مرفوعا. صحيح الجامع (٤٤٤٢).

أو هذا الاعتقاد الفاسد يمرّ- يعني- أهل الأهواء كما أخبر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «تتجارى بهم الأهواء» أهل تقلّب واضطراب وتناقض، هذا المذهب انقرض - القدرية الأولى - ثمّ ورث مذهبهم المعتزلةُ، ورث مذهبَ القدرية فرقةٌ من الفرق الإسلامية تسمّى المعتزلة - أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد -، وقالوا: إن الله تعالى لا يخلق فعل العبد؛ بل العبد يخلق فعل نفسه، فأنكروا أن الله عزّ وجلّ خالق أفعال العباد بل العباد يخلقون أفعالهم، ما الذي حملهم على ذلك؟ تنزيه الرب سبحانه وتعالى - فيما يزعمون - عن الظلم، أرادوا التنزيه فقالوا بمثل هذه المقولة، ولهذا في الكتاب في الردّ عليهم من كتب السّلف كتاب البخاري (خلق أفعال العباد)، وهذه الطائفة لمّا ورثت مذهبَ القدرية الأُوَل لم يقولوا بقول القدرية الأُوَل فأثبتوا صفة العلم لله عزّ وجلّ وأثبتوا مرتبة العلم لله عزّ وجلّ وأن الله عزّ وجلّ عَلِمَ ما هو كائن؛ ولكن قالوا: إن العبد يخلق فعل نفسه، وأفعال العباد ليست من خلق الله عزّ وجلّ بل العبد يخلق فعل نفسه، هؤلاء من هم؟ المعتزلة، ورثت المعتزلةُ مذهبَ القدرية الأولى ثمّ طوّرت هذا المذهب إلى قالوا بقولهم في مواضع وخالفوهم في مواضع أخرى فلم ينكروا مرتبة العلم من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر، طبعاً كل بدعة يقابلها بدعة، وأهل السُّنَّة هم أهل الوسط، والفضيلة وسط بين رذيلتين، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[1]، فقابل هؤلاء طائفةٌ أخرى على مذهب آخر وهم من؟ هم الجبرية الجهميّة، يعني عكس هؤلاء الجبرية الجهمية، هؤلاء قالوا: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله عزّ وجلّ، قابلهم طائفة أخرى وهم الجبرية، من اسمهم - يعني من مسمّى الجبرية - يتّضح لك هذا المذهب، ولكن هذا المذهب يمكن تقسيمه إلى قسمين: أن يُقال الجبرية الغُلاة والجبرية المتوسطة، أمّا الغُلاة من الجبرية فهم الجهميّة، ولهذا من أقوال أو من بدع جهم بن صفوان له بدع مشهور بها؛ من أشهر أقواله البدعية القول بالجبر، القول بالجبر في ماذا؟ في باب القضاء والقدر، ما هذا القول؟ يقولون أن المرء ليس له اختيار؛ بل الله سبحانه وتعالى هو خالق أفعال العباد والعبد في قضاء الله عزّ وجلّ كالريشة في مهبّ الريح، وهو مجبور على فعله، مجبور ليس له أي قدرة أو اختيار، هذا لا تسأله لماذا أطاع؟ وذاك لا تلمه لماذا عصا؟ فهو مجبور، طبعاً هذا المذهب الفاسد يتضمّن تعطيل الشريعة، فلا تقيم الحدود؛ ولا تسأل الزاني لماذا زنا؟ ولا تلوم أحد فيما يفعل، يتضمن تعطيل

(١) البقرة: ١٤٣.

الشريعة، فهؤلاء جعلوا أن حركة العباد حركة جبرية وأنه ليس للإنسان اختيار، وأن الخلقَ أدواتٌ في يد الخالق كما أنّ القلمَ أداةٌ في يد الكاتب، هكذا يعبّرون كالريشة في مهبّ الريح، ولهذا عندهم يقولون: أفعال العباد جبر وليس لهم اختيار مثل حركة أمعاء بطنك لا تتحكم فيها، كذلك أفعال العباد ليس لهم قدرة ولا اختيار، فهذا مذهب فاسد وكفري- والعياذ بالله - الطائفة الأخرى من الجبرية وهم الأشعرية، ومن هنا يتبيّن لك أن مذهب الأشعرية هو مذهب فاسد - نسأل الله السلامة والعافية - فوافقوا أهل البدع في مواضع كثيرة، ومن ضمن موافقاتهم وافقوا الجبرية، ولهذا نقول: الجبرية الذين ليس لهم غلوّ الجبرية الأوائل، ولهذا الأشعرية في باب القضاء والقدر هم جبرية، وهؤلاء الأشعرية يُعدّون من الجبرية، يقولون: بالجبر بالباطن دون الظاهر، ولهذا ذكرت لك كلامَ ابن قدامة في الحقيقة أن لهم مذهب ظاهر ولهم مذهب باطن - نسأل الله السلامة والعافية -، فيقولون بالجبر بالباطن دون الظاهر، فالظاهر عندهم أن العبد - يصرّحون بذلك - أن العبد مُختار له اختيار لكنه في البطن مجبر، ولهذا قالوا بما يُسمّى عندهم - من الألفاظ المبتدعة - ما يسمى بالكسب الأشعري، يقولون: إن أعمال العباد كسب لهم؛ أفعال العباد كسب لهم وهي خلق الله عزّ وجلّ، ولهذا هذا الكسب الذي ابتدعه الأشعري اختلفوا في معناه إلى اثني عشر قول، معنى هذا الكسب لا يعرفون ما معناه، بدعة وضعوها، ولهذا قال بعض أهل العلم: ثلاث لا حقيقة لها؛ ذُكر منها كسب الأشعري وأحوال أبي هاشم الجُبّائي وطفرة النّظّام، كل هؤلاء من رؤوس أهل البدع جاءوا بمصطلحات لا يعرفون حتى هم معناها، ولهذا فهم يقولون: إن الله تعالى - تبعاً لهذا المذهب الفاسد من باب القضاء والقدر - إن الله يفعل عند الشيء لا به، هكذا عباراتهم يعبّرون بها، فهم في الحقيقة منكرة الأسباب والعلل، لا يوجد أسباب ولا يوجد علل، كيف صورة هذا المذهب الفاسد؟ يقولون: السكين ليست قاطعة إلّا بقدر الله، طيب كيف السكين؟ يقولون: أنت إذا وضعت السكين على اللحمة خلق الله تعالى عند الاقتران القطع، وإلّا السكين ليست قاطعة؛ ولكن عند الاقتران يحدث القطع - هكذا يُعبّرون - فالله تعالى يخلق عند إمرار السكين القطعَ، والنار هل تحرق؟ يقولون: لا النار لا تحرق بذاتها؛ وإنما عند الاقتران يخلق الله تعالى الاحتراق، يعني الآن الكبريت؛ إذا أنت مررت عليه كذا، الاحتراق الشعلة الله تعالى يخلقها عند ذلك، هذا مذهب فاسد عقلاً وشرعاً، ما الذي حملهم على ذلك على هذا المذهب الساقط؟

يزعمون أنهم لو قالوا بأنها تؤثر بذاتها أو أن فيها تأثيرا لأثبتوا التأثير لغير الله، والله تعالى هو المؤثر عندهم ولو نسبوا التأثير لغيره لوقعوا في الشرك هكذا! كل هذا سفسطة عقلية باطلة لأنه كما تعرف أن مذهب أهل السُّنَّة أن الأسباب الله عزّ وجلّ جعل فيها التأثير وهي ليست مؤثرة بذاتها ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل فيها التأثير، عند أهل السُّنَّة السكين قاطعة، والله عزّ وجلّ جعل فيها خاصيّة القطع، وهذه الخاصية هو الله سبحانه وتعالى الذي جعل فيها ذلك فهي سبب في القطع، والنار محرقة والله عزّ وجلّ جعل فيها تأثير الحرق، ولكن هذه الأسباب هي مؤثرة بتقدير الله عزّ وجلّ، والذي يملك سبحانه وتعالى نزعَ تأثير هذه الأسباب، من الذي يملك نزع التأثير؟ الله سبحانه وتعالى فهو مُسبب الأسباب – قاعدة عند أهل السُّنَّة –، ولهذا أنت تتعاطى الأسباب تَعْلَمُ أنّها أسباب في تحصيل المطلوب، وهي مؤثرة بتقدير الله عزّ وجلّ، ومن يملك نزع التأثير؟ هو الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى هو القادر وحده أن ينزع تأثير الأسباب؛ فلا تنفع الأسباب، وهو القادر سبحانه وتعالى على أن يجعل الأسباب مؤثرة، وليس في ذلك ما يخالف الشرع ولا العقل بحمد الله، ولهذا النار لا أُلقي إبراهيمُ عليه السلام في النار؛ كانت النار محرقة؛ أليس كذلك؟ لذلك الله عزّ وجلّ قال: ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلاماً﴾[1] قال بعض أهل التفسير: إن الله تعالى قال برداً وسلاماً لأنها لو كانت برداً لكانت مضرّة على إبراهيم لكن قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَسَلاماً﴾، فما الذي جعل هذه النار التي هي محرقة؟ جعلها الله عزّ وجلّ برداً وسلاماً على إبراهيم ونزع تأثيرها، الله سبحانه وتعالى، فالذي ينزع التأثير من الأسباب هو الله سبحانه وتعالى، ولهذا العبد المؤمن كما سوف نقعّد إن شاء الله بقاعدة تأتي معنا إن شاء الله هو أن الإنسان يتعاطى الأسباب وقلبه معلّق بمُسبب الأسباب سبحانه وتعالى، بمعنى أن هذه أسباب لا تعدو أن تكون أسباباً، فتتعاطى الأسبابَ لأن الله أمرك باتخاذ الأسباب، لهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إمام المتوكلين ومع ذلك النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم اتخذ الأسباب، فلمّا اجتمعت عليه الأحزاب صنع خندقاً أو عمل خندقاً للحماية، اتخذ سببا، والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو إمام المتوكلين ظاهر بين درعين في يوم أحد، فعل الأسباب، تعاطي الأسباب لا يخالف هذه الأمور بل هي من التوكل على الله عزّ وجلّ أن تتعاطى الأسباب، ومن التوكل على الله عزّ وجلّ أن تَعْلَمَ أن هذه الأسباب

(١) الأنبياء: ٦٩.

ليست مؤثرة بذاتها ولكن بتقدير الله عزّ وجلّ، وهي لا تعدو أن تكون أسباباً، أن تتعاطى أسباب السلامة وأسباب العافية وأنت تعلم أنّها لا تعدو أن تكون أسباباً؛ وأنّ مسبّب الأسباب هو الله سبحانه وتعالى، هو الذي جعل في هذه الأسباب التأثير، ولو شاء الله عزّ وجلّ لما جعل التأثير، ولهذا أنت تتعاطى الدواء وأنت تعلم أنّ هذا الدواء سبب في حصول العافية، لكن هذا السبب لا يستقلّ بنفسه، لا يستقلّ هذا السبب بنفسه في تحصيل المطلوب، لا بدّ له من شروط، ولا بدّ له من انتفاء موانع، من الذي يملك لك تحقّق الشروط في هذا السبب وانتفاء الموانع؟ هو الله سبحانه وتعالى، لهذا قلبك معلق بمسبّب الأسباب، لهذا تتعاطى الدواء؛ تسأل الله العافية، تسأل الله أن يجعل فيه النّفع لأنّ السبب؛ قد يتعاطى السبّب الدواء نفس الدواء نفس الشخص نفس العمر نفس فصيلة الدّم نفس كل شيء ومع ذلك هذا الدواء ينفع لفلان ولا ينفع لفلان، لماذا؟ لأنّ السبب لا يستقلّ في حصول المطلوب، ولأنّ السبب لا بدّ له من تحقق شروط من أجل أن ينفع، ولا بدّ له من انتفاء موانع من أجل أن يكون فيه النفع، فإذاً أنت على الحقيقة تتعاطى الأسباب وقلبك معلّق بمسبّب الأسباب سبحانه وتعالى، وهذا من أعظم مقامات التّوكل، ولهذا ترك فعل الأسباب ليس من التّوكل في شيء، بل التّوكل على الحقيقة هو أن تفعل الأسباب وأنت لا تلتفت إلى هذه الأسباب بل تعلم أنّها أسباب ولا تعدو أن تكون أسباباً والسبب لا يستقلّ في حصول المطلوب؛ بل لا بدّ له من تحقق شروط وانتفاء موانع وإلّا ما يكون نفع، إذاً قلبك معلقٌ بالله عزّ وجلّ.

وَلَا نَجْعَلُ قَضَاءَ اَللَّهِ وَقَدَرَهُ حُجَّةً لَنَا فِي تَرْكِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ وَنَعْلَمَ أَنَّ للهِ عَلَيْنَا اَلْحُجَّةَ بِإِنْزَالِ اَلْكُتُبِ وَبِعْثَةِ اَلرُّسُلِ، قَالَ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١)، وَنَعْلَمَ أَنَّ اَللَّهَ – سُبْحَانَهُ – مَا أَمَرَ وَنَهَى إِلَّا اَلْمُسْتَطِيعَ لِلْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُجْبِرْ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَا اِضْطَرَّهُ إِلَى تَرْكِ طَاعَةٍ، قَالَ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾(٣) فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لِلْعَبْدِ فِعْلاً وَكَسْبًا، يُجْزَى عَلَى حُسْنِهِ بِالثَّوَابِ؛ وَعَلَى سَيِّئِهِ بِالْعِقَابِ، وَهُوَ وَاقِعٌ بِقَضَاءِ اَللَّهِ وَقَدَرِهِ.

.....

كلام الموفّق هنا يجرّنا إلى بحث مسألةٍ مهمة وهي أنّ إثبات قدر الله عزّ وجلّ لا يعني الجبر بأيّ حالٍ من الأحوال، كون أنّ الله عزّ وجلّ قدّر كل شيء وعَلِمَ كل شيء وكتب كل شيء وأنّ مشيئته سبحانه وتعالى نافذة لا تعني أنّ الله سبحانه وتعالى أجبر الخلق وأنّه جبرهم على شيء، والله تعالى خالق أفعال العباد لا كما يقول المعتزلة، والله تعالى خالق أفعال العباد من خيرٍ أو شر، ولهذا يأتي معنا مسألة هنا كيف أنّ الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد؟ أولاً الدليل الشرعي في ذلك أن يقال: إنّ النصوص صرّحت بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله عزّ وجلّ وأنّ الله خالق كل شيء ومن عموم كل شيء أفعالُ العباد، ولهذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٤) وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٥) والذي تعملون، ولهذا كيف يكون الله عزّ وجلّ خالق أفعال العباد؟ أهل السُّنَّة يقعّدون قاعدة مهمّة في ذلك حتى يتبيّن لك كيف أن الله خلق أفعال العباد، يعني الآن العبد يفعل وله قدرة واختيار، وهذه القدرة والاختيار مخلوقة لله عزّ وجلّ، يقولون بقاعدة مهمّة إذا فهمتها فهمت وجهَ كون أن الله عزّ وجلّ خالق أفعال العباد، يقولون: خالق السبب التام خالقٌ للمسبّب، كيف؟ يعني ما الذي جعل فيك الإرادة؟ ما الذي جعل فيك القوّة؟ ما الذي

(١) النساء: ١٦٥.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) غافر: ١٧.

(٤) الفرقان: ٢.

(٥) الصافات:٩٦.

أعطاك الحواس؟ من هو؟ الله سبحانه وتعالى، إذاً الله عزّ وجلّ خلقك على وجه الإجمال خالق كل شيء فيك، إرادتك واختيارك، فما ينتج من ذلك هو من خلق الله عزّ وجلّ، لهذا نقول: خالق السبب التام خالقٌ للمسبّب، هذا وجه كون الله عزّ وجلّ خالق أفعال العباد، خالق السبب التام خالقٌ للمسبّب، الإرادة إرادتك من الذي خلقها؟ الله سبحانه وتعالى، من الذي أقدرك؟ من الذي جعلك تختار هذا الشيء؟ هو الله سبحانه وتعالى، من الذي أمكنك بالحواسّ؟ هل يمكن للإنسان أن يصلي وهو ليس له قدرة؟ من الذي خلق فيك هذه القدرة؟ من الذي جعلك تقوم؟ من الذي جعلك؟ كلّها على الحقيقة الله سبحانه وتعالى أوجدها فيك، فما ينتج من أفعال العباد فهو من خلق الله عزّ وجلّ، هذا الآن ما سخره الله عزّ وجلّ من البحر والبرّ هو من خلق الله عزّ وجلّ، الطيّارات هذه التي تراها والفضاء هذا؛ كيف هذا؟ كيف الإنسان توصّل إليها؟ هي من خلق الله، لأنّ الإنسان هو الذي استطاع بما أقدره الله عزّ وجلّ من العقول والأفهام أن يستطيع أنّه يبتكر هذه الطائرة، ولهذا هذا من تسخير الله عزّ وجلّ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾(١)، فعقل الإنسان مخلوق لله عزّ وجلّ فما ينتج منه من هذه الأمور هي على الحقيقة من خلق الله سبحانه وتعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٢)، ومن ذلك ما خلق الله عزّ وجلّ من الآلات والأدوات، ولهذا يقعّد السّلف رحمهم الله، وهذه ذكرها ابن أبي العزّ في شرح الطّحاويّة قاعدة مهمة أن يقال: إن الالتفاتَ إلى الأسباب شركٌ، كيف تلتفت للأسباب؟ يعني التعبير بالالتفات كأنّك تميل إليها فتنصرف عن مسبّب الأسباب عن الله عزّ وجلّ، فالالتفات إلى الأسباب شرك، ومَحْوُهَا أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، يعني هل الإنسان إذا قيل له تزوج حتى يأتيك ولد يأتيك ذريّة؛ يقول: إذا كتب الله عزّ وجلّ أنّ لي ذريّة جاءتني الذرية من دون زواج! هذا نعتبره عاقل أم ناقص عقل؟ مجنون، ولهذا محو الأسباب - أن تكون أسباباً - نقصٌ في العقل، والإعراض عنها قدحٌ في الشرع؛ لأنّ الشّرع أمرك باتخاذ الأسباب، أن لا تفعل ما أمرك الله عزّ وجلّ؛ قدح في الشّرع، تنسبه إلى الشّرع تزعم أنت أنّك متوكل! والحقيقة هذا ليس من التوكل في شيء، هذه قاعدة، إذاً الالتفات إلى الأسباب شرك، ولهذا دائماً لا تعلّق قلبك بالأسباب ولا تتخذ من الأسباب؛

(١) الزخرف: ١٣.

(٢) النحل: ٨.

هذا يجرّنا إلى قاعدة مهمة في مسائل التوحيد: لا تتخذ من الأسباب إلّا ما كان سبباً حسّاً أو شرعاً، لا تزعم أنّ هذا سبب وهو ليس بسبب هذه قاعدة مهمّة جداً، ولهذا في مسائل التوحيد يحصل الخلطُ في هذه القاعدة، لا تتخذ من الأسباب إلا ما كان سبباً حسّاً أو شرعاً، كيف يكون حسّا أو شرعا؟ يعني بالتجربة عَلِمَ النّاس أنّ هذا سبب في كذا، مثل الدواء الآن أليس كذلك؟ الدواء تعارف النّاس وتعارفت الأمم أنّ هذا الدواء نافع، لكذا كيف عرفوا هذا؟ بالتجربة، فيعرفون الأسباب هذه، هذه تتخذ هذه الأسباب، تعاطى النّاس؛ عَلِمُوا؛ عَلِمَ النّاس أنّ مثلاً المرض الفلاني أنّك إذا فعلت كذا أنّه يكون نافع بإذن الله من خلال التجربة وتداول النّاس لهذه المعلومة، عُلِمَ هذا أنّه سبب والأسباب كبيرة أسباب العافية وغيرها؛ تتعاطى الأسباب، هذا حسّ، محسوس تعارف النّاس عليه، أو شرعاً يعني دلّت الشّريعة على اتخاذ هذا السبب لتحصيل المطلوب، ولهذا أشياء كثيرة وأمثلة كثيرة، لكن الكلام على الأسباب الحسيّة؛ أنّه يكون متداولا معروفا، أمّا الأسباب الّتي لا تُعرفُ حسّاً أو شاذّة غير مقبولة هذه اتخاذها سببا شرك، قد يكون شركا، وربّما يكون شركا أصغرا وربّما يكون شركا أكبرا بحسب ما يقوم بالقلب، فعلى سبيل المثال من عادات بعض الخرافيين، يقول لك: إذا أصابك ألم بسنّك أو بأحد أسنانك ماذا تفعل؟ تطرق مسمار في الجدار وتربط عليه حبل! هل يكون هذا سبب؟ هذا سبب شركي، لماذا ؟ لأنّ هذا ليس سبب حسيّاً، فلا تتخذ من الأسباب إلّا ما كان سبب حسّاً أو شرعاً، ولا تلتفت إلى الاسباب، لا تُعلّق قلبك بالسبب، فإنّه من تعلّق بشيٍ وُكِلَ إليه، هذه من أعمال القلوب، أعمال القلوب، أنظر قلبك، دائماً سبحان الله الإنسانُ إذا تعلّق بشي يخذله الله عزّ وجلّ ولا يحصّل المطلوب، فأنت تتعاطى الأسباب كما ذكرت لك وقلّبك معلّقٌ بمسبّب الأسباب، انتبه أن تتعلّق بالسبب وأن تلتفت إليه فتقع في الشرك وربّما أصابك الله عزّ وجلّ بأن لا يحصل لك المطلوب، وإذا لم يحصل لك المطلوب هذا من الخير لك؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يعلّمك ويؤدّبك، أراد بك خيراً حتّى تعرف أنّ مقام التّوكل عظيم وأنّك تتوكل على الله سبحانه وتعالى، فإذاً المقدور منه خيرٌ وشر، فالصّحة والغنى في الجملة خير، والمرض والفقر في الجملة شر – فيما يتعارف الناس عليه –، أمّا بالنسبة لله عزّ وجلّ خلق أفعال العباد خلق كل شيء؛ أمّا بالنسبة لفعل الله عزّ وجلّ فلا يقال: شر، لا

يقال: شرّ بالنسبة لأفعال الله عزّ وجلّ لقوله صلّى الله عليه وسلّم في دعاء القنوت «وقني شرّ ما قضيت»(١) ذكر ذلك الدليلَ المُوفَّقُ، «وقني شرّ ما قضيت» فأضاف الشرّ إلى ما قضاه الله عزّ وجلّ لا إلى قضائه سبحانه وتعالى، ولهذا جاء في الحديث «والشرّ ليس إليك»(٢) كيف هذا؟ يعني أفعال الله سبحانه وتعالى ليس فيها شرّ، وإن كان الشرّ إضافي نسبي، شرّ بالنسبة لك – يعني فيما تدركه وتعقله –، أمّا أفعال الله عزّ وجلّ فليس فيها شرّ بل فيها الحكمة البالغة والشرّ ليس إليه سبحانه تعالى، كون العقول لا تحيط بذلك؛ من اعظم الأمور أنّك تقف حيث وقف القوم، فإذاً هنا نلخص الكلام: أنّ الله سبحانه تعالى أضاف عملَ العبد إلى العبد، وجعله من كسبه فقال في الآية: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٣) إذاً هو اكتسب، الثاني: أنّ الله سبحانه وتعالى أمر العبد ونهاه فدلّ على أنّه مختار؛ فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(٤) أمره بالتقوى ولا يأمره الله عزّ وجلّ إلا بما يستطيع، وما لا استطاعة للإنسان فيه؛ قد رفع الله تعالى عنه التكليف في هذا الأمر ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٥) ولهذا الصلاة؛ القيام في الصلاة حكمه ركنٌ أليس كذلك؟ هذا الركن يسقط في حال واحدة ما هي؟ حال المرض؛ الإنسان لا يستطيع، صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً حديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لعمران(٦)، فإذاً الأمر مناط بالاستطاعة، فإذاً دلّ على أن الإنسان مستطيع، فإذا سقطت هذه الاستطاعة عنه سقط عنه التّكليف ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مما يدل على أنّ الله عزّ وجلّ لم يجبر الخلق – وليس في قضاء الله جبر – أنّ العبد يعلم الفرق في نفسه بين العمل الاختياري والعمل الجبري، يعلم الإنسان من نفسه، تعرف أنك مختار أو مجبور أليس كذلك؟ بنفسك – ولهذا كثير من الاحيان – تعرف أنّ الأمر من نفسك فتلوم ماذا؟ نفسك، تعرف أن الأمر من نفسك – نسأل الله السلامة والعافية– هل هناك أحد في أمور المعائب وكبائر الذنوب يقول: والله إني مجبور على الزنى! لا أحد يقول: مجبور على الزنى! لا

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح مسلم (٧٧١).

(٣) غافر: ١٧.

(٤) التغابن: ١٦.

(٥) البقرة: ٢٨٦.

(٦) صحيح البخاري (١١١٧).

يقبل منه لا عقلاً ولا شرعاً، بل العبد – نسأل الله السلامة والعافية – في الزنى؛ تجد أنه يدفع ويعمل ويخطط ويعمل كل شيء حتى ويجد من نفسه الاختيار؛ مختار، فهل يجد من نفسه الجبر؟ لا يجد من نفسه الجبر، يُفرّق الإنسان ويعرف، وهل فيما يفعله من الطاعات هل يجد أنه مجبور؟ الإنسان إذا سمع أذان الفجر قام وصلّى، يجد من نفسه؛ وتَحَرَّكَ وقام، ولكن دائماً هذه الأمور له تعلّق في مبحث مسألة التوفيق والخذلان والإعداد والإمداد، وهي مسائل قد يطول البحث فيها، يعني أن الأمور مربوطة بالله عزّ وجلّ من جهة أن يوفقك الله عزّ وجلّ، ولهذا انتبه أنت دائماً في مثل هذه الأمور لا تستقلّ بنفسك، بل توكّل على الله عزّ وجلّ واسأل الله التوفيق، لأنك قد توفق وقد لا توفق للطاعة، وقد الله سبحانه وتعالى يخذلك عن فعل الطاعة، فإذا قصّرت في شيء من أمور الطاعة فاحذر؛ قد يكون الله عزّ وجلّ ما أراد بك خيرا، ولهذا الله عزّ وجلّ قال عن أهل النفاق ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾(١) لكن لم يجبرهم سبحانه وتعالى، لكن الله كره انبعاثهم، فإذاً هي لها تعلّق بمسألة الإعانة والإمداد والتوفيق والخذلان، والله سبحانه وتعالى حكمٌ عدل، لكن تنتبه لمثل هذه الملاحظ؛ أن من يحتج بأنه مجبور على فعل ما يفعل من المعاصي أنه نقول: ما من عاصي يقدم على المعصية لا يعلم ما قدّر الله عزّ وجلّ، كلّ شيء واقعٌ بقدر الله لا يمكن أن يحتجّ بذلك في القدر، لأنّ العاصي حينما يعصي لا يعلم هل الله عزّ وجلّ قدّر عليه هذه المعصية أم لم يقدّرها؟ أنّ الله سبحانه وتعالى قطع الحجج على الخلق بإرسال الرسل وبإنزال الكتب فليس للخلق على الله عزّ وجلّ حجّة، ولهذا قال الله عزّ وجلّ عن إرسال الرسل ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٢) وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأقام الحجج على الخلق، وقطع عنهم المعاذير سبحانه وتعالى، فإذاً الحمد لله مسلك أهل السُّنَّة والجماعة في مباحث القدر مسلكٌ رشيد لأنه بحمد الله وسطي ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾(٣)، فأهل السُّنَّة والجماعة وسطٌ بين القدرية النّفاة وبين الجبرية، القدرية التي تقول: إنّ العبد يخلق فعل نفسه؛

(١) التوبة: ٤٦.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) البقرة: ١٤٣.

والجبرية التي تقول: إنّ العبد مجبور وليس له قدرة واختيار، فيقولون بما قالت به النّصوص، ولهذا من بحث في مسائل القضاء والقدر في هذا المسلك وقاه الله عزّ وجلّ الخطأ في مثل هذه المسائل.

فَصْلٌ

اَلْإِيمَان قَوْلٌ وَفِعْلٌ

وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ وَعَقْدٌ بِالْجَنَانِ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْعِصْيَانِ، قَالَ اَللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(١) فَجَعَلَ عِبَادَةَ اَللهَّ تَعَالَى وَإِخْلَاصَ اَلْقَلْبِ وَإِقَامَ اَلصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ اَلزَّكَاةِ كُلَّهُ مِنْ اَلدِّينِ وَقَالَ رَسُولُ اَللهَّ صلى الله عليه وسلم: «اَلْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ اَلْأَذَى عَنْ اَلطَّرِيقِ»(٢)، فَجَعَلَ اَلْقَوْلَ وَالْعَمَلَ مِنْ اَلْإِيمَانِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾(٣)، وَقَالَ: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً﴾(٤)، وَقَالَ رَسُولُ اَللهَّ صلى الله عليه وسلم: «يَخْرُجُ مِنْ اَلنَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ بُرَّةٍ، أَوْ خَرْدَلَةٍ، أَوْ ذَرَّةٍ مِنْ اَلْإِيمَانِ»(٥) فَجَعَلَهُ مُتَفَاضِلاً.

.....

انتقل الموفق للكلام في مسائل الإيمان لقوله: الإيمان قولٌ باللسان وعملٌ بالأركان وعقدٌ بالجنان - والجنان هو القلب -، ولهذا نبحث في هذا الموضع مسائل:

المسألة الأولى: ما يُعبّر به أهلُ السُّنَّة عن هذه العقيدة - عقيدتهم في مسائل الإيمان - وأن نقول تعددت تعابير السلف عن هذه المسألة أو هذا الاعتقاد، تارةً يقولون: الإيمان قولٌ وعمل، وتارةً يقولون: الإيمان قولٌ وعملٌ ونية، وتارةً أخرى يقولون: قولٌ وعملٌ ونيّةٌ واتباع السُّنَّة، وتارةً أخرى يقولون: قولٌ باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وهذه العبارات وهذه الألفاظ نقلها أهل العلم عن أئمة السُّنَّة وهذه العبارات تجدها في (شرح أصول الاعتقاد) للّالكائي وفي كتاب السُّنَّة لعبد الله بن أحمد وسائر كتب أهل السُّنَّة، ولهذا كلّ هذه التعابير صحيحة - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - فهم يعبرون عن شيء وعن

(١) البينة:٥.

(٢) صحيح مسلم (٣٥).

(٣) التوبة: ١٢٤.

(٤) الفتح: ٤.

(٥) صحيح البخاري (٤٤).

اعتقاد واحد، ما عبروا به سائغٌ ومقبول، وإنما هو اختلافٌ في التعابير لا اختلاف في المعاني.

المسألة التي بعدها: أن نقول: خالف اعتقادَ أهل السُّنَّة في باب الإيمان طوائفُ من أهل البدع، أشهر الطوائف المخالفة في باب الإيمان طائفة واحدة ولكنها متعددة أو لها انشقاقات - إن صحّ التعبير -، أشهر من عُلِمَت عنه المخالفةُ هم المُرجئة، من خالف في مسائل الإيمان أهل الإرجاء والمرجئة، وهم طوائف: الطائفة الأولى: هم غلاة المرجئة، وهم الذين يقولون: إنّ الإيمان هو المعرفة، فمن عرف الله عزّ وجلّ فهو مؤمن، ولهذا ذكرت لك أنّ من أشهر بدع جهم بن صفوان القول بالجبر، كذلك من أشهر بدع جهم بن صفوان وقد جمع بدعاً متعددة القول بالإرجاء؛ وأنّ الإيمان هو المعرفة، فهذا المذهب الفاسد - والعياذ بالله - كفري نسأل الله السلامة والعافية، ولهذا غلاة المتصوفة على هذا المذهب كابن عربي صاحب كتاب (فصوص الحكم) هذا ابن عربي الملحد - نسأل الله السلامة والعافية - يقول أنّ فرعون مؤمن لأنه يعرف ربه! هذا من أقوالهم المنحرفة، وقد صرّح في كتبه الفصوص وغيرها من كتبه في بهذه الأقوال، إذاً هؤلاء غلاة المرجئة يقولون: إن الإيمان هو المعرفة، ومن عرف الله فهو مؤمن! هؤلاء هم الجهمية، لهذا الجهميةُ السلفُ كفروهم، كفرهم السلف وأخرجوهم من الفرق الوعيدية.

الطائفة الثانية من المرجئة - ممن يعد من أهل الإرجاء -: جمهور الأشعرية والماتريدية، وهم للأسف يملؤون بلاد المسلمين إلا من رحم الله، الأشعرية والماتريدية، طبعاً الأشعرية في جهة الشمال والغرب، والماتريدية في جهة الشرق - يعني الباكستان وغيرها - الذين هم الماتريدية، هؤلاء جمهور الأشعرية والماتريدية على القول بالإرجاء؛ لأنهم جعلوا أن الإيمان هو التصديق الذي هو اعتقاد بالقلب.

من طوائف المرجئة - ذكر أهل العلم - الكُرّاميّة نسبة إلى رجل يقال له: عبد الله بن كرّام، الكرّاميّة يعني ليس لهم أي مُصنفات، ولهذا هذا موضع يحتاج بحث، مذهبهم فيما نقل أهل العلم أنهم يقولون: الإيمان هو الإقرار باللسان، وهم عَدّهم كُتّاب مقالات الفرق عدّوا الكرّاميّة من المرجئة، ولكن الكرّاميّة ليس لهم أي كتاب، ولهذا بعض الباحثين يُشكّك فيما يُنسب إلى الكُراميّة من أقول؛ لأنه ليس لهم مصنفات وليس لهم أي شيء وإنما ذكروا في كتب أهل العلم ليس هذا موضع للبحث لأن الوقت ربما أزف.

الطائفة الرابعة من المرجئة: ما يسمى بمرجئة الفقهاء، وقد قال بالإرجاء في هذا الإمامُ أبي حنيفة رحمه

الله، واشتهر هذا القول عن أتباع هذا الإمام، وهم يقولون عن الإيمان: قولٌ باللسان وتصديقٌ بالجنان، ولكنّ العمل لا يدخلونه في مسمى الإيمان - وإن كان مطلوباً عندهم شرعا - ولكن لا يدخلونه في مسمى الإيمان، ولهذا لا بد أن تعرف أنّ خِلافهم مع أهل السُّنَّة خلافٌ حقيقي وليس خلافا لفظيا، وأنهم لا يدخلون العمل في مسمى الإيمان، وهم وقعوا في خطأ في مثل هذه المسائل؛ ما يسميه الآن أهل العلم مرجئة الفقهاء هم ممن خالف في مسألة الإيمان.

الطائفة الخامسة - يعني ممكن تعد طائفة خامسة - ولكن ليست داخلة في طوائف الإرجاء؛ لكنها قابلوا المرجئة يعني الآن الطوائف الأربع هم من أهل الإرجاء، طائفة أخرى خالفوا في مسائل الإيمان ولكن على النقيض من مذهب المرجئة من هم؟ الخوارج والمعتزلة، قالوا: بأن الإيمان اعتقاد في القلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، مثل مذهب أهل السُّنَّة ولكنهم عندهم انحراف في ماهية الإيمان، ما هو هذا الإيمان؟ قالوا: وهذا الإيمان حقيقة مركبة، يعني عمل الجوارح الذي هو جزء من الإيمان؛ قالوا: عمل الجوارح حقيقة مركبة تزول بزوال بعض أجزاءها، يعني إذا زال الجزءُ زال الكلُّ، عندهم الإيمان أجزاء؛ إذا زال الجزء زال الكل، فترتب على ذلك قولُهم في مسألة الفاسق الملّي، اصطلاح أهل العلم - لهم مصطلحات - من يبحث في مسائل الاعتقاد، لا بد أن تعرف اصطلاح أهل العلم عندهم مصطلحات مثل ما قلت لك في الكسب، ما معنى الفاسق الملّي؟ مرتكب الكبيرة يسميه أهل العلم في كتّاب مقالات الفرق يسمون مرتكب الكبيرة الفاسق الملّي، فترتب على قولهم أن الإيمان حقيقة مركبة يزول بزوال بعض أجزاءه؛ ترتب على ذلك قولُهم في مسألة الفاسق الملّي، ماذا يقولون عن الفاسق الملّي - مرتكب الكبيرة -؟ أهل السُّنَّة ماذا يقولون؟ مؤمن بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، هؤلاء لا يقولون: إن الإيمان يزول بوقوع العبد بكبيرة، فالفاسق الملّي ليس بمؤمن إذا وقع بكبيرة، فكفروا مرتكب الكبيرة، هؤلاء من هم؟ الخوارج، الزاني عندهم كافر، إذا وقع منه الزنى فقد كفر؛ لأن الإيمان يزول، ويستدلون بالمتشابه من النصوص مثل ما ذكرت لك فيما سبق، طبعاً هم لا يستدلون بالسُّنَّة وإنما بالقرآن، مثلاً القاتل ما ذكره الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾[1] جعلوا ذلك أصلا في أن القاتل وأن قتل النفس كبيرة ومرتكب الكبيرة كافر، إذا لم

(١) النساء: ٩٣.

يتب فهو كافر وفي النار خالد مخلّد، وافقهم على هذا الاعتقاد المعتزلة – أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد – ماذا قالوا؟ قالوا: إن الفاسق الملّي إذا مات فهو مخلّد في النار، وتبعاً لذلك أنكروا الشفاعة، وأما المعتزلة فخالفوا الخوارج في حكمه في الدنيا، فماذا قالوا؟ جاءوا ببدعة قالوا: إن مرتكب الكبيرة – الفاسق الملّي – في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر، ما الذي حملهم على ذلك؟ أنا الحقيقة لمّا بحثت في هذه المسألة؛ لم أجد سبباً لقولهم في المنزلة بين منزلتين إلّا سببا أن مذهب الخوارج لا يمكن أن يتعايش مع الخلق، مذهبٌ لا يمكن أن يكون له بقاء لا يمكن أن يتعايش مع الناس، هؤلاء لا يعيشون إلا في عُزلة عن الناس واضح، لا يعيش، مذهب الخوارج ليس له بقاء، ينقرض، ما له بقاء؛ لأنه يصادم الناس، ولا يمكن أن يتعايش مع الناس، فهؤلاء المعتزلة فيما يظهر لي أنهم قالوا في المنزلة بين منزليتين حتى يتعايشوا مع الناس وإلّا لا يمكن أن يقولوا بمذهب الخوارج ويتعايشوا مع الناس، لهذا تعايشوا وجلس المعتزلة وتولّوا القضاء وتولوا كذا، وإن كان مذهبهم الفاسد هو مذهب الخوارج في الآخرة؛ لأن مرتكب الكبيرة خالدٌ مخلد في النار، الحقيقة مركبة تزول بزوال بعض أجزاءها، هذا من تعابير المعتزلة، لأنخ أصلاً الخوارج الأُوَل ما يعبرون بهذا ولكن لما انتحل المعتزلةُ مذهبَهم في مسألة الفاسق الملّي عبّروا بمثل هذه العبارات، أمّا الخوارج فأنتم تعرفون تاريخهم مع الصحابة في أنهم خرجوا على علي لَمَّا رضي بالتحكيم وقالوا: لا حكم إلا لله إلى غير ذلك مما يأتي إن شاء الله.

المسألة التي بعدها: الإيمان يزيد وينقص وما قرَّره الموفق رحمه الله تعالى هذا بالأدلة المتظاهرة هذا واضح لا غموض فيه، وأهل السُّنَّة يُعبّرون بذلك، الإيمان يزيد وينقص، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: والقرآن نطق بالزيادة في غير موضع ودلّت النصوص على نقصانه كقوله عليه الصّلاة والسّلام (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) والذي خالف في هذا هم المرجئة؛ لأن الإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص؛ لأنه مجرد التصديق، وهذا يتساوى فيه العباد، ولا يقبل الزيادة ولا النقص – على أنهم مُنازَعُون في هذا – ولا نريد أن ندخل في التفاصيل، ولكن يكفي هذه الجملة؛ أن تعرف أن أهل الإيمان وأهل السُّنَّة يؤمنون أن الإيمان يزيد وينقص، والإنسان يجد من نفسه أن إيمانه يزيد إذا عمل طاعة وينقص إذا عمل معصية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: والقرآن نطق بالزيادة في غير موضع ودلّت النصوص على

نقصانه كقوله عليه الصّلاة والسّلام (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)، هذا على وجه الإجمال.

المسألة التي تليها: الإيمان يتفاضل، فكلما عمل العبد طاعةً زاد إيمانُه، وكلما عمل معصية نقص إيمانُه، كما أن الناس في أصله ليسوا سواء، بل هم متفاضلون فيما يقوم في القلوب في أصل الإيمان يتفاضلون، فإيمان أبي بكر رضي الله عنه ليس كإيمان سائر الصحابة وليس كسائر الناس.

المسألة التي تليها: قول السلف (الإيمان قول وعمل) فيما ذكرنا من عبارات السلف يراد به أشياء لا بد أن تعرفها – عبارات السلف – القول يراد به أمرين:

القول: قول القلب، يُعبّر بقول القلب، ماذا يراد بقول القلب؟ ما يقوم به من الاعتقاد يسمى قول القلب.

وعمل القلب هو النّيّة والإخلاص، النّيّة والإخلاص، أعمال القلوب وما يتبع ذلك والناس فيه طبعاً يتفاضلون.

العمل – عمل الجوارح – وهي الأعمال التي يعملها الإنسان بجوارحه كالصلاة وسائر الأعمال التي يباشرها الإنسان بجوارحه.

الأمر الرابع: قول الجوارح، وهذا يصدق على القول باللسان فإذاً قول السلف رحمهم الله تعالى الإيمان قول وعمل يراد بالقول قول القلب وعمل القلب وعمل الجوارح وقول الجوارح، وقد بيّنت لك مرادَ السلف رحمهم الله تعالى في هذه المواضع.

شَرحُ لُمعَةُ الاعْتِقَادِ للشَّيْخِ فَهْد المقْرِن

الشّريط الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً وبعد

قبل أن نبدأ بالدرس كان معي مجموعة من الأسئلة التي سُئلت عنها بالأمس ولكن يبدو أنها سقطت في الكتاب الآخَر ولكن أذكر بعض الأسئلة المهمّة التي سُئلت عنها:

– سؤال: سُئلت عن القاعدة التي ذكرناها معنى خالق السبب التام خالق للمسبب، مَن ذكر هذه القاعدة من أهل العلم؟

جواب: هذه القاعدة ذكرها ابن تيمية رحمه الله تعالى في منهاج السُّنَّة النَّبويّة في مواضع من كتابه وذكرها في مواضع أُخر من كتبه المتداولة المشهورة في مجموع الفتاوى على سبيل المثال مواضع، وممّن ذكرها من المتأخرين وشرحها الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في (بهجة قلوب الأبرار) وكذلك من المعاصرين الشيخ محمّد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى في رسالته في مباحث القضاء والقدر، وهي قاعدة معروفة، ولكن حتّى يزول الاستشكال فيها نعيد كون أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد، ذكرنا ما يتعلّق بهذا، وذكرنا أن أهل العلم قالوا: إن خالق السبب التام خالق للمسبب، فالسبب التام أو أي شيء في هذا العالم لا يحدث من أفعال الإنسان إلّا بأمرين، يعني الإنسان إذا أراد أن يفعل شيء لا بدّ أن يتوفر في نفسه أشياء أو شروط، أولاً: أن تكون له القدرة، بمعنى الاستطاعة، فمن الذي أوجد فيك تلك القدرة وجعلك مستطيعاً؟ هو الله سبحانه وتعالى، ثانياً: الإرادة، لا يتأتّى الفعل إلا بالقدرة والإرادة، فمن الذي خلق فيك القدرة؟ من الذي أوجد فيك هذه القدرة؟ هو الله سبحانه وتعالى، ومن الذي أوجد فيك هذه الإرادة؟ إرادة فعل الشيء؟ هو الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال أهل العلم: خالق السبب التام خالق للمسبب، بمعنى أنه ما يَنتجُ من أسباب فهو من خلق الله عزّ وجلّ بهذا الاعتبار، هذا وجه كون أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد وأظنها إن شاء الله واضحة.

– سؤال: الأمر الثاني ممّا سأل عنه بعض الأخوة هو الأخذ عن أهل البدع، وإن شاء الله في آخر هذه الرسالة سوف يأتي معنا بحث هجران أهل البدع وبعض الأحكام فنذكرها إن شاء الله في موضعه بإذن الله عزّ وجلّ، هذا ما أذكره ولعله إن شاء الله في الغد نأتي بهذه الأسئلة التي سألها بعض الإخوة.

– سؤال: ؟؟؟

جواب: لا هذا لا يُقال، يُقال: إن الله عزّ وجلّ خالق أفعال العباد بهذا الإطلاق، أمّا التفصيلات فلا داعي لها، نفس فعل هذا العبد أو كذا لا، إنما يُقال: إن الله عزّ وجلّ خالق أفعال العباد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(١)، وجه كون أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد أن يُقال: إن فعل العبد لا يتأتّى إلّا بقدرة وإرادة، وهذه القدرة وهذه الإرادة هي من خلق الله عزّ وجلّ، من الذي جعلك مستطيعاً؟ من الذي جعلك مُريداً؟ هو الله سبحانه وتعالى، ولهذا أفعال العباد – هي من هذا الوجه – هي من خلق الله عزّ وجلّ، وخالق السبب التام خالق للمسبب، فالسبب التام لأن الأشياء لا تتأتّى إلّا بتحقق شروط، ذكرنا هذه الشروط وانتفاء موانع فمن الذي يملك؟ هو الله سبحانه وتعالى يملك تحقق هذه الشروط ويجعل هذه الموانع تنتفي هو الله سبحانه وتعالى، وتكلّمنا عن الأسباب وقلنا: إن السبب لا يكون مؤثرا إلّا بتحقق الشروط وانتفاء الموانع، وهذا ليس للعبد وإنما لله سبحانه وتعالى، والعبد مأمور بأن يفعل السبب، لكن نفع هذا السبب لا بدّ له شروط والإنسان قد يدرك هذه الشروط وقد يأتي بها وقد لا يأتي بها، ولا بدّ له من انتفاء هذه الموانع حتّى يتحقق هذا الشيء، ومثّلنا لذلك بأمثلة، فعلى سبيل المثال أسباب السلامة وأسباب العافية يتعاطها الإنسان ويعلم أنها لا تكون نافعة إلّا بتحقق الشروط وانتفاء الموانع، من الذي يملك هذا؟ هو الله سبحانه وتعالى على وجه الاستقلال.

(١) الصافات:٩٦.

فَصْلٌ

وَيَجِبُ اَلْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَصَحَّ بِهِ اَلنَّقْلُ عَنْهُ فِيمَا شَاهَدْنَاهُ، أَوْ غَابَ عَنَّا، نَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَا عَقِلْنَاهُ وَجَهِلْنَاهُ وَلَمْ نَطَّلِعْ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ، مِثْلَ حَدِيثِ اَلْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ وَكَانَ يَقَظَةً لَا مَنَامًا، فَإِنَّ قُرَيْشًا أَنْكَرَتْهُ وَأَكْبَرَتْهُ، وَلَمْ تُنْكِرِ اَلْمَنَامَاتِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَلَكَ اَلْمَوْتِ لَمَّا جَاءَ إِلَى مُوسَى عليه السلام لِيَقْبِضَ رُوحِهِ لَطَمَهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ عَيْنَهُ(١).

وَمِنْ ذَلِكَ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ مِثْلُ خُرُوجِ الدَّجَّالِ، وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَيَقْتُلُهُ، وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا صَحَّ بِهِ النَّقْلُ.

وَعَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ حَقٌّ، وَقَدْ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْهُ، وَأَمَرَ بِهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ.

وَفِتْنَةُ الْقَبْرِ حَقٌّ، وَسُؤَالُ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ حَقٌّ، وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ، وَذَلِكَ حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ عليه السلام فِي الصُّورِ: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾(٢).

.....

هذه الجمل التي ذكرها الموفق ابن قدامة رحمه الله تعالى وله من اسمه نصيب رحمه الله تعالى هي قواعد وأصول كليّة في منهج أهل السُّنَّة وموقف أهل السُّنَّة من النصوص الشرعية وممّا جاء عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا قال الموفق رحمه الله: ويجب الإيمان بكلّ ما أخبر به النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وصحّ به النقل عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما شاهدناه أو غاب عنّا، نعلم أنه حقّ وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه، ولهذا يُقال: إن أهل السُّنَّة والجماعة يُسلّمون بما جاء في النص من أمور الغيب، ولا يدخلون بذلك بنوع من أنواع التأويل، لا يؤولون النصوص ولا يحرّفونها بل يؤمنون بها على ظاهرها، فكلّ ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلّى الله عليه وسلّم من أمور الغيب يؤمنون بها - ما يعقلون منها وما لا يعقلون -، ولهذا قدّمنا لكم أن النصوص تأتي بما تُحار به العقول لا بما تُحيله العقول، وهذا لا يكون الإيمان إلّا به، فمن لم يسلّم بما جاء به الله عزّ وجلّ أو ما ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه أو ما جاء عن رسول الله صلّى الله عليه

(١) صحيح البخاري (١٣٣٩).

(٢) يس: ٥١.

وسلّم لم تثبت على الإيمان قدمُه بل ربّما – والعياذ بالله – زلّت به قدمه عن دين الإسلام، والإسلام لا يكون إلّا بالتسليم وهذا أمر عظيم، والإنسان ينظر فيما يقع في قلبه لا بدّ أن يُسلّم لِمَا جاء عن الله ولا يدخل فيه بتحريف ولا بتأويل بل يُسلّم، ولهذا ذكرنا أن هذه القاعدة مهمّة والنصوص تأتي بما تُحار به العقول لا بما تُحيله العقول، أضف إلى هذا أن العقل –قد ذكرته لكم في مباحث القضاء والقدر– أن عقل الإنسان قاصر، وأن عقل الإنسان قد يستحيل الشيء في وقت ولا يتصوره؛ ثمّ يأتي زمان ووقت فيقع ما كان يستحيل ألّا يقع ولا يتصوّر ذلك بعقله أليس كذلك؟ وهذا يدلّك على أن عقل البشر محدود، وقد ذكرنا لك فيما سبق محدودية عقل البشر، فمن لم يُسلّم بمحدوديّة عقل البشر ربّما يتحكّم بالنصوص أو يصير النص عنده موضع امتحان، لا أنه يمتحن قلبه بما جاءت به النصوص، ولهذا أنا أذكر لك مثال من هذا – تعرف ذلك من نفسك – هذه المخترعات الحديثة التي انتشرت بين الناس؛ هل هذه المخترعات وهذه الأجهزة هل كان عقل الإنسان – عقلك أنت يا عبد الله؛ أنت يا من عايشت هذه الأجهزة في هذا الزمان – هل لو قدّمنا الزمان أو رجعنا إلى الزمان قبل مثلا عقدين من الزمان؛ هل تتصوّر أن هذه المخترعات سوف تكون؟ لا يمكن أن تتصوّر، هذا بل ربّما تقول: مستحيل أن يكون هذا، أليس كذلك؟ يعني قبل عشر سنوات أو قبل خمسة عشر سنَة كان الناس يستحيلون أو يستصعبون الأمر غاية الصعوبة؛ أن يكون الإنسان يتكلّم بهذا الجهاز –وهو جهاز الجوّال– ثمّ الصوت والصورة، حتّى صار الصوت والصورة الآن شيء دَارِج ولا يفكر به الإنسان بل ربّما يهمله، بينما قبل سنوات قد يكون الإنسان مستصعبا الأمر، وقبله بسنوات يستحيل هذا الأمر، هذا يدلّك على ماذا؟ على أن العقل البشري قد يستحيل الشيء في وقت دون وقت، ولهذا موقفك من النصوص –سواء عقلتها أم لم تعقلها؛ أو تصورتها أم لم تتصورها– موقفك من النص التسليم، ولهذا يأتي معنا –وهذه ذكرها الموفق رحمه الله تعالى قصة الإسراء والمعراج–، أمّا الإسراء –وهو ذهاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من مكة إلى بيت المقدس في ليلة– كانت قريش ترى أن هذا الأمر –ليست قريش وحدها بل كل من كان في ذلك الزمان– يستحيل عقلاً –قبل ألف وأربعمائة سَنَة– يستحيل عقلاً –من عقول الإنسان– يستحيله عقلاً أن ينتقل الإنسان من مكة إلى بيت المقدس في ليلة، لكن الآن في الزمان هذا بعد ألف وأربعمئة سَنَة هل هذا مستحيل عقلا؟ كيف ذلك؟ هذا يدلّك على أن العقل البشري –كما ذكرت لك–

يستحيل الشيء في وقت دون وهذا يدلّ على محدودية عقل الإنسان، فإذاً موقفك من النصوص أنك تُسلّم لها سواء عقلتها أو جهلت هذا ولم تعرف له مثال موقفك الإيمان، وقد ذكر الموفق رحمه الله تعالى مسائلا؛ أوّل ما ذكر مسألة الإسراء والمعراج ثمّ ذكر بعد ذلك مسألة قصّة موسى مع ملك الموت.

المسألة التي تليها وقد ذكرها الموفق مسألة الإسراء والمعراج وتحت هذه المسألة نقاط مهمّة نُجمل فيها اعتقادَ أهل السُّنَّة، فأهل السُّنَّة يعتقدون أن الإسراء والمعراج لم يكن إلّا مرّة واحدة – وإن كان الخلاف في هذه النقطة سائغ – لكن أكثر أهل السُّنَّة لا يرونه إلّا وقع مرّة واحدة.

النقطة الثانية: أن الإسراء يُراد به الذهاب بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من مكة إلى بيت المقدس ليلاً – يسمى إسراء –، وأمّا المعراج فالمراد به هو العروج بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى السّماء.

النقطة التي تلي هذه النقاط الثلاث: الصحيح من أقوال أهل العلم أن الإسراء والمعراج وقعا قبل الهجرة، واختلف أهل العلم في تعيين هذا الوقت على أقوال، وأكثرهم على أنه لم يقع في رجب، وفي هذا ردّ على طوائف من أهل البدع الذين يحتفلون بالإسراء والمعراج في ليلة السابع والعشرين من رجب.

النقطة الخامسة: أن الإسراء والمعراج وقعا بروح النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجسده، حدث الإسراء والمعراج روحاً وجسداً للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، يعني أُسري به وعُرِجَ به إلى السماء بروحه وجسده عليه الصّلاة والسّلام ولم يقل أحدٌ من السّلف: إنّه كان مناماً، وإنّما اختلفوا هل أسري بروحه وجسده أم بروحه فقط؟ الخلاف بين السّلف أو في دائرة السّلف هل كان بروحه أم بروحه وجسده؟ والصحيح أنّه بروحه وجسده عليه الصّلاة والسّلام، وأمّا من قال: إنّ السّلف قالوا بأنّ الإسراء والمعراج كان مناماً فهذا غلط على منهج السّلف ولم يقل به أحدٌ من السّلف، في الإسراء والمعراج فُرضت الصّلاة على النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما في الحديث، وفيها مراجعة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لربّه، وفي الإسراء والمعراج قابل النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم الأنبياءَ كما في حديث المعراج الطويل.

كذلك الصحيح من أقوال أهل العلم ومن أقوال السّلف أنّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يرَ ربّه ليلة المعراج، كلّ هذه مسائل طويلة الذيول ولكن هي اختصرناها على جمل، لأن بحث هذه المسائل قد يطول في تفصيلها، والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يرَ ربّه ليلة المعراج.

المسألة الّتي تليها وهي مسألة مهمة: أنّ الموفق رحمه الله قال: وكان يقظةً لا مناماً؛ فإنّ قريشاً أنكرته وأكبرته ولم تنكر المنامات، يريد الموفق رحمه الله تعالى الردّ على من قال بأنّ الإسراء والمعراج كان مناماً، فإنّه لو كان مناماً لم يكن في ذلك إعجازٌ، ولو كان مناماً لما أنكرته قريش، أليس كذلك؟ الإنسان لا يُلام في حال المنام، له أن يتصور وأن يقول رأيت في المنام أنّي فعلت كذا وفعلت كذا؛ هذا لا يستنكر عليه، وهذا ممّا يدلّك على أنّه من نسب إلى السّلف القول بأنّه كان مناماً فقد غلط على منهج السّلف.

المسألة الّتي تليها: وهي قول الموفق: ومن ذلك أنّ ملك الموت لمّا جاء موسى ليقبض روحه لَطَمَهُ ففقأ عينه، أهل السُّنَّة يؤمنون بما ورد في النصّ ولا يردّون ذلك إذ صح عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولا يُفرِّقون في دلالات النّصوص أو في طريق ثبوت النصّ بين المتواتر والآحاد في القبول بل يقبلون هذه النّصوص، سواء في العلميّات أو العمليّات، العلميّات يعني الاعتقاد، أو في مسائل فروع الشريعة، يتقبلون الحديث عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذ صحّ سنده عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولا يُفرِّقون، بل القول في التفريق في القبول بين الآحاد وبين المتواتر هذه بدعة أحدثت بعد القرون المفضلة وبعد المائة الثالثة – كما بيّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية –، ولهذا لا حرج أن تُفَرِّق في النّصوص من جهة ثبوت النّص؛ تقول النّص مثلاً هذا الحديث ثبت متواتراً وذاك آحاد على سبيل الاصطلاح، أمّا في مسألة القبول – قبول النّص – فأهل السنّة لا يفرّقون؛ سواءٌ ثبت هذا النّص عن طريق الآحاد أو كان متواتراً لا يفرّقون في القبول، ومن ذلك هذا الحديث الذي جاء عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا طائفة من أهل البدع يقولون: إنّ أحاديث الآحاد لا تفيد العلم؛ فلا تقبل في العلميّات يعني في الاعتقاد، وإنّما تقبل في العمليّات! وهذا خطأ وانحراف عن منهج أهل السُّنَّة، أهل السُّنَّة إذا صح الحديث تقبّلوه سواءٌ كان هذا الحديث عن طريق الآحاد أو من طريق المتواتر، ولهذا ممّا يؤمنون به ما جاء في النّص أنّ «مَلَكَ الموت جاء إلى موسى عليه الصلاة والسلام في صورة إنسان إلى نبيّ الله موسى ففقأ عينه، فرجع الملك إلى الله سبحانه وتعالى وقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموت؛ فردّ الله عليه عينه، وقال: ارجع إليه وقل له يضع يده على متن ثورٍ فله بما غطت يده بكل شعرة سَنَة. فقال موسى: ثم ماذا؟ قال: ثُمَّ الموت. قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر» هذا الحديث ثابتٌ في الصحيحين عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما أورده

الموفق رحمه الله تعالى لأنّ بعض المبتدعة أنكره؛ فجعله مثالا على القاعدة السابقة وهو الإيمان بكلّ ما أخبر به النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وصحّ به النقل بما شاهدناه أو غاب عنّا نعلم أنّه حقٌّ وصدقٌ، هذا موقف العبد المسلم المسلّم لَمَا جاءت به النّصوص، ولهذا هذا مثال والأمثلة كثيرة، فالكلام في أحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والطّعن فيها هذا يتأتّى من طوائف:

الطّائفة الأولى: أهل النفاق، أهل النفاق الّذين يطعنون في أحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تشكيكاً للنّاس في إيمانهم وفي دينهم، وهؤلاء كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1] هؤلاء الّذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، هؤلاء يطعنون في أحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تشكيكاً للنّاس في دينهم.

والطّائفة الأخرى ممّن تسلك هذا المسلك: أهل البدع، فإنهم يطعنون في الأحاديث الّتي لا توافق أهواءهم، ولهذا قد تجتمع الطّائفتين في ردّ أحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أهل النفاق وأهل الأهواء وأهل البدع، ولهذا تجد أنّهم مثلاً قد يجتمعون على مسائل معيّنة ويذكرونها، أنا الآن أذكر أمثلة عامّة ولا أطبقها على أشخاص لكن تسمع بين الفَينة والأخرى من يتعرض لأحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالطّعن، أو بالتشكيك، كلّ ذلك مَوْرِدُهُ عدمُ التسليم لَمَا جاء عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا هذا مثال لَمَا ذكره ابن قدامة رحمه الله تعالى في زمانه أنّه كَثُرَ من أهل البدع ومن أهل الإلحاد ردُّ أحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، طبعاً لا إشكال في الحديث، الحديث على ظاهره ولا إشكال فيه، لأنّه إذا جمعت هذه الروايات أفاد ما يزيل الشبهة، مَلَكُ الموت جاء في صورة إنسان - والملك يتشكّل - وقد جاء إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم جبريلُ في صورة رجل، وكانت من الأحوال الّتي جاء فيها جبريل إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يأتي في صورة رجل، وقد يأتي في صورة رجل حسن الوجه كما كان جبريلُ عليه السّلام[2] يأتي في صورة دحية الكلبي، فكون أنّ المَلَكَ يتشكّل ويأتي في صورة رجل؛ هذا معلوم من الشريعة، وأمّا لطمُ موسى لَمَلَكِ الموت؛ فقال أهل العلم: إنّ هذا الملك لمّا دخل في صورة إنسان دخل على موسى عليه السلام في بيته فلطم

(١) محمد: ٣٠.

(٢) في الأصل (النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم) وهو سبق لفظ كما لا يخفى من السياق.

عينه لأنّه دخل بغير إذنٍ من صاحب البيت، إجابات معروفة عند أهل العلم، ثمّ إن الّذي فُقِئَتْ عينُه هو الملك في صورة إنسان، وجاءه لأنّ الأنبياء قبل أن تقبض أرواحهم يخيّرون كما ثبت ذلك عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أيضاً، فلا إشكال في الحديث بحمد الله، ولهذا هذا الحديث مِحنة لأهل البدع يمتحنون به، ولهذا قال ابن حبّان لمّا جاء يذكر هذا الخبر: ذكر خبرٍ شُنّعَ به على منتحلي سنن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم مِن مَن حُرِمَ التوفيقَ في إدراك معناه، يعين شنّعوا على أهل السُّنَّة لإيراد هذا الحديث، وقال الخطّابي وهو من الشافعيّة: هذا حديث – حديث قصة الملك مع موسى – هذا حديثٌ يطعن فيه الملحدون وأهل البدع ويغمزون في رواته ونقلته، نقلت هذا الحديث، وقال المازري من المالكيّة: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث، فهو محنة لهم، وممّن أنكره من المتأخرين وهم كُثُر ولكن أذكر على سبيل المثال؛ ممّن يعني أثار زوبعة في الموقف الشرعي من النصوص الشرعية الغزاليُّ المتأخر له كتاب (السُّنَّة النَّبويّة بين أهل الفقه وأهل الحديث) فأنكر هذا الحديث وحاول أن ينكره بتأويل سامج وبذوق فاسد، فهذا الحديث محنة لأهل البدع ، وليس هذا هو الحديث الوحيد بل أحاديث كُثُر، محنة لأهل البدع، إمَّا لأنّه لا يوافق أهواءَهم أو لأنّهم – والعياذ بالله – لم يثبتوا على التّسليم للنّصوص، عندهم والعياذ بالله في قلوبهم مرض، ولهذا يشرقون بمثل هذه النّصوص، ولهذا حديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حينما أمر العُرَنيين بأن يشربوا من أبوال الإبل وألبانها[1]، طائفة من المعاصرين الآن تسمعون ببعض الكتابات ممّن يردّ هذه الأحاديث بزعمه أنّها لا توافق الفطرة السويّة ويلحق به حديث «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»[2]، ولهذا ربّما اجتمعت هذه الطّوائف على ردّ مثل هذه الأحاديث، وإذا صحّ الحديث عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فهو على القَبول وعلى العين والرّأس لا كما يقول هؤلاء، لا نطيل في بحث هذه المسألة لكن يكفي هذه الجمل الّتي ذكرناها.

ثمّ قال الموفق رحمه الله تعالى ومن ذلك أشراط السّاعة، الأشراط يعني العلامات، علامات السّاعة، والسّاعة في اللّغة يقال: الوقت أو الحاضر من الوقت، وشرعاً هو يوم القيامة، يعين علامات يوم القيامة، أشراط السّاعة علامات قُرْبِ يوم القيامة، فأشراط السّاعة: العلامات الدّالة على قُرْبِ يوم القيامة، وقد جاء

(١) صحيح البخاري (٢٣٣).

(٢) صحيح مسلم (١٨٤٧).

هذا الاصطلاح في كلام الله عزّ وجلّ – هذه التسمية بالأشراط – قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1] يعني أشراط الساعة علامات قُرْبِ قيام الساعة، ذكر الموفق رحمه الله تعالى أمثلة لأشراط الساعة، طبعاً أشراط الساعة يُقسّمها أهل العلم إلى علامات صغرى وعلامات كبرى، أمّا العلامات الصغرى فأكثرها قد تحقق، وأمّا العلامات الكبرى فهذه لا تكون إلّا لقرب يوم القيامة، ومثّل الموفق رحمه الله تعالى أو ذكر شيئاً من هذه الأشراط الكبرى ومن ذلك خروج الدّجال آذن الله من فتنته، ولهذا خروج الدّجال فتنة عظيمة، وما من نبيّ إلّا حذّر أُمته من هذا الرجل الدّجال الكذاب، فالدّجال يكون لقرب قيام الساعة يبعثه الله عزّ وجلّ ابتلاءً وفتنة، وما من نبي إلّا وقد حذّر أُمته من فتنته، ولهذا شرع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأمّته التعوذ من فتنته دُبُر كل صلاة كما صحّ في ذلك الخبر[2]، والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إن يخرج وأنا فيكم فإنا حجيجه دونكم، وإن يخرج – وأنا لست فيكم – فالله خليفتي على كل مسلم»[3] هذا من حرص النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أمته هذا الدعاء؛ أنّ الله يخلف النَّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم على كل مسلم، ولهذا أوصانا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالتعوذ من فتنته، هذا الدّجال رجل كذّاب يخرج في آخر الزمان ويدّعي الربوبية، وخروجه ثابت في السُّنَّة وبإجماع أهل العلم، وقد ذكرت لك أنّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ منه في دبر كلّ صلاة، وفتنته أعظم فتنة، وهو يخرج بين الشام والعراق كما صحّ في ذلك النص[4]، وأتباعه اليهود والأعراب والنساء، أما سرعته فقال عنه الرسول صلّى الله عليه وسلّم كالغيث استدبرته الريح[5]، بلدتان لا يدخلهما الدّجال مكة والمدينة[6]، فإنّ الله عزّ وجلّ جعل ملائكة تحرس مكة والمدينة لا يدخل الدّجال بسبب وجود تلك الملائكة، وأخباره كثيرة والروايات في ذلك كثيرة لكن نذكر الجمل، مدّة بقاء هذا الدّجال – أعاذني الله وإياكم منه – في الأرض قال

---

(١) محمد: ١٨.

(٢) صحيح البخاري (٨٣٢).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

(٥) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

(٦) صحيح البخاري (١٨٨١).

النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أربعون يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع وباقي أيامه كسائر أيامنا»[١]، ولهذا الصحابة رضوان الله عليهم لمّا حدّثهم النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بهذا الحديث ما قالوا كما يقول بعض المتأخرين كيف يكون يوم كسنة؟ انظر إلى موقف الصحابة من النص؛ أرأيت يا رسول الله هذا اليوم الذي كسَنَة أتكفينا فيه صلاة واحدة؟ قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا ولكن اقدروا له قدره»[٢]، ومن هذا أخذ بعض الفقهاء حكماً شرعيّاً وهو أنّ أهل بعض المناطق في شمال الأرض أو جنوبها - ممن لا يتعاقب عليهم الليل والنهار - أنهم يُقدِّرون الأوقات بأقرب بلد يتعاقب فيها الليل والنهار وهذا من التقدير يقدّرونه قدرا، وهذا اليوم كسَنَة كما جاء في الحديث والله عزّ وجلّ على كلّ شيء قدير سبحانه وتعالى، وصفة هذا الدّجال أنه أعور عينه اليمنى، ويدّعي أنه الله؛ وأنه ربّ العالمين، ومعه جنة ونار كما جاء في ذلك، فجنته نار، وناره جنة[٣] على الحقيقة، فمن قذف - ممن لم يتبعه ولم يؤمن به - قذفه في النار في ظاهر ذلك أنه في النار وهو يقع في الجنة، ولهذا هو أعور عينه اليمنى مكتوب بين عينيه في رواية على جبينه مكتوب كافر، في رواية كاف فاء راء، يقرأه المؤمن أو يقرأ هذا المكتوب المؤمن سواء كان كاتبا أو غير كاتب[٤] يعني متعلّم يقرأ أو لا يقرأ، ما الواجب تجاه هذا الدّجال - أعاذني الله وإياكم منه -؟ الواجب تجاهه أوصى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «من سمع به فلينأ عنه -يعني يبتعد عنه- فإنّ الرجل يأتيه وهو يعلم أنه كاذب» مما يُبعث معه من الفتن؛ أعاذنا الله وإياكم من الفتن، وهذا أصلٌ عند أهل السُّنَّة جعلوا عند هذا الحديث أصل من أصول أهل السُّنَّة أنّ الإنسان في باب الفتن أو في وقت الفتن ينوء ويبتعد لا يلج، لأنّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «من سمع به فلينأ عنه»[٥] وهذه من أسباب العصمة من الفتن، ولهذا من أسباب العصمة من الفتن اعتزال الفتن كما أخبر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتتبع بها

(١) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٣٤).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٣٤).

(٥) صحيح. أبو داود (٤٣١٩). صحيح الجامع (٦٣٠١).

شَعَفَ الجبال ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن»[1] فالواجب في الفتنةِ الفرارُ لا الولوجُ ولا القرب بل الابتعاد والاعتزال، لهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «من سمع به فلينأ عنه»، كذلك من أسباب العصمة من الدّجال التّعوذ بالله عزّ وجلّ منه دبر كل صلاة، وجاء في الخبر أنّ من أسباب العصمة أن يقرأ مَنْ قابله أو قَرُبَ منه فواتحَ سورة الكهف في رواية العشر آيات الأُوَّل من سورة الكهف[2]؛ فهي عصمة من فتنة الدّجال، ولهذا الواجب على المسلم في أيام الفتن أن يبتعد عنها وينأ عنها، كذلك مما يذكر في هذا الباب مما يفيد الإنسان أنّ الإنسان يكون في الفتن بعيدا وأن يكون متأخرا لا متقدما، أن يكون الآخر لا الأول، وليس في فتنة المسيح الدّجال بل في عامّة الفتن، أن تكون آخراً لا أولا، ولهذا من علامات الساعة أو مما جاءت به الأخبار أنه يخرج في آخر الزمان المهديُّ، وهو رجل من آل بيت النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوافق اسمُه اسمَ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم واسمُ أبيه اسمَ أبي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم[3] وذكر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في أحاديث وصفِ المهدي أشياءَ وأحاديث وصفات لا داعي للاستطالة في ذكرها، لكن أحاديث المهدي في مجموعها هي صحيحة، ولكن لو نظرت إليها استقلالاً لا تخلو من مقال، لكن المهدي مما ذكر أهل العلم أنه سوف يكون في آخر الزمان، هذا المهدي الذي يخرج في آخر الزمان ويصلحه الله تعالى في ليلة كما جاء في الخبر؛ ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا[4]، هذا المهدي كَثُرَ في زمان الأئمة الكلامُ فيه، فهذا سفيان الثوري – وهو من أئمة السلف – قال له رجل: أَكْثَرَ الناسُ من ذكر المهدي؟ يسأل سفيان، فماذا قال له سفيان الثوري؟؟ قال له: إذا خرج ومرّ بباب بيتك فلا تتبعه حتى يجتمع الناس عليه، هذا في الأصل الأول: الإنسان يكون متأخر في الفتن، وثانياً أنّ أمر الإمامة أمرٌ عظيم؛ ولا يجوز للإنسان أن يحلّ عقد الإمامة لإمامٍ قد بايعه إلّا إذا زال وصف الإمامة عن ذلك الإمام، إما لتغلّب الآخر عليه، ولهذا قال أهل السُّنَّة بجواز إمامة المتغلّب؛ واضح؟ جواز إمامة المتغلّب، من غلب الناس بسيفه وقهرهم وجب الانقياد له وإمامته شرعيّة، وأحكامه نافذة، هذا يستفاد من كلام السلف ومن كلام سفيان الثوري رحمه الله تعالى، قال:

---

(١) صحيح البخاري (١٩).

(٢) صحيح مسلم (٨٠٩).

(٣) صحيح. أبو داود (٤٢٨٢). الصحيحة (١٥٢٩).

(٤) صحيح. أبو داود (٤٢٨٢). الصحيحة (١٥٢٩).

إذا مرّ بباب بيتك فلا تتبعه حتى يجتمع الناس عليه، نستفيد من مقولة سفيان رحمه الله أمرين، الأمر الأول: أنك تكون في باب الفتن آخرا ولا تكون أولا، ثانياً أنّ مسألة الإمامة لماذا؟ لأنه أصلاً هو حينما يخرج - المهدي - ورد في الحديث أنه يلوذ بالبيت وإلى غير ذلك، ولهذا تعلم من هذا أمورا أن طوائف انتحلوا أنهم هم المهدي، ولهذا عظمت الفتنة، الإنسان إذا لم يكن على منهج أهل السُّنَّة يقع، لهذا من الطوائف المتأخرين يعني مما عاصرناه ممن خرج في العام ألف وأربعمئة من ادّعى أنّ معهم المهدي وادّعوا أنهم تواطأت الرؤيا على أنّ فلان هو المهدي والعياذ بالله، وقعت بسبب ذلك فتنةٌ في حرم الله الشريف في بيت الله المعظّم.

ثم ذكر من أشراط الساعة نزول عيسى عليه الصّلاة والسّلام، أهل السُّنَّة وأهل الإسلام يؤمنون بأن عيسى نبي الله رفعه اللهُ عزّ وجلّ إلى السماء وأنه سوف ينزل في آخر الزمان، لهذا قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾[1] يعني عيسى وفي قراءة ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ عَلَمٌ يعني علامة على قرب الساعة، وقد أجمع المسلمون على أنه ينزل آخر الزمان، عند المنارة البيضاء في دمشق واضعاً كفيه على أجنحة ملكين كما صحّ بذلك الخبر[2]، وهذا عيسى عليه الصّلاة والسّلام نبيّ الله يحكم إذا نزل بشريعة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم محمد بالإسلام ويقتل الدّجال، يأتي بعد الدّجال فيقتل الدّجال بباب لدّ[3] هذه بلدة موجودة الآن من قرى فلسطين ويكسر الصليب ويضع الجزية[4]، يضع الجزية يعني لا يقبل إلّا الإسلام ويقتل الخنزير كما جاء بذلك الخبر، ثم يتوفاه الله تعالى ويصلي عليه المسلمون، وبعد قتل الدّجال جاء في الخبر أنه يمكث أربعين سَنَة، وثَمَّ أحاديثُ كثيرة جداً ربما قد يطول المقام في ذكرها.

المسألة التي ذكرها بعد نزول عيسى ابن مريم الذي يقتل الدّجال؛ خروج يأجوج ومأجوج، وهما أمتان من بني آدم موجودتان الآن ويخرجون في آخر الزمان، ثبت خروجُهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾[5] وقت خروجهم هو

(١) الزخرف: ٦١.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

(٤) صحيح البخاري (٢٢٢٢).

(٥) الأنبياء:٩٦.

وقت نزول عيسى عليه الصّلاة والسّلام، ولهذا جاء في الخبر أنّ الله تعالى يوحي إلى عيسى إذا خرج يـأجوج ومأجوج؛ يوحي الله عزّ وجلّ إلى نبيه عيسى أن حَرِّزْ عبادي إلى الطور، يعني إنأً بهم إلى عن هاتان القبيلتـان أو الأمتان من بني آدم يأجوج ومأجوج، جاء في الأخبار عنهم أشياء كثيرة جداً ولا يدان لأحدٍ في قتالهم(١)؛ لا قدرة لأحد بقتالهم فيهلكهم الله عزّ وجلّ فيدعو عليهم نبي الله فيهلكهم الله عزّ وجلّ بآفةٍ سماوية.

المسألة التي ذكرها بعد ذلك خروج الدّابة، والدّابة تُطلق على كل ما دبّ عـلى الأرض، والمـراد بالدّابـةِ الدّابةُ التي يخرجها اللهُ عزّ وجلّ قُرْبَ قيام الساعة، ولهذا جاء ذكرها في كلام الله عزّ وجلّ ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾(٢) وليس في النّص مـا يـدل على مكان خروجها، ثمَّ أحاديثُ لكن لا تصح، ولا يعلم صفات هذه الدّابّة إلّا الله سـبحانه وتعـالى، وإنّـما ورد في وصفها أحاديثُ لا تخلوا من مقال، المؤمن يؤمن أنّها دابّة تخرج في آخر الزمـان تُنـذر النّـاسَ بقـرب الهلاك و العذاب عليهم، ورد في الحديث أنّها تسمُ النّاس، المؤمن تَسِمُهُ على خرطومه والكافر كـذلك(٣) إلى غير ذلك من الأخبار الّتي ربّما يطول المقال في ذكرها، لكن هذا على وجه الإجمال.

ثمّ قال الموفق رحمه الله تعالى: وطلوع الشّمس من مغربها، طلوع الشّمس من مغربها هي آخر علامـات السّاعة الكبرى وهي ثابتة في كتاب الله عزّ وجلّ كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾(٤) وقد قال أهل العلم وأهل التفسير: إنّ المراد بذلك طلوع الشّمس من مغربها، وهذا الطّلوع – إذا طلعت الشّمس من مغربها – فذاك علامةٌ على خراب العـالم، وأنّ هذه النّواميس التي ضُبط بها هذا العالم بدأت تنحلّ وتنفك وتضطرب كما أخبر الله عزّ وجلّ في كتابـه، وبها يغلق باب التوبة ولا يقبل الله عزّ وجلّ توبة من تاب.

ثمّ ذكر الموفق رحمه الله تعالى عذابَ القبر ونعيمه وفتنة القبر وسؤال منكر ونكير، وهذا ممّا يؤمن به أهل السنّة والجماعة، وأصل إيراد الموفق رحمه الله تعالى لهذه المسائل لأجل أن طائفة من أهل البـدع مـن الجهميـة

(١) صحيح مسلم (٢٩٣٧).

(٢) النمل:٨٢.

(٣) ضعيف. ابن ماجه (٤٠٦٦). ضعيف الجامع (٢٤١٣).

(٤) الأنعام: ١٥٨.

والمعتزلة والفلاسفة ينكرون عذاب القبر وسؤال الملكين والفتنةَ بهما ويتأوَّلون ذلك بتأويلات فاسدة، وممّا لا بدّ من تقريره في بحث هذه المسائل أن يُقال: إن عذاب القبر ونعيمه أمر غيبي، يعني غائب عنّا، وهذه الأمور مجالها الاعتقاد والتسليم؛ لأنها لا تُدرك بالنظر والاعتبار – ليس لها مثال – ولا تدركها العقول على وجه الاستقلال، بل تُحار فيها فيجب الإيمان بها، والشريعة كما قد قدّمنا تأتي بما تُحار به العقول لا بما تُحيله العقول، ولهذا المؤمن يؤمن بعذاب القبر وأن الإنسان إذا قُبر إمّا منعّم وإمّا معذّب – نسأل الله السلامة والعافية –، وكون الإنسان لا يرى ذلك ليس في ذلك شيء، الله سبحانه وتعالى قسّم الدُوْر – دار الدنيا غير دار البرزخ – فالله عزّ وجلّ قطع اتصال أهل الدنيا بمن هم في دار البرزخ، لأن الدور كما تعرفون ثلاثة: دار الدنيا ودار البرزخ والدار الآخرة، وأهل العلم يذكرون من باب الاستئناس – وإلّا الأصل في هذا الباب أن الإنسان يُسلّم – من باب الاستئناس يقولون إنه بالشاهد يعني أنت بالشاهد يعني فيما تشاهده أن الإنسان قد يكون نائم بجوارك وهو منعّم على وجه الرؤية يصير يتنعم وأنت لا تشعر به أو قد يكون معذّب في رؤياه ممّا يكره ممّا يرى في المنام، وهو بجوارك وأنت لا تحسّ به، هذا في الشّاهد، فما بالك بما غاب عنك من أمر الوحي؟ عذاب القبر ونعيم القبر أدلّته متواترة معنىً أو لفظاً ومعنى.

المسألة الّتي تبحث في هذا أن يقال: إنّ عذاب القبر اسمٌ لما بعد الموت اصطلاح لَما بعد الموت، وقيل عنه: عذاب القبر تغليباً على وجه التغليب، لأنّ غالب النّاس يُقْبَرُون، وإلّا هو واقعٌ سواءٌ قُبِرَ الإنسان أم لم يُقْبَر، وهذا العذاب – أعني عذاب القبر ونعيمه – يتناول الرّوح والجسد كما دلّت على ذلك الأدلّة الصحيحة، وإن كان تناولُه للرّوح هو الأصلَ والبدن تبعٌ، لماذا؟ لأنّ الإنسان في حال الدنيا فيه روح وجسد والأصل في النعيم في الدنيا في ما يتنعم به الإنسان هو الجسد والرّوح يأتي تبع، وأمّا في دار البرزخ فالأصل فيه الرّوح والبدن تبع، يعني يعذّب وينعّم بروحه وجسده، لكن في دار البرزخ الأصل فيه الروح، لأنّ البدن مصيره إلى البلاء.

ممّا يتعلق بعذاب القبر ونعيمه فتنةُ القبر وسؤال الملكين، قال الموفق رحمه الله تعالى: وسؤال منكر ونكير حق، منكر ونكير ملكان يأتيان الميّت ويسألانه عن ربّه وعن دينه وعن نبيّه، هذه الثلاثة الأسئلة ولأجلها ألّف الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب الأصولَ الثلاثة، وهذه هي الأسئلة الّتي يسأل عنها الإنسان،

ولهذا الإنسان يمتحن على عقيدته وعلى اعتقاده في قبره، جاء في النّص وصفهما أنّهما أسودان أزرقان، وأنهما ينتهران المسؤول[١]، أول ما يُقبر الإنسان يأتيانه منكر ونكير، فأمّا المؤمن فجاء في النّص أنّه يجيب؛ من ربك؟ يقول: ربيَّ الله، من نبيّك؟ فيقول: محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأمّا الكافر والمنافق فإنّه كما جاء في الخبر يقول: هاه هاه؛ لا أدري؛ سمعت النّاس يقولون شيئاً فقلته.[٢]

ثمَّ قال الموفق رحمه الله تعالى بعد هذه المسائل: والبعث بعد الموت حق، هنا مسألة ذكر الموفق رحمه الله تعالى البعثَ، ذكر البعث، وهو أنّ الميت إذا مات يبلى إلّا عظماً واحداً فإنّ الله سبحانه وتعالى يبقيه، طبعاً هذا الحكم هو على سائر بني البشر، أمّا الأنبياء فإنّ الله قد حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما صحّ بذلك الخبر، فالإنسان يبلى إلّا عظماً واحداً فيه هو عجب الذنب[٣]، عجب الذنب بفتح العين وسكون الجيم، ويقال: عجم بالميم عجم، وهو ما يسمّى باللّغة الدارجة هو رأس العصعص، العصعص هذا يسمّى عجب الذنب، فإنّ الإنسان مصيره إلى البلاء إلّا من أراده الله سبحانه وتعالى بإكرامه فأبقى جسده، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة كما صحّت بذلك الأخبار، وهذا ممّا اتفق عليه أهل الإسلام، جاء في الأخبار أنّ السّماء تمطر وتنبت الأجساد، تمطر أربعين فتنبت الأجساد وتخرج إلى الحشر.[٤]

ثمَّ ذكر الموفق رحمه الله تعالى النفخَ في الصور، قال: حين ينفخ إسرافيل، والصور قرنٌ عظيم ينفخ فيه إسرافيلُ – ملك من ملائكة الله عزّ وجلّ – إذا أمره الله عزّ وجلّ، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصور، جاء في الأخبار أنّه أحد الملائكة الذين يحملون العرش، والنفخ في الصور جاء في الأخبار من خلال استقراء النّصوص جاء أنّ النفخات ثلاث، النفخة الأولى: نفخة الفزع، يسمّيها أهل العلم نفخة الفزع، ولهذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[٥]، النفخة

(١) صحيح. الترمذي (١٠٧١). صحيح الجامع (٧٢٤).

(٢) صحيح. أبو داود (٣٢١٢). صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٣) صحيح البخاري (٤٩٣٥).

(٤) صحيح البخاري (٤٩٣٥).

(٥) النمل: ٨٧.

الثانية نفخة الصّعق ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾(١)، النفخة الثالثة: هي نفخة البعث ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾(٢)، وهذا التقسيم الّذي ذكرته لك هو الّذي رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

في مسألة عجب الذنب نحن لا نستطيل في بعض المسائل الّتي ربّما الاستطالة فيها، ممّا يذكر استئناساً، الحقيقة نتحفظ على بعض ما، ممّا يذكر ويحتاج إلى تثبت؛ أنّه قد ذكره بعض أهل الهيئة وأهل الاختصاص أهل العلوم الطبيّة؛ ذكروا أنّ عجب الذنب هذا الذي لا يبلى أنّ أهل الطبّ قاموا بسحق هذا الجزء اليسير من الإنسان فوجدوا أنّه وضع في أعلى درجات الحرارة في الاختبارات فوجدوا أنّه لا يفنى ويبقى، جزء خليّة واحدة في أعلى درجات الحرارة خليّة واحدة؛ عجب الذنب، وهذا يدلّك على قدرة الله سبحانه وتعالى البالغة، فهذا العجب – عجب الذنب – كأنّه كالبذرة الّتي يبقيها الله عزّ وجلّ مهما تعاقبت السُّنون على الإنسان وبلي الجسد، فإنّ هذه منها يعاد الإنسان ويركّب، وعِلْمُ الله عزّ وجلّ لا تُحيط به العقول ولا تدركه، والإنسان دائماً في النّصوص يؤمن بها ويُسلّم سواء قال أهل الهيئة علماء أهل العلم بالطبيعيّات قالوا: بأنّ ذلك مقبول أو غير مقبول، الإنسان يؤمن ولا يحتاج أن يستدل، ولهذا أبوال الإبل والتداوي بها، الإنسان ما جاء عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من جهة البيان يتقبلّه سواء قالها أو لا، مقبول أو غير مقبول، ولكن قد يقال لهذه الأمور من باب الاستئناس، وإلّا الإنسان مؤمن سواء صدّقوا هذا أو كذّبوه، ولهذا تعلم أنّ التوسّع في مسألة الإعجاز العلمي وغير ذلك هذا ممّا ينبغي أن يكون الإنسان فيه على حذر، لأنّ طوائف ممّن خاض في هذا الباب صار يخوض بدون قيودٍ ولا ضوابط، وهو الأغلب، الأغلب ممّن تكلّم في مسائل الإعجاز العلمي يخوض في هذا الباب من دون أيّ ضوابط شرعيّة، وإنّما لأنّ لهم عناية ببيان فضل الإسلام وكذا ربّما يتوسّعون وهذا الغالب عليهم.

---

(١) الزمر: ٦٨.

(٢) الزمر: ٦٨.

وَيُحْشَرُ اَلنَّاسُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً بِهِمَا، فَيَقِفُونَ فِي مَوْقِفِ اَلْقِيَامَةِ، حَتَّى يَشْفَعَ فِيهِمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَيُحَاسِبَهُمْ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتُنْصَبُ اَلْمَوَازِينُ، وَتُنْشَرُ اَلدَّوَاوِينُ، وَتَتَطَايَرُ صَحَائِفُ اَلْأَعْمَالِ إِلَى اَلْإِيمَانِ وَالشَّمَائِلِ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾[1]، وَالْمِيزَانُ لَهُ كِفَّتَانِ وَلِسَانٌ، تُوزَنُ بِهِ اَلْأَعْمَالُ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[2].

وَلِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم حَوْضٌ فِي اَلْقِيَامَةِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اَللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنْ اَلْعَسَلِ، وَأَبَارِيقُهُ عَدَدُ نُجُومِ اَلسَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَالصِّرَاطُ حَقٌّ، يَجُوزُهُ اَلْأَبْرَارُ، وَيَزِلُّ عَنْهُ اَلْفُجَّارُ.

.....

قوله: ويُحشر الناس يوم القيامة: هذا تتأتّى معنا في هذه الجمل مسائل، الحشر: هو جمع الخلائق يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم، ويُحشر الناس - كما صحّ بذلك الخبر - حفاة يعني لا نعال عليهم ولا لهم، عراة لا ثياب عليهم، غُرلاً[3] أي لا ختان فيهم، لأن خلقهم عاد كما بدأهم الله عزّ وجلّ حينما أخرجهم الله عزّ وجلّ من الأرض، ثمّ يُحاسبون، وأجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة، فأمّا المؤمن فيحاسبه الله عزّ وجلّ بأن يخلو به سبحانه وتعالى ويقرّبه بذنوبه حتّى إذا ظنّ أنه هلك سترها الله عزّ وجلّ عليه وغفر له ثمّ يُعطى كتاب حسناته بيمينه، جاءت بذلك الأخبار، وأمّا الكفّار فيُنادى بهم على رؤوس الخلائق ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[4] ولهذا أمر الحشر وأمر يوم القيامة أمر عظيم تتكشّف فيه الأستار وتنشر به الدواوين ويتبيّن المُحقّ مِنَ المُبطل، أهل الغدر وأهل الخيانة يظهرون أمام الناس، ولهذا له أحوال وأمور عجيبة، من قرأ في النّصوص تعجّب، وإن كان موفقاً أعدّ لذلك اليوم عُدَّتَه،

(١) الانشقاق: ٧-١٢.

(٢) المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٤٩).

(٤) هود: ١٨.

لأنّه تهتك الأستار؛ تفضح الأسرار، وجاء في الأخبار أنّه يوم القيامة يوم الحشر يُنصب لكلّ غادر لواء عند إسته بجواره؛ بجوار دبره، لواء علم يرونه الخلائق، ويقال: هذه غدرة فلان ابن فلان[1]، نسأل الله السّلامة والعافية، ولهذا أهل الغلول الذين يغلّون ويسرقون من مال المسلمين يأتون يوم القيامة بما غلّوا ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2] فترى أحوالاً عجيبة، ولهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حذّر أمته قال: «لا ألفيّن أحدكم يأتي وعلى ظهره بعير له رغاء، حصان له حمحمة»[3] إلى غير ذلك ممّا صحت به الأخبار، هذا يوم القيامة، وهو عامٌ لجميع النّاس، هذا الحساب إلّا من استثناهم الله عزّ وجلّ كما جاء في الحديث الصّحيح «أنّ من هذه الأمّة سبعين ألف يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب»[4] وأولّ من يحاسب من الأمم هذه الأمّة، وأولّ ما يحاسب عليه الإنسان أو العبد من حقوق الله أمر الصلاة، وأولّ ما يُقضى به بين النّاس أمرُ الدّماء.

ثمّ ذكر الموفق رحمه الله تعالى: والميزان له كفتان ولسان، والميزان يعتقد أهل السُّنَّة أنّ له كفتان ولسان توزن به الأعمال كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[5]، ولهذا جاء في الحديث «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان»[6]، قد يتأتى معنا مسائل، هل هو ميزانٌ واحد أو متعدد؟ قال بعضهم من أهل العلم: إنّه متعدد؛ لأنّه لم يرد بالقرآن إلّا مجموعاً؛ موازين، وأمّا إفراده فباعتبار الجنس، وقال بعض أهل العلم: هو ميزانٌ واحد، وأمّا جمعه فباعتبار الموزون، وكلا الأمرين الخلاف فيه يسير ومحتمل.

---

(١) صحيح البخاري (٦١٧٧).

(٢) آل عمران: ١٦١.

(٣) صحيح البخاري (٣٠٧٣).

(٤) صحيح البخاري (٥٧٠٥).

(٥) المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣.

(٦) صحيح البخاري (٦٦٨٢).

المسألة الّتي بعدها ما الّذي يوزن؟ جاء في النّصوص أنّ الذي يوزن هو العمل كما صحّت بذلك النّصوص وكما تدلّ عليه ظاهر النّصوص، وجاء في الحديث أنّ صحائف الأعمال توزن كما جاء في حديث البطاقة المشهور(١)، وجاء في الحديث الصّحيح أنّ العبد العامل يوزن كما جاءت بذلك النّصوص، فإذاً الّذي يوزن العمل وصحائف العمل والعامل نفسه يوزن يوم القيامة.

المسألة الّتي تليها ما ذكره وأشار إليه الموفق رحمه الله تعالى: نشر الدواوين، والمقصود بنشر الدواوين أو المقصود بالدواوين هي صحائف الأعمال التي يحصي به عمل العامل الملائكة، الملائكة الكتبة تحصي بالدواوين عمل العامل، يوم القيامة تنشر هذه الدواوين، ونشرها إظهارها، ورد في الحديث أنّها تتطاير عن الأيامن وعن الشّمائل، وتقع هذه صحائف الأعمال والكتب إما في اليمين في يمين بعض الخلق وبعضهم يؤتى هذا الكتاب بشماله وبعضهم من وراء ظهره كما جاء بذلك الخبر.

ثمّ قال الموفق رحمه الله تعالى: ولنبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم حوضٌ في القيامة، تحت هذه الجملة مسائل.

المسألة الأولى: أنّ الحوض يطلق على مجتمع الماء، الماء المجتمع يسمّى حوضا أو ما يجمع من الماء، وفي الشرع هو حوض الماء النّازل من الكوثر، والكوثر نهرٌ بالجنّة في عرصات القيامة للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وحوض النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم دلّت عليه الأدلّة من السُّنَّة، وهو المفهوم من قول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾(٢)، وهذا الكوثر نهرٌ في الجنّة يصبّ في حوض النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأحاديث الحوض – حوض النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم – متواترة، رويت من طرق متعددة، الكتّاني في (نظم المتناثر في الحديث المتواتر) ذكر خمسين صحابياً ورد عنهم عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رواية الحوض، ومن المتأخرين من ذكر أنّ أحاديث الحوض صحّت ووردت عن أكثر من ثمانين صحابي عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإذاً الحوض ممّا ثبتت به السُّنَّة، تواترت السُّنَّة بثبوته، وهذا الحوض للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أمّا وصف هذا الحوض وشكله فجاء في الأخبار أنّ زواياه وأضلاعه متساوية، وأقرب الأشكال لذلك هو

(١) صحيح. الترمذي (٢٦٣٩). الصحيحة (١٣٥).

(٢) الكوثر:١.

الشكل المربّع، ولهذا جاء في الحديث «حوضي مسيرة شهرٍ وزواياه سواء»(١) كما أخرج ذلك الإمام مسلم، ولهذا جاء في وصف هذا الحوض أنّه من أيلة إلى صنعاء(٢) وهو تقريبٌ لهذه المسافة، وهو حوضٌ عظيم، وهذا الحوض يكون بعرصات يوم القيامة، في أيّ مكان في الأرض؟ والأرض ليست هي الأرض الآن بل هي الأرض المبدّلة، يمدّها الله عزّ وجلّ مدّ الأديم مدّ الجلد، فيُحْشَرُ عليها النّاسُ ويكون عليها الحشر، إذاً مكانه الأرض المبدّلة، آنيته جاء في الأخبار أو في الخبر أنّها كنجوم السماء كثرةً ووصفاً وبهاءً، كنجوم السماء(٣) أنّها كثيرة، الآنية الّتي يغترف بها ماء الحوض، وصف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لها أنّها كنجوم السماء يعني كثرةً وبهاءً وجمالاً، أمّا لونه فقد جاء في الحديث أنّه «أبيض من اللّبن»(٤)، أمّا طعم الماء فهو «أحلى من العسل»(٥)، وأمّا ريحه فهو «أطيب من ريح المسك»(٦)، وهو من أولّ النعيم الذي يذوقه العبد يوم القيامة، ويكون الإنسان في ذلك الوقت أشدّ ظمأً، فإذا شرب منه لم يظمأ بعد ذلك حتى يدخل الجنّة، فإذا دخل الجنّة فإنّه لا ظمأ ولا شيء من ذلك، إذاً هذه أوصاف الحوض، ولهذا جاء في الحديث «وإنّي لأنظر إلى حوضي الآن»(٧) كما رواه البخاري، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه موجود، ولكل نبيٍّ حوض يوم القيامة ولكن حوض النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هو أكبرها وأعظمها، لهذا يتباهى الأنبياء بأيّ الأنبياء أكثر وروداً، ومع هذا الحوض العظيم الذي وصفه – كما جاء في الأخبار – هذا الحوض يُذاد عنه أقوم، كيف يذاد عنه أقوام؟ يعني يُمنعون ويُصدّون، كما جاء في الخبر كما يُذاد البعير، يعني الآن أهل الإبل والمواشي و أهل الإبل تجد أنّ له حوضا؛ فحوضه الّذي فيه الماء لا يريد أن يشرب منه إلّا الإبل الّتي في ملكيّته، ولهذا إذا جاء بعيرٌ شارد من إبل فلان أو علّان فإنّه يذوده؛ يبعده حتّى لا يشرب، لأنّ الماء شحيح في الجزيرة العربيّة، فيقول

(١) صحيح مسلم (٢٢٩٢).
(٢) صحيح البخاري (٦٥٨٠).
(٣) صحيح البخاري (٦٥٨٠).
(٤) صحيح البخاري (٦٥٧٩).
(٥) صحيح مسلم (٢٤٧).
(٦) صحيح البخاري (٦٥٧٩).
(٧) صحيح البخاري (١٣٤٤).

صلّى الله عليه وسلّم «ويزاد أقوام عن هذا الحوض»، ولهذا الذود يمكن أن نقسّمه إلى قسمين: ذود عام وذود خاص، أمّا الذّود يعني الصدّ العام وهو أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يذود غير أمّته عن الشرب من حوضه فلا يشرب من هذا الحوض إلّا أمّة محمد صلّى الله عليه وسلّم لأنّ الحوض خاص بأمّته عليه الصّلاة والسّلام، وأمّا الذود الخاص كما جاء في الخبر أنّه يُذاد أقوامٌ عن حوضه –يُذاد –، وذلك يكون من الملائكة، أمّا الأولّ فيذود النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مَنْ ليس مِنْ أمّته عن حوضه[1]، وأمّا الذّود الآخر وهو الذود الخاص فيُذاد أقوامٌ عن حوضه، يمنعون، من الذين يمنعونهم من الوصول إلى الحوض؟ هم الملائكة، فيقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أصحابي أصحابي، وفي رواية أُصيحابي أُصيحابي»، فيقال – الملائكة تقول للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[2]، لهذا هذا الحديث ممّا يحاول أهل البدع – ومن منهم الروافض – أن يجعلوه في حق أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيقال: إن أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُذادون عن حوضه عليه الصّلاة والسّلام لأنّهم ارتدّوا بعده!! من الكلام الباطل من وجوه متعددة، ولكن هذا يدلك على القاعدة الّتي قدّمنا إليك وهو ردّ المتشابه إلى المحكم، هبْ أنّه أشكل عليك فإنّك ترد المتشابه إلى المحكم، كيف تعمل هذه القاعدة الآن؟ تعملها بماذا؟ سبحان الله هذا النّص تفهم فيه الفهم؟؟ هذا تبطل به دلالات النّصوص كلّها، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[3]، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[4]، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[5]، كل هذه النّصوص تبطلها لدلالة فهم من فهم هذه النّصوص، والجواب عنه بحمد الله معلوم، لكن هذا الجواب المجمل؛ لو أشكل عليك تردّ المتشابه إلى المحكم، هذا تطبيق عملي، أمّا الردّ عليهم، فالردّ عليهم من وجوهٍ كثيرة جداً:

---

(١) صحيح البخاري (٢٣٦٧).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٧٦).

(٣) الفتح: ١٨.

(٤) التوبة: ١٠٠.

(٥) الفتح: ٢٩.

أولاً: أنّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ الذين يُذادون هم من أحدثوا بعد النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إمّا بالردّة وإما بالبدع المضلّة، كما ذكر ذلك أهل العلم «إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1] والإحداث تم ببدعة أو بردة، فهذا يصدق على ماذا؟ إمّا على الذين مات النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهم على الإسلام ثمّ ارتدّوا بعد ذلك – وهم يعني بضع نفر يعدّون عدّاً –، وإمّا أن يقال – ودلالة النّص في ذلك ظاهرة – أنّهم أهل البدع، ولهذا الإنسان السُّنّي يحمد الله عزّ وجلّ على السُّنَّة ويسأل اللهَ الثباتَ، وأمّا من أحدث فإنّه يخشى على نفسه أن يُذاد عن حوض النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنّه يصدق عليه أنّه أحدث بعد النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك» ولهذا المتمسك بسُنَّة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعصمه الله عزّ وجلّ من الزّلل ومن الذّود عن حوضه عليه الصّلاة والسّلام، لأنّه فئام من النّاس يذادون لأنّهم أحدثوا في دين الله عزّ وجلّ ما ليس منه، ولهذا يحذر الإنسان من البدع العمليّة والبدع العلميّة أو الاعتقاديّة، كلّها سبيلها – والعياذ بالله – سبيل المنحرفين عن الصراط المستقيم، ولهذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[2].

المسألة الّتي تلي ذلك: والصراط حقٌّ يجوزه الأبرار ويزلّ عنه الفجّار، نختم بها، والصراط جسرٌ ممدودٌ على جهنم ليعبر النّاس عليه إلى الجنّة أو إلى القنطرة الّتي بعد ذلك يدخلون منها إلى الجنّة، واتفق أهل السُّنَّة على إثباته، وهذا الصراط جاء في أوصافه أنّه «دحض مزلّة وبه كلاليب أو تحيط به كلاليب ويمرّ النّاس به على قدر أعمالهم، منهم من يمرّ كطرف العين ومنهم كالبرق ومنهم كالريح ومنهم كالطير ومنهم كأجاويد الخيل ومنهم من يمرّ زحفاً»[3] والمرور عليه هو المذكور في قول الله عزّ وجلّ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[4]، فإذاً الصحيح من أقوال أهل العلم أنّ الورود على جهنّم هو المرور على الصّراط، وهذا الصّراط منصوب على جهنّم يمرّ النّاس فيه بحسب أعمالهم.

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٧٦).

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) صحيح البخاري (٧٤٣٩) بنحوه.

(٤) مريم: ٧١.

- سؤال: هذا شخص يقول اعرض لنا بعض كتب وشخصيات الأشاعرة حتّى يتسنّى لنا الحذر من هؤلاء.

جواب: ليس من المناسب أن نذكر هؤلاء وأن نسمّيهم وكذا، لكن الإنسان يحذر من أهل البدع ولا يأخذ هذا العلم إلّا عن من يُعرف كما قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: (إنّ هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم)[1]، ولهذا جاء في بعض روايات بعض التابعين أنّه كان الرجل إذا قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في زمن الصحابة أرعينا إليه أسماعنا فلمّا وقعت الفتنةُ - يعني مقتل عثمان - وركب الناس الصّعب والذَّلول؛ قلنا: سمّوا.[2]

- سؤال: هل صحيح أن العبد الصّالح إذا وُضع في قبره تأتيه الصلاة عند رأسه والزكاة عند يمينه والصيام عن يساره وفعل الخيرات عند رجليه فتحميه من العذاب؟

جواب: هذه الأحاديث ضعيفة[3] ولا تصحّ عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا يكثر الناس من إيراد هذه الأحاديث خاصّة فيما يُسمّى شبكات التواصل، ولهذا ينبغي الإنسان أن يتحرّى في نقل هذه المعلومات وتداولها، الأشياء ينبغي الإنسان أن لا ينقلها إلّا إذا تثبّت من صحة الحديث.

- سؤال: يسأل عن غاية المريد في علم التجويد؟

جواب: هذا تخصصه في التجويد، يعني هل هو من الأشاعرة؟ أنا أقول لك في الغالب غالب من ألّف في علوم القرآن أنّه على طريقة الأشعرية، ففي مسائل التجويد وضبط نطق اللفظ وكذا؛ أمره يسير، لكن تتنبّه لمسائل علوم القرآن؛ فإن هؤلاء أكثر من ألّف فيه من المتأخرين هم على طريقة الأشعرية.

- سؤال: هذا يسأل عن الحيّز والجهة.

جواب: هذه من المصطلحات التي قال أهل العلم: مصطلحات مبتدعة، وموقف أهل السُّنَّة من المصطلحات المحدثة أنّه لا تُرد ولا تُقبل، إذا قال لنا إنسان: كذا وكذا؛ هل الله في جهة؟ قلنا: ما الذي تقصد

---

(١) صحيح مسلم (١٤/ ١).

(٢) رواه مسلم في المقدمة (١٣/ ١) موقوفا على ابن عباس بنحوه.

(٣) حسن. الطبراني في الأوسط (٢٦٣٠). صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٦١).

بالجهة، نستفصل عن معناها، فإن أُريد به حق قُبلت، وإن أُريد به باطل رُدّت، وإن أراد بها حق قُبلت وقيل له عبّر بالألفاظ الشرعية وبالاصطلاحات الشرعية، وقد قدّمنا فيما سبق أن الإنسان يُعبّر بما جاءت به النصوص، ولهذا قلنا: التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه.

- سؤال: هذا يقول هل صحيح أن ابن القيّم ذكر أن النار تفنى؟

جواب: القول بفناء الجنّة والنار ممّا يُفهم من كلام ابن القيم رحمه الله تعالى في حادي الأرواح، لكن (وأن الشيطان يدخل الجنّة لأنه موحّد) هذه قالها ربّما الملاحدة والزنادقة كابن عربي، لكن ابن القيّم رحمه الله من أبعد الناس عن هذا القول.

- سؤال: الإجماع في مسائل العقيدة؛ وما شروطه في مسائل الاعتقاد، وهل كل إجماع مُعتبر في الاعتقاد، وهل يدخل فيه الإجماع السكوتي، وهل يوجد كتاب جمع الإجماعات في مسائل العقيدة؟

جواب: طبعاً الإجماع حجّة شرعية ولا ندخل بتفصيلها ولكن اعلم - حتى لا تسأل هذا السؤال - أنه ما من مسألة يُجمع فيها من مسائل الاعتقاد إلّا وفيها نصوص، ليس ثمّ مسألة من مسائل الاعتقاد يُحكى فيها الإجماع وليس فيها نصّ شرعي، أمّا مسائل العمليات فهذا قد يوجد الإجماع مثلاً ولا يوجد النص في ذلك، أمّا مسائل العلميات يعني الاعتقادات فإنه لا يوجد ثمّ مسألة إلّا وفيه نصوص قبل الإجماع.

- سؤال: يسأل عن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله؛ كيف ذلك مع ذكر المثال؟ لذلك حصل إشكال في معنى قول الجبرية ويزيد مثال كسب الأشعري، ما هو الكسب عند أهل السُّنَّة؟

جواب: الكسب عند أهل السُّنَّة ربّما تفصيلها قد يطول، لكن الكسب عند أهل السُّنَّة هو بما جاءت به النصوص (...)[1]، أمّا مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله؛ أنه لا يحدث في هذا العالم شيء إلّا بإرادة الله عزّ وجلّ، وأنا لا أريد أن أُفصّل، لكن لا بدّ أن تعرف أن كفر الكافر وقع بمشيئة الله عزّ وجلّ، وأن المُرادات مُراد لذاته ومراد لغيره، وأن إرادة الرب سبحانه وتعالى إرادة كونية قدريّة وإرادة دينية شرعية، فمن لم يفرّق بين الإرادتين - وهم الجبرية والقدرية - وقع في الزلل، كيف الإرادة الكونية القدريّة؟ الإرادة الكونية القدريّة لَما أراده الله عزّ وجلّ كوناً وقدراً، وهذه لا تستلزم المحبّة والرضا فقد يحبّها الله عزّ وجلّ ويرضاها وقد لا

(١) كلمة غير واضحة.

يحبّها، وهي شاملة لجميع المخلوقات، أمّا الإرادة الشرعية فهي الأمر والنهي والحلال والحرام بما أمر الله عزّ وجلّ الخلق وأرسل بهذه الإرادة الأنبياء والرسل، وربّما لو جاء وقت لفصّلنا فيها لأن الوقت ربّما يضيق.

- سؤال: ؟؟؟

جواب: الاستثناء في الإيمان جائز، وثمّ تفاصيل ببعض المسائل سأل عنها السائل؛ أنا أحيلكم إلى رسالة ماجستير كانت من تحقيقي لمؤلَّف اسمه (امتحان السُّنِّي من البدعيّ) ما يسأل عنه السائل هو الإيمان مخلوق أو غير ذلك؟ أن أحيله إلى هذا الكتاب، وهذا الكتاب من مطبوعات دار الإمام مالك، ذَكَر فيها هذه المسائل وفصّل فيها، جزء فيه (امتحان السُّنِّي من البدعي) لأبي الفرج الشيرازيّ المقدسيّ، هذه رسالة الماجستير التي قدّمتها أنا لقسم العقيدة.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد.

شَرحُ لُمعَةُ الاعْتِقَادِ للشَّيْخِ فَهْد المقْرِن

الشّريط السّادس

بسم الله والحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسوله وصفيه من خلقه، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، اللّهم انفعنا بما علّمتنا وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح يا رب، واجعل أعمالنا خالصةً لوجهك الكريم.

وَيَشْفَعُ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فِيمَنْ دَخَلَ اَلنَّارَ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ أَهْلِ اَلْكَبَـائِرِ، فَيَخْرُجُـونَ بِشَـفَاعَتِهِ بَعْدَمَا اِحْتَرَقُوا وَصَارُوا فَحْمًا وَحُمَمًا، فَيَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ، وَلِسَائِرِ اَلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَـةِ شَـفَاعَاتٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[1] وَلَا تَنْفَعُ اَلْكَافِرَ شَفَاعَةُ اَلشَّافِعِينَ.

وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ لَا تَفْنَيَانِ، فَالْجَنَّةُ مَأْوَى أَوْلِيَائِهِ، وَالنَّارُ عِقَابُ لِأَعْدَائِهِ، وَأَهْلُ الجَنَّةِ فِيْهَا مُخَلَّـدُوْنَ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[2].

وَيُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ اَلْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: «يَا أَهْلَ اَلْجَنَّةِ خُلُـودٌ وَلَا مَـوْتَ، وَيَا أَهْلَ اَلنَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ»[3].

.....

تحت هذه الجمل من كلام ابن قدامة رحمه الله تعالى مسائل:

المسألة الأولى :الشفاعة، والشفاعة لغة: جَعْلُ الوتر شفعاً، واصطلاحاً التّوسط للغير بجلب نفعٍ أو دفع ضر، وهي نوعان :خاصة وعامة، أمّا الخاصة فهي شفاعته صلّى الله عليه وسلّم لأهل الموقف أن يقضي ـ الله سبحانه وتعالى بينهم، وهذه خاصة للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهـي المقـام المحمـود الـذي تحمـده لأجلـه الخلائقُ كما ورد في الحديث الطويل في قصة الشفاعة، والشفاعة العامة وهي الشفاعة فيمن دخل النـار مـن أهل الإيمان وأهل التوحيد من أهل الكبائر أي يخرج منها وهذه للنَّبـيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم ولغـيره مـن

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) الزخرف : ٧٤، ٧٥.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٣٠).

الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وهذه الشفاعة ينكرها - وأشهر من ينكر هذه الشفاعة - المعتزلةُ والخوارجُ وإنما قالوا بإنكارها بناءً على مذهبهم الفاسد في مسألة الفاسق الملّي في مرتكب الكبيرة؛ فإن الخوارج والمعتزلة يقولون بأنه خالد مُخلد في النار - بناءً على كلامهم في مسألة الفاسق الملّي في مرتكب الكبيرة -، وهذه الشفاعة يُشترط لها شرطان:

الشرط الأول: إذن الله عزّ وجلّ للشافع لقوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[1]، والشرط الثاني: رضا الله سبحانه وتعالى عن المشفوع بأن يكون من أهل التوحيد، فهذه الشفاعة لا تتأتى إلا لمن مات موحداً ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[2].

المسألة التي بعدها مما ذكره الموفق رحمه الله تعالى فيما يتعلق بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان لا تفنيان فأهل السُّنَّة يؤمنون بوجودهما الآن وأنهما مخلوقتان لقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الحديث طويل «إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً»[3] إلخ الحديث، وقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «ورأيت النار» مما دلّ على أنها موجودة وأن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رآها، والجنة والنار لا تفنيان - كما قال الموفق رحمه الله تعالى - وكما هو مقرر، وهذا هو اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، وإنما نصّ عليه الموفق رحمه الله تعالى لأن الجهمية والجهم بن صفوان يقولوا بفناء الجنة والنار، والجهم بن صفوان من أشهر بدعه كما ذكرت لك أنه ابتدع بدعا - وذكرنا بعضها - ومن بدعه القول بفناء الجنة والنار، والجنة والنار باقيتان لا تفنيان قد دلّ على ذلك النصوص كقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[4] وقال الله عزّ وجلّ عن الجنة: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[5] وأهل السُّنَّة يعتقدون ذلك ووقع الإجماع على هذا.

ومما ذكره الموفق رحمه الله تعالى ما يتعلق بذبح الموت، ولهذا فالموت شيءٌ معنوي يُعبّر عنه أهل

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) الأنبياء: ٢٨.

(٣) صحيح البخاري (١٠٥٢).

(٤) الأحزاب: ٦٤، ٦٥.

(٥) البينة: ٨.

الاصطلاح بأنه عَرَضٌ، والله سبحانه وتعالى إذا كان يوم القيامة قلبَ الأعراض إلى أشياء محسوسة وإلى أعيان تُرى، ولهذا الله سبحانه وتعالى قادرٌ على كلّ شيء، فهو يجعل هذا الأمر الذي كان بين الناس أمراً معنوياً – وهو الموت – يجعله أمراً محسوسا، وهذا مما يكون يوم القيامة، فإنّ أحوال يوم القيامة تخالف أحوال الدنيا، ولهذا قال الموفق: ويُؤتى بالموت – موافقة للنص – في صورة كبشٍ أملح فيذبح بين الجنة والنار، وهذا هو بالنسبة لأهل الجنة نعيمٌ وبالنسبة لأهل النار زيادةٌ في العذاب – أعاذنا الله من عذاب النار – وقلب الأعراض إلى أشياء محسوسة هذا مما وردت به النصوص، ولهذا فيوم القيامة يقلب الله عزّ وجلّ ثوابَ قراءةِ سورة آل عمران والبقرة إلى أشياء محسوسة، ولهذا جاء في الحديث «اقرأوا البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غيايتان أو غمامتان أو فِرْقَان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما»[1] فدلّ على أن ثواب قراءة هاتين السورتين يجعله الله عزّ وجلّ شيئاً محسوسا، ولهذا مما يكون يوم القيامة قلب الأعراض إلى أشياء محسوسة.

(١) صحيح مسلم (٨٠٤).

فَصْلٌ

وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَاتَمُ اَلنَّبِيِّينَ وَسَيِّدُ اَلْمُرْسَلِينَ، لَا يَصِحُّ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يُؤْمِنَ بِرِسَالَتِهِ وَيَشْهَدَ بِنُبُوَّتِهِ، وَلَا يُقْضَى بَيْنَ اَلنَّاسِ فِي اَلْقِيَامَةِ إِلَّا بِشَفَاعَتِهِ، وَلَا يَدْخُلُ اَلْجَنَّةَ أُمَّةٌ إِلَّا بَعْدَ دُخُولِ أُمَّتِهِ، صَاحِبُ لِوَاءِ اَلْحَمْدِ، وَالْمَقَامِ اَلْمَحْمُودِ وَالْحَوْضِ اَلْمَوْرُودِ، وَهُوَ إِمَامُ اَلنَّبِيِّينَ وَخَطِيبُهُمْ وَصَاحِبُ شَفَاعَتِهِمْ، أُمَّتُهُ خَيْرُ اَلْأُمَمِ، وَأَصْحَابُهُ خَيْرُ أَصْحَابِ اَلْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمْ اَلسَّلَامُ -، وَأَفْضَلُ أُمَّتِهِ أَبُو بَكْرٍ اَلصِّدِّيقُ، ثُمَّ عُمَرُ اَلْفَارُوقُ، ثُمَّ عُثْمَانُ ذُو اَلنُّورَيْنِ، ثُمَّ عَلِيٌّ اَلْمُرْتَضَى - رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ -؛ لِمَا رَوَى عَبْدُ اَللَّهِ بْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: (كُنَّا نَقُولُ وَالنَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- حَيٌّ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، فَيَبْلُغُ ذَلِكَ اَلنَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَلَا يُنْكِرُهُ)(١)، وَصَحَّتْ اَلرِّوَايَةُ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: (خَيْرُ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ اَلثَّالِثَ)(٢)، وَرَوَى أَبُو اَلدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «مَا طَلَعَتْ اَلشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ بَعْدَ اَلنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»(٣)، وَهُوَ أَحَقُّ خَلْقِ اَللَّهِ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِفَضْلِهِ وَسَابِقَتِهِ؛ وَتَقْدِيمِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَهُ فِي اَلصَّلَاةِ عَلَى جَمِيعِ اَلصَّحَابَةِ - رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ -، وَإِجْمَاعِ اَلصَّحَابَةِ عَلَى تَقْدِيمِهِ وَمُبَايَعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ اَللَّهُ لِيَجْمَعَهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ عُمَرُ رضي الله عنه لِفَضْلِهِ وَعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ عُثْمَانُ رضي الله عنه لِتَقْدِيمِ أَهْلِ الشُّورَى لَهُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رضي الله عنه لِفَضْلِهِ وَإِجْمَاعِ أَهْلِ عَصْرِهِ عَلَيْهِ.

وَهَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِيهِمْ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ اَلْخُلَفَاءِ اَلرَّاشِدِينَ اَلْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٤)، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «اَلْخِلَافَةُ مِنْ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً»(٥) فَكَانَ آخِرُهَا خِلَافَةَ عَلِيٍّ رضي الله عنه.

وَنَشْهَدُ لِلْعَشَرَةِ بِالْجَنَّةِ كَمَا شَهِدَ لَهُمْ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «أَبُو بَكْرٍ فِي اَلْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي اَلْجَنَّةِ،

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٥٥).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٧١) بنحوه.

(٣) قال الشيخ الألباني رحمه الله تحت حديث الضعيفة (١٣٥٧): (أخرجه جمع من المحدثين منهم عبد بن حميد والخطيب وغيرهما).

(٤)صحيح. الترمذي (٢٦٧٦). صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٥) حسن. أبو داود (٤٦٤٧) عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. الصحيحة (٤٥٩).

وَعُثْمَانُ فِي اَلْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي اَلْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي اَلْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي اَلْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي اَلْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي اَلْجَنَّةِ، وَعَبْدُ اَلرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي اَلْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنِ اَلْجَرَّاحِ فِي اَلْجَنَّةِ»(١)، وَكُلُّ مَنْ شَهِدَ لَهُ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِالْجَنَّةِ شَهِدْنَا لَهُ بِهَا؛ كَقَوْلِهِ «اَلْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ اَلْجَنَّةِ»(٢)، وَقَوْلِهِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ اَلْجَنَّةِ»(٣)، وَلَا نَجْزِمُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ اَلْقِبْلَةِ بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ؛ إِلَّا مِنْ جَزَمَ لَهُ اَلرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم، لَكِنَّا نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ، وَنَخَافُ عَلَى اَلْمُسِيءِ.

.....

تحت هذا الكلام والجمل من كلام الموفق رحمه الله تعالى مسائل.

المسألة الأولى :وقد بيّنها رحمه الله أنه من خصائصه صلّى الله عليه وسلّم أنه خاتم النّبيين ولهذا لا بد من هذا الاعتقاد، وهو أن يعتقد العبد المؤمن أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هو الخاتم الذي ختمت به النُّبوّة عليه الصّلاة والسّلام وسيد المرسلين عليه الصّلاة والسّلام، لا يتم إيمانُ عبدٍ حتى يؤمن برسالته صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا فالله عزّ وجلّ نسخ بشريعة الإسلام ما سواه من الأديان وبمحمدٍ صلّى الله عليه وسلّم ختم النُّبوّة، وأن أمته عليه الصّلاة والسّلام هي أوّل أمّة تدخل الجنة، ولواء الحمد يحمله يوم القيامة، والمقام المحمود هو العمل الذي يحمده عليه الخلائق وهي الشفاعة العظمى كما قد قدّمنا، وأُمته صلّى الله عليه وسلّم خير الأمم لقوله عزّ وجلّ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(٤).

المسألة التي بعدها: ذكر الموفق رحمه الله تعالى اعتقادَ أهل السُّنَّة بصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وترتيبهم في الفضل رضوان الله عليهم، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة فأبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، وقع إجماعُ أهل السُّنَّة على ذلك، ثم العشرة المبشرون بالجنة، وقد ذكرهم الموفق رحمه الله تعالى، وإنما سُموا بالعشرة المبشرين بالجنة لأنهم وردوا في حديث واحد عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وسأل سائل لماذا سموا بالعشرة المبشرين بالجنة؟ لأنهم وردوا في حديث واحد نصّ على أنهم من أهل الجنة، ولهذا يعتقد

(١) صحيح. أبو داود (٤٦٤٩). صحيح الجامع (٤٠١٠).

(٢) صحيح. ابن ماجه (١١٨). صحيح الجامع (٣١٨٢).

(٣) صحيح البخاري (٣٦١٣).

(٤) آل عمران: ١١٠.

أهل السُّنَّة أنه خير الناس بعد الخلفاء الراشدين الأربعة هم العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل السُّنَّة يقولون: إنّ بعد العشرة المبشرين بالجنة هم أهل بدرٍ في الفضل، يُرتبون على هذا الوجه، يقولون: الخلفاء الأربعة ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة ثم أهل بدرٍ ثم أهل بيعة الرضوان ثم من أسلم قبل الفتح أفضل ممن أسلم بعده، ويفضلون جنس المهاجرين على جنس الأنصار، ولكن الترتيب هو الذي ذكرته لك، يعني الخلفاء الأربعة ثم العشرة ثم أهل بدرٍ ثم أهل بيعة الرضوان ثم من أسلم قبل الفتح أفضل ممن أسلم بعده.

المسألة التي تليها: ذكر الموفقُ رحمه الله تعالى الخلفاءَ الأربعة؛ وأنّ خلافة النُّبوّة بعد النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثلاثون سُنَّة كما صحّ من حديث سفينة رضي الله عنه، ولهذا تُذكر مُدد الخلفاء رضي الله عنهم، فأبو بكر تولى الخلافة سنتان وثلاثة أشهر وتسعة أيام، وأما عمر فعشر سنوات وستة أشهر وثلاثة أيام، وأما عثمان فاثنتا عشرة سُنَّة إلّا اثنا عشر يوما، ثم علي رضي الله عنه أربع سنوات وتسعة أشهر، ولو جمعت هذه المُدد لوجدت أنّ مدة الخلفاء الأربعة هي تسعة وعشرون سُنَّة وستة أشهر وأربعة أيام، فبقي مُدة من الزمن، ولهذا قال جمع من أهل العلم: إنّ خلافة النُّبوّة خُتمت بالحسن بن علي رضي الله عنه لمّا تولّى الخلافةَ، وكانت مدة تولّيه الخلافة ستة أشهر ثم تنازل رضي الله عنه بالخلافة لمعاوية جمعاً لكلمة المسلمين، وكانت هذه من أعظم فضائله رضي الله عنه وتحقق نُبوّة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيه حينما قال: «إنّ ابني هذا سيّد، وإنّ الله سبحانه وتعالى سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1] فحصل بتنازله رضي الله عنه للخلافة اجتماع كلمة المسلمين، لأنه بعد قتل عثمان رضي الله عنه تفرّقت كلمةُ المسلمين ثمّ حصل الاجتماع بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنه للخلافة لمعاوية، وسمّى أهلُ العلم تلك السُّنَّة عامَ الجماعة لاجتماع كلمة المسلمين.

ثمّ ذكر الموفق رحمه الله تعالى مسألةَ الشهود بالجنة والنار، ونحن نشهد لمن شهد له النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم كالعشرة المبشّرين بالجنة وكالحسن والحسين رضي الله عنهما، وكما ذكر الموفقُ رحمه الله تعالى من شهد له من أصحابه عليه الصّلاة والسّلام بالجنة كثابت بن قيس، هذا اعتقادٌ عند أهل السُّنَّة، وهل يُشهد لغير هؤلاء؟ بعض أهل العلم – ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية – قال: إنّ من استفاض عند أهل الإسلام أنّه من أهل الفضل والخير فإنّه يُشهد له بالجنة، من استفاض، كالأئمة رحمهم الله ومن عُلم أو استفاض أنه من

(١) صحيح البخاري (٢٧٠٤).

أهل الخير، وهذا موضع خلاف بين أهل العلم.

وكما أننا نشهد لأناسٍ بالجنة كذلك نشهد لمن شهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأنه في النار كقتلى بدر وكعمّه عليه الصّلاة والسّلام أخبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنه في ضحضاحٍ من النار، كذلك ما ورد في كتاب الله عزّ وجلّ أنّه من أهل النار كأبي لهب وغيره من هؤلاء، فإذاً نشهد لمن شهدت له النصوص بأنه في الجنة أو في النار.

وممن يحسُن بحثه في هذا الموضع ما يتعلق بالكلام في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو سبّ الصحابة أو تنقّص الصحابة رضوان الله عليهم حُكْمُهُ عند أهل العلم، لكن قبل أن ندلف إلى هذه المسألة نذكر أنّ أهل الأهواء من علاماتهم الطعن في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وسوف يأتي كلامُ الموفق رحمه الله تعالى في تولّي أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لكن مما يحسن إيراده في هذا هو حُكْمُ سبّ الصحابة إمّا أن نورده في هذا الموضع أو نؤخره لكلامه عن قوله في تولّي أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لكن من باب الشيء بالشيء يذكر؛ نذكر حكم سبّ الصحابة على وجه الإجمال، يمكن تقسيم ذلك إلى أقسام:

الأول :أن يسبّ جميع الصحابة أو يحكم عليهم بالرّدة ولا يستثني إلا بضع نفرٍ منهم، فهذا السبّ ردّةٌ عن دين الله، لأن ذلك السبّ يتضمن تكذيب النصوص وجحد النصوص ومن النصوص قول الله عزّ وجلّ ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[1] وغير ذلك من النصوص التي تتضمن الثناء على عموم الصحابة، فمن سبّهم أو حَكَمَ عليهم بالرّدة – كما يفعل الرّوافض ومن شاكلهم – فهؤلاء سبّ الصحابة إذا كان بهذه المنزلة فهو كفرٌ وردّة عن دين الله.

القسم الثاني من أقسام السبّ واللّمز بأصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أن يسبّ بعضهم دون الكلّ، وهذا ينظر في الحامل على ذلك، فإن كان حامله على ذلك اعتقادُ أنّهم وقعوا في الخطأ والغلط فهذا السبّ من كبائر الذنوب، وإن كان ذلك حامله الغيظ عليهم فهو كفرٌ بالله عزّ وجلّ؛ لأنّ الله يقول عن

(١) الفتح: ١٨.

أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[1] فمن كان في قلبه غلٌّ عليهم فهو ليس من أهل الإسلام بل هو من أهل الكفر والرّدة، وحُكْمُ أمّهات المسلمين حكم الصحابة في السبّ وأمّا إذا قذف واحدةً منهنّ فهذا كفرٌ بالله عزّ وجلّ وردّةٌ عن دين الله عزّ وجلّ.

هذا الكلام الذي ذكرته مختصرٌ من كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وإن كانت هذه المسألة طويلة الذيول ومن أراد الاستزادة من هذا الموضع فليرجع إلى الكتاب الماتع لابن تيمية رحمه الله تعالى المعنون بـ (الصّارم المسلول في الرّدّ على شاتم الرسول) صلّى الله عليه وسلّم ومما يَحسُن ذكرُه من المسائل أنّ ممن يتّنقّص أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إنما يتنقّصهم لأنّ في قلبه شيء على أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولأنّه وقع في البدعة وقد لا يتأتّى له ثبات على البدعة إلا بالطّعن في أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونُرجئ الكلام في هذا إلى قول الموفق رحمه الله تعالى: ونتولّى أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

(١) الفتح: ٢٩.

وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ اَلْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ عَنْ اَلْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ، وَنَرَى اَلْحَجَّ وَالْجِهَادَ مَاضِيَيْنِ مَعَ طَاعَةِ كُلِّ إِمَامٍ - برًا كَانَ أَوْ فَاجِرًا - وَصَلَاةُ اَلْجُمُعَةِ خَلْفَهُمْ جَائِزَةٌ قَالَ أَنَسٌ: قَالَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ اَلْإِيمَانِ، اَلْكَفُّ عَمَّنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، وَلَا نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ مِنْ اَلْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اَللَّهُ ﷺ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي اَلدَّجَّالَ، لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.(١)

.....

طبعاً مما يحسن التَّنبيه عليه - وإن كان قد فات محلّه - أنّ الموفق وغيره من أهل العلم قد يورد بعض الأحاديث التي فيها مقال، وهذا ليس فيه شيء من جهة أنّ الموفق رحمه الله تعالى وغيره من بعض أهل العلم يذكر بعض هذه الأدلة على سبيل الاعتضاد لا على سبيل الاعتماد عليها، بمعنى أنّها قد صحّت الأصول فيورد بعض هذه الأدلة، إمّا أنّه قد يراها أنّها صحيحة أو لأنّ الأصل متفق عليه فيورد الدليل في ذلك، فلا يعني يتطاول بعض الناس في الكلام في الأئمة فيما يوردونه من الأحاديث الضعيفة.

قال الموفق رحمه الله تعالى: ولا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب.

المسألة الأولى: مراد الموفق رحمه الله تعالى في هذا الموضع الذنوب العمليّة من الكبائر كشرب الخمر والزنى - أعاذنا الله وإياكم من ذلك - التي كفّر بها الخوارج، فالخوارج يكفّرون بمثل هذه المسائل كما قد تقدم، فعندهم أنّ مرتكب الكبيرة كافرٌ في الدنيا وخالدٌ مخلّدٌ في النار، ومما يبحث في هذا الموضع أنّ بعض أهل العلم يتكلم عن مسألة الاستحلال - استحلال الذنوب العمليّة -، ولهذا عبّر الطحاوي في هذا فقال: ولا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنبٍ ما لم يستحله - يعني ما لم يستحلّ هذا الذنب - ومما يحصل فيه اللّبس عند فئام من الناس مسألة الاستحلال، بمَ يكون الاستحلال؟ ولأن هذه المسائل مزلة أقدام؛ فلا بدّ من البيان فيها، كيف يكون الاستحلال؟ بعض الناس يظن أنّ الاستحلال يكون بالاستهانة، أن يستهين بالمحرّم، يعني بأن يشرب الخمر فيستهين بشرب الخمر فيجعل ذلك استحلالاً، حقيقةً هذا هو مذهب الخوارج، أو يعتقد أنّه إذا امتنع أو قاتل لأجل هذا المحرّم أو فعل ما فعل لأجل أن لا يُحْرَمَ منه يجعلُ ذلك

(١) ضعيف. أبو داود (٢٥٣٢). ضعيف الجامع الصغير (٢٥٣٢).

من مسائل الكفر بالله عزّ وجلّ، فلا بدّ من بيان معنى الاستحلال، مصطلح الاستحلال، على ماذا يصدر؟ كيف يحكم بأنّ هذا مستحلّ للمحرّم أو الكبيرة؟ يقال في هذا: أنّ ضابط الاستحلال هو أن يعتقد أنّ هذا الفعل حلالٌ له، إذاً الاستحلال مسألة مضبوطة بالاعتقاد القلبي - يعتقد ذلك في قلبه - ويصرّح بلسانه بأن هذا حلال، كأن يقول: الخمر حلال، أو يقول: الخمر لي حلال، فهو اعتقد وصرّح باعتقاده بلسانه، ولهذا هذا الضابط ذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (الصّارم المسلول) الذي ذكرته لك قبل قليل. وقال: أنّ يعتقد الله تعالى جعله حلالاً - يعني المحرّم - أو أنّ الله لم يحرّمه، هكذا عبّر الشيخ رحمه الله تعالى، فإذاً ضابطه هو الاعتقاد، ففي هذا الاعتقاد جحودٌ لِمَا جاءت به الشريعةُ، وهذا كفرٌ بإجماع أهل العلم، ولهذا الاستحلال يتأتى على أمور، صورة الاستحلال ضابطه ذكرناه، ما الضابط؟ اعتقاد أنّه حلال؛ ويصرّح بذلك، لأنه إذا كان اعتقاد قلبي - لا يعلمه إلّا الله سبحانه وتعالى - ولكنه يعتقد بقلبه أنه له حلال أو أنه ليس بمحرّمٍ أو هو حلال له، بمجرد الاعتقاد يكفر، حتى لو لم يباشر شرب الخمر أو الفعل لهذا المحرّم، لكن هذا الاستحلال يتأتى على الذنوب المُجمع على تحريمها التي ثبت في النصوص أنها محرّمة قطعاً، ولهذا أنا مثلّت لك بالزّنى وشرب الخمر، ولهذا الاستحلال يتأتى - كما يسميه أهل العلم - على ما هو معلومٌ من الدّين بالضرورة، وإذا فهمت هذا علمت أنّ الاستحلال لا يتأتى على ما هو مختلفٌ فيه، وأنا أفيدك فائدة مهمة وعزيزة - انتبه لها بعد ذلك -، إذاً ضابط الاستحلال: الاعتقاد والتصريح باللسان، والأمر الثاني أن يتأتى على أمرٍ معلومٌ من الدين بالضرورة، كأن يقول لك: الزّنى والخمر وما أجمع أهل العلم على أنّه محرّم لم يختلفوا فيه؛ أن يتأتى هذا الاستحلال على صورةٍ معينة، كيف يتأتى على صورةٍ معينة؟ هذه الصورة مما أجمع أهل العلم على أنّها هذه الصورة محرّمة كيف يكون هذا؟ الخمر في أصله حرام، لكن في صُوره ممّا يُختلف فيه، هناك صور لا يصدق عليه اسم الخمر، أعني أنه يختلف في بعض المسائل في بعض الصور في إلحاقه بالخمر، أليس كذلك؟ كالنّبيذ - ما ينتبذ من الأسقية - يعني كان الناس في قديم الزّمان الماء ليس عذباً فينتبذون فيه إمّا تمرا وإما شعيرا فيسمّى هذا النّبيذ، الصحيح من النصوص أنّه لا يجوز الانتباذ أكثر من يوم وليلة كما أخبر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبعض أهل العلم - ومن هؤلاء أهل الرأي والأحناف - يجيزون الانتباذ أكثر من يوم وليلة فيتحوّل هذا النبيذ إلى شبيهٍ بالخمر وربما أسكر، فهذا النّبيذ اختلف أهل العلم فيه،

فجمهور أهل العلم على أنّه محرّم إذا زاد عن يومٍ وليلة، فإذاً النّبيذ يستحلّه الأحناف، فهل يقال: بأنهم استحلّوا الخمر؟ أو يقال: إنّ هذا الاستحلال كفر؟ لم يقل بذلك أحدٌ من أهل العلم - وإن خطؤوا من خالف هذه المسألة، ولهذا بعض صور التّحريم مما اختلف فيه، بعض أهل العلم يبيح ما أسكر كثيره ولم يسكر قليله، يعني هو يرى أنّ القليل إذا كان كثيره يسكر وقليله لا يسكر فإنّ القليل لا يعتبره محرّما، هذا خلاف ما دلّت عليه النصوص، لكن قال به بعض أهل العلم، يعني من صوره ما يُسمى الآن بالبيرة، البيرة في غير هذه البلاد يكون فيها نسبة من الكحول والخمر، وهذه لا تسكر إلّا إذا تعاطى الإنسان فيها أكثر من واحدة، فإذا شرب شيئاً قليلاً لا يسكر، فبعض أهل العلم من المتقدمين ممن أباح ما أسكر كثيره ولم يسكر قليله؛ أباح القليل، فهل يقال في هذه الصورة المختلف فيها بأنه استحلّ الخمر؟؟ هذا ما أريد أن أُبيّنه لك، كذلك بعض أنواع الرّبا المختلف فيها كتحريم ربا الفضل، بعض صور الرّبا كبيع التّورق عند جماعة من أهل العلم يرون أنه محرّم ويرونه أنّه ربا، فهل إذا قالوا بأنه ربا يعتبرون من أجازه بأنه مستحلٌّ لَمَا هو محرّم؟! فإذاً تعرف أنّ هذا الاستحلال لا يتأتى إلّا في أمرٍ أو في صورةٍ معينة مجمع عليها أنها محرّمة، كأن يقال الخمر المعروف باتفاق الفقهاء بأنه يسمّى خمرا كما يسمّى الآن باتفاق وإجماع أهل العلم هذه المشروبات المسماة الآن التي تعمر بلاد الدنيا؛ فمما يقع عليه أن هذا هو الخمر؛ فهذا لو استحله هو الذي استحلّ ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ولهذا بعض الناس في مسائل البيوع كمسألة الفائدة الربوية يجيزها، فهل قال أهل العلم: بأنه استحل الرّبا فكفروه؟ يخطئون المخالف فيها، ولهذا أول ما ظهرت العملات الورقية؛ جماعةٌ من أهل العلم رحمهم الله لا يرون جريان الرّبا فيها، فهذه الصورة المختلف فيها هل يقال بأنّ ذلك الشيخ الذي اجتهد في هذه المسألة النازلة والحادثة أنه لا يرى أن ذلك يجري فيه الربا؛ هل يقال بأنه استحل المحرّم؟ فهذا يفيدك ما ذكرته لك، إذاً الضابط الأول للاستحلال هو الاعتقاد والتصريح بلسانه باعتقاده، وهذا الاستحلال لا يتأتى إلّا على أمرين؛ مما هو معلومٌ من الدين بالضرورة وأن يكون في صورة معينة مجمع على تحليلها، هذا يفيدك فوائد، ولهذا تعرف أنّ تسارع بعض المجازفين في مسائل التّكفير هو غلطٌ على الشريعة، غلطٌ على الشريعة أن يكفّرون ببعض المسائل ويقولون بالكفر بالإطلاق، وهذا الحقيقة طريق الخوارج، أما تقريرات أهل العلم بحمد الله فإنها متفقة وغير متناقضة.

ثمّ ذكر الموفق رحمه الله تعالى مسألةً مهمة وهي ربما تكون من المسائل التي نعيشها في هذا الزّمان أو نعيشها في هذه الأيام، وقد صرّح بعقيدته رحمه الله تعالى – وهذا معتقد أهل السُّنَّة – يرون أنّ الحجّ والجهاد ماضيان مع كلّ أمير – برٍ أو فاجر –، ولاحظ أنّ ابن قدامة – وقبله وبعده – من أهل العلم قالوا: الحجّ والجهاد، أما الحجّ فهو معلومٌ الآن أنّ للحجّ أمير، وتعاقبَ الخلفاء – وهي سُنَّة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم – أن يُجعلَ للحجّ أمير، لا ينفر الناس إلّا إذا نفر الأمير، وقد صرّح العلماء بحرمة النفرة قبل نفرة الأمير، ولهذا الحجاج لا يتحركون ولا ينطلقون من عرفة إلّا إذا انطلق أميرُ الحجّ الذي نصبه الإمام، ولهذا يذكرون مسألة الحجّ ويذكرون مسألة الجهاد، هذا من اعتقاد أهل السُّنَّة أنهم لا يقاتلون إلّا تحت أمير، وهم بهذا الاعتقاد يخالفون طوائف من أهل البدع، يخالفون الروافض، الروافض الذين لا يرون الحجّ ولا الجهاد إلّا مع الإمامٍ معصوم الذي هو الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري الذي يزعمون أنه اختفى في سرداب سامراء؛ وأن هذا محمد بن الحسن سوف يخرج في آخر الزمان، سوف يقاتل أعداء آل بيت النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما يزعمون، ولهذا هم يعطّلون الحجّ والجمعة والجماعة، هذا اعتقاد الروافض، ولا عبرة بتغير اعتقادهم في مطلع هذا القرن، حينما جاءوا ببدعةٍ عندهم في مذهبهم – ودينهم أصلاً كلّه بدع – لكنهم ابتدعوا في دينهم ما يسمى بولاية الفقيه، واعتقادهم السابق هذا هو المشروع ولا زالوا على هذا الاعتقاد إلّا من خالف ذلك؛ وزعم أن وليّ الفقيه ينوب عن الإمام المنتظر، ومعروف من عقيدة الروافض أنهم لا يصلّون لا الجمعة ولا الجماعة ولا يقاتلون إلّا مع من يعتقدون أنه سيخرج في آخر الزمان، ولهذا هم يُسمّون الخشبية لأنهم لا يرون القتال إلّا بالخشب في السابق، وهذا من التطورات في مذهبهم، ولا يقاتلون بالسيف إلّا مع الإمام المعصوم الذي يزعمونه، كذلك أهل السُّنَّة يخالفون في هذه المسألة الخوارجَ الذين لا يرون الحج والجهاد إلّا مع الإمام البرّ العادل، فلهذا لا ينقادون لا في الحج ولا في الجهاد للإمام، وإنما يفتاتون عليه ولا يرون الجهاد معه، ولهذا لمّا علموا أن هذا لا يكون لهم وأن ذلك سبيل لزوالهم نصبوا لهم إماماً وأميراً يحجّون معه ويجاهدون معه كما هو معلوم من تاريخ الخوارج، وهذا الأصل مضى عليه هدي الصحابة رضوان الله عليهم، فقد حجّ عبد الله بن عمر مع الحجّاج بن يوسف؛ لمّا جُعل الحجّاجُ أميراً على الحجّ في زمن بني أمية، وصلّوا خلف الحجّاج؛ الصحابةُ أنس وعبد الله بن عمر، وحكى الإجماع على هذه

المسألة جمعٌ من أهل العلم كالإمام ابن بطّة رحمه الله تعالى في الإبانة، ولهذا فالحجّ والجهاد عند أهل السُّـنَّة لا يكون إلّا تحت أمير، وقد صرّح أهلُ العلم بذلك، كل كتب أهل العلم مصرّحة بأن الجهاد لا يكـون إلّا مـع الأمير، بعض المعاصرين قد يفتات على مذهب أهل السُّنَّة ويقول بأنه يفرّق فيما يُسمّى بجهاد الدفع وجهـاد الطلب، هذا اصطلاح حادث عند كثير من الفقهاء ليس هو معروف عند المتقدّمين من الأئمة، ولهـذا يقـول بأن جهاد الدفع – وهو أنّه إذا غُزي بلد من بلاد المسلمين – وجب الجهادُ على الأمّة بإطلاق وأنه لا يُستأذن فيه الإمام ولا يلزم فيه القتال تحت راية الإمام، وهذا الحقيقة غلط على مذهب أهل السُّنَّة بل الأئمة رحمهـم الله كالإمام أحمد والإمام مالك صرّحوا بأنّه حتّى فيما يُسمّى باصطلاح فقهاء المعاصرين بجهاد الدفع أنه لا يكون إلّا تحت أمير، وانظر في مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله؛ فـإن الإمـام أحمـد سُـئل هـذه المسـألة: العدو؛ عدو يغزو بلدا من بلدان المسلمين يخشون كلَبَه – يعني شدّة عداوته – فهل لهـم أن يقـاتلوا دون أن يستأذنوا الإمام؟ هذه صورة تسمّى عند المعاصرين جهاد الدفع، فماذا قـال الإمـام أحمـد؟ قـال: (لا، حتّـى يستأذنوا الإمام)، سأله ابنه عبد الله إذا لم يمكنهم ذلك؟ قال: (أرجـو أن يكـون دفعـاً عـن المسـلمين) هـذا موجود في مسائل الإمام أحمد من رواية ابنه عبد الله، كذلك الإمـام مالـك رحمـه الله تعـالى صرّح بـذلك أن العدو إذا نزل بساحل المسلمين لا يقاتلوا حتّى يستأذنوا الإمام، هذا منصوص عليه من كـلام أهـل العلـم، فالجهاد لا يكون إلّا بإذن الإمام، ومن الافتئات على الإمام الخروجُ، وهذا متفـق عليـه بـين أهـل السُّـنَّة إلّا بعض المعاصرين المتأخرين ممّن الحقيقة أثّرت عليهم التصورات السياسية على القواعد الشرعية – فانتبـه إلى هذا – فالحجّ لا يكون إلّا بأمير والجهاد لا يكون إلّا بأمير، ولهذا تعلم أن بعض المعاصرين قال: إن من قـال بذلك فكذا فغلط، فهو لم يفهم كلام الأئمة، أو أن في قلبه شيء مـن الهـوى ويعـرض عـن تصـريح الأئمـة رحمهم الله بذلك، فلماذا لا يُقال: إن الجهاد لا يكون إلّا بأمير؟ – هذا النصوص دلّت عليه – لأنـه لا تتـأتى مصلحة الجهاد إلّا بوجود أمير يجتمع النـاس عليـه، ولهـذا الشـيخ ابـن العثيمـين رحمـه الله تعـالى – ممكـن تراجعونه في لقاء الباب المفتوح – أن أذكره؛ أنا سمعت هذا وقرأت شيئاً من ذلك، لّما سُئل الشيخ رحمـه الله عن المسألة، قال: إنه لو قيل بأن الجهاد دون أمير؛ فإن المصلحة من الجهاد لا تتحقق، وقد عُلـم مـن أحـوال المعاصرين أنه إذا لم يكن للناس إمام وصاروا فرقا فإن مصلحة الجهاد لا تتأتى، والغالب أن ثمرة هذا القتال

لا تكون إلّا لغير المسلمين، معلوم، ولهذا لا بدّ من أمير، ومن شروط الجهاد أن تكون الراية معلومة، يا إخوان نحن نتكلّم بالنصوص لا نتكلّم بأهوائنا وعواطفنا، الجهاد عبادة كما أنك تصلّي؛ الجهاد عبادة مثل الصّلاة، لا تفعل هذه العبادة إلّا بدليل، ولهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في الجنة»[1]، فانظر لا بدّ أن تكون الراية – يعني هي الغاية من الجهاد – ليس شعاراً يُرفع، الغاية من الجهاد عند هذا الأمير هو ماذا؟ إقامة شرع الله عزّ وجلّ؛ إقامة التوحيد، إقامة توحيد الله عزّ وجلّ بأن يعبد الله وحده، إعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، ليس إعلاءً حسياً فقط بِعَلَمٍ يُكتب عليه (لا إله إلّا الله)، حقيقياً ومعنوياً شعاراً وواقعاً لا بدّ، لهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم سُئل عن المقاتل حميّة وشجاعة قال: (ليس ذلك في سبيل الله)، فانتبه إلى هذه الملاحظ، وهذا تصريح الأئمّة، ولهذا بعض المعاصرين ممّن أفتى في زمنٍ سابق بجواز الجهاد دون إذن الإمام أو دون أمير رجع عن هذه الفتوى وصرّح بذلك، هذا باتّفاق المعاصرين إلّا من عنده تصوّرات أخرى تُخالف منهج أهل السُّنّة، ولهذا قال: لا يبطله جورُ جائر ولا عدلُ عادل.

والصّلاة خلفهم، أهل السُّنَّة يرون جواز صّلاة الجمعة والجماعة خلف هؤلاء الأئمّة ولو كانوا فجاراً كما فعل الصحابة رضوان الله عليهم كما قدّمت لك.

(١) صحيح البخاري (١٢٣).

وَمِنْ اَلسُّنَّةِ تَوَلِّي أَصْحَابِ رَسُولِ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَمَحَبَّتُهُمْ، وَذِكْرُ مَحَاسِنَهُمْ، وَالتَّرَحُّمُ عَلَيْهِمْ، وَالاسْتِغْفَارِ لَهُم، وَالكَفِّ عَنْ ذِكْرِ مَسَاوِيْهِم، وَمَا شَجَرَ بينهم، وَاعْتِقَادُ فَضْلِهِمْ، وَمَعْرِفَةُ سَابِقَتِهِمْ قَالَ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(٢)، وَقَالَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(٣)، وَمِنْ اَلسُّنَّةِ اَلتَّرَضِّي عَنْ أَزْوَاجِ اَلرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم أُمَّهَاتِ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلْمُطَهَّرَاتِ اَلْمُبَرَّآتِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، أُفَضِّلُهُنَّ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَعَائِشَةُ اَلصِّدِّيقَةُ بِنْتُ اَلصِّدِّيقِ اَلَّتِي بَرَّأَهَا اَللَّهُ فِي كِتَابِهِ - زَوْجُ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي اَلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ -، فَمَنْ قَذَفَهَا بِمَا بَرَّأَهَا اَللَّهُ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِاَللَّهِ اَلْعَظِيمِ، وَمُعَاوِيَةُ خَالُ اَلْمُؤْمِنِينَ، وَكَاتِبُ وَحْيِ اَللَّهِ، أَحَدُ خُلَفَاءِ اَلْمُسْلِمِينَ - رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ.

.....

هذه الجمل من كلام ابن قدامة رحمه الله تعالى أصلٌ عظيم عند أهل السُّنَّة وهو أنّهم يتولّون أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم جميعاً ويعتقدون بخيرتهم وبعظيم فضلهم في الأمّة لأنّهم نقلة الشريعة وأنصار الدّين، وتولّي أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يكون بمحبّتهم والثناء عليهم رضوان الله عليهم، والترحم عليهم والاستغفار لهم كما أمر الله عزّ وجلّ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٤)، ولهذا تعلم أنّ الطّعن في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بريدٌ ويؤدّي إلى الطّعن في شريعة محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا صرّح الإمام مالك رحمه الله تعالى حينما سُئِلَ عن هذا - الذين يطعنون في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم - قال: هم قومٌ لم يمكنهم الطّعن في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فطعنوا في أصحابه حتّى يُقال رجل سوء، حتّى يقال عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: رجل سوء، ولو كان صالحاً لكان أصحابه كذلك،

(١) الحشر: ١٠.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) صحيح البخاري (٣٦٧٣).

(٤) الحشر: ١٠.

فإذاً من طعن في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هو بالحقيقة يطعن في الشريعة؛ لأنّهم هم نقلة الدّين وأنصار الشريعة، ولهذا تعرف أنّ الروافض ومن شاكلهم أنّهم على غير سبيل المؤمنين، والطّعن في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليس موقوفاً على الروافض فقط؛ بل الخوارج كذلك ممّن يطعن في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأهل البدع على وجه العموم منهم من يطعن في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كالمعتزلة وكغيرهم، لكن أريد أن أفيدك فائدة أنّ بعض المعاصرين منهم المنتسبين للسُّنَّة طعنوا في عثمان بن عفان رضي الله عنه وزعموا أنّه أوّل من رسَّخ في ما يزعمون الإقطاع، وأنّ الثّائرين ممّن ينتسب إلى السُّنَّة وإلى بعض أهل السُّنَّة أنّ الثّائرين على عثمان هم أقرب إلى روح الشّريعة من عثمان، نسأل الله السّلامة والعافية، ولهذا هؤلاء لهم أهواء وهذه الأهواء تصطدم بما فعله الصحابة فيطعنون في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ومن المعاصرين ممّن ينتسب إلى السُّنَّة ويطعن في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم طعنهم في معاوية رضي الله عنه، لماذا يطعنون في معاوية؟ ولهذا قال أهل العلم إنّ معاوية ستر أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ فإذا هتك الستر وُلِجَ الباب، يعني أولّ ما يُبدأ يبدأ بالطّعن بمعاوية، لماذا يطعنون في معاوية رضي الله عنه؟ من ضمن الأمور ومن الأسباب الظاهرة للباحثين في طعنهم في معاوية لأنّ معاوية رضي الله عنه حصل منه رضي الله عنه أنّه تولّى على الأمّة بالغلبة، ورضي الله عنه حينما غالب عليَّ بن أبي طالب، ثمَّ بعد ذلك استقرّت له الخلافةُ بتنازل الحسن ورضاه، لكن القضيّة الكبيرة الّتي حصلت عند معاوية ويكرهون معاوية لأجلها أنّ معاوية رضي الله عنه عهد بالخلافة لابنه يزيد، هذه القضيّة الّتي أشكلت عندهم، فهم يطعنون فيه لأنّهم كما يزعمون – بعض المعاصرين – أنّه حصل منه الاستبداد، تسمعون الآن ثقافة الاستبداد والاستئثار وغير ذلك، فحصل منه استبداد، فيطعنون به لأجل هذه المسائل، لأنّه ولّى يزيد بن معاوية – كما يزعمون أنّه على غير اختيار الصحابة –، فلو عندهم زكّوا معاوية رضي الله عنه وأفعاله للزم من ذلك أنّ ولاية العهد سائغة في الشّريعة وهم في الحقيقة أهل سيف وأهل خروج فلا يريدون هذه المسألة فلهذا يطعنون في معاوية رضي الله عنه.

ومما ذكره الموفق رحمه الله تعالى الكفّ عمّا شجر بينهم، وهذا أصل من أصول أهل السُّنَّة، الصحابة رضي الله عنهم كما تعرفون حصل بين عليّ ومعاوية ما حصل، ولهذا أهل السُّنَّة يكفّون عمّا شجر بينهم، لماذا

يكفّون؟ عنوان هذا الأصل – الكفّ عما شجر بين أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم –، هذا الأصل مستنبط من نص شرعي، هذا النّص هو قول الله عزّ وجلّ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] فإنّه ربّما لو بحث وتعمّق في البحث فيما حصل بما معاوية وعليّ رضي الله عنه لربّما وقع في قلبه شيءٌ من الغلّ لأصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم – إمّا معاوية وإمّا علي –، مع أنّ أهل السُّنَّة يعتقدون أنّ الأقرب للحق وأنّ الحق مع من؟ مع علي، لكنّهم لا يطعنون في معاوية يرون أنّه اجتهد رضي الله عنه، يترضّون عنه، فهذا على سبيل الإجمال، وأنت لا تبحث المسائل، ولهذا تعلم أنّ بعض النّاس المعاصرين ممّن ذكر هذه القصص ودخل في الكلام فيها فيما شجر بين الصحابة أنّ هذا سبيل للطّعن في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وإغاظة قلوب النّاس على أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا يقولون – أهل السُّنَّة – الكفّ عمّا شجر حتّى لا يقع – حرصاً على قلبك – حتّى لا يقع في قلبك شيءٌ من الغلّ على أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، من علامات السُّنَّة أن يكون قلبك سليماً على أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

(١) الحشر: ١٠.

وَمِنْ اَلسُّنَّةِ اَلسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَئِمَّةِ اَلْمُسْلِمِينَ وَأُمَرَاءِ اَلْمُؤْمِنِينَ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ - مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اَللَّهِ -؛ فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اَللَّهِ، وَمَنْ وَلِيَ اَلْخِلَافَةَ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ اَلنَّاسُ، وَرَضُوا بِهِ، أَوْ غَلَبَهُمْ بِسَيْفِهِ حَتَّى صَارَ خَلِيفَةً، وَسُمِّيَ أَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ، وَجَبَتْ طَاعَتُهُ، وَحَرُمَتْ مُخَالَفَتُهُ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهِ وَشَقُّ عَصا اَلْمُسْلِمِينَ.

.....

تحت هذه الجمل من كلام ابن قدامة مسائل:

المسألة الأولى: بمَ تثبت الإمامة عند أهل السُّنَّة؟ بماذا يكون الإمام إماماً شرعياً؟ أهل السُّنَّة يرون أنّ الإمام - كما أشار إلى ذلك ابن قدامة - يكون إماماً شرعيّاً بأيّ وسيلة كان، بالاختيار كاختيار أهل الحلّ والعقد له، كاختيار الصحابة رضوان الله عليهم لأبي بكر، اختار الصحابة رضوان الله عليهم أبا بكر للخلافة كما حدث في سقيفة بني ساعدة، وإن كان النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أشار إلى ذلك بالنّص على خلاف بين أهل العلم هل النّص جليّ أو خفيّ؟ لكن وقع من الصحابة الاختيار لأبي بكرٍ رضي الله عنه، كان بالاختيار أو باستخلاف الإمام، كأن يستخلفه الإمام الذي بعده وهو ما يسمّى بلغة المعاصرين بولاية العهد، ولهذا أنا قلت لك: إنّ معاوية رضي الله عنه جعل يزيداً وليّ العهد بعده، ولهذا أخذ البيعة ليزيد في حياته، طبعاً لماذا؟ أهل الأهواء ماذا يقولون عن معاوية؟ استئثار واستبداد، طعن، أساءوا الظنّ بمعاوية رضي الله عنه، ومعاوية رضي الله عنه أبرؤ النّاس على أنّ يكون من ذلك، ولكن معاوية أراد مصلحة المسلمين واجتهد أنّها لا تتحقّق إلّا بالبيعة ليزيد، لأنّ له عَصبة هم بنوا أميّة ولهم شوكة، ولا يمكن أن تتأتّى هذه العصبة للإمام إلّا ببيعة يزيد، ولهذا أراد اجتهاداً رضي الله عنه، لا معنى أنّ يزيد هو خير النّاس في زمانه، لكن مصلحة المسلمين في ذلك، فلهذا هم يطعنون في معاوية رضي الله عنه لأجل هذا، يقولون: هو أول من رسّخ الاستبداد، للأسف أنّ بعض هؤلاء من المنتسبين للسُّنَّة، فإذاً الاستخلاف حدث من أبي بكرٍ لعمر رضي الله عنه إذ جعله الخليفة، الوسيلة الثالثة ممّا تقع بها الإمامة وتكون إمامة شرعيّة: بالقهر والغلبة، كما حصل من ولاية عبد الملك بن مروان، فعبد الملك بن مروان غلب النّاس بسيفه كما تعرفون، ومع ذلك قال أهل السُّنَّة في زمانه: إنّ إمامته صحيحة، ووقع الإجماع على أنّه من غلب النّاس بسيفه وصار إماماً لا

يجوز الخروج عليه وهو واجب الطّاعة، ولهذا بعض المعاصرين نقل كلاماً للإمام أحمد في زعمه أنّ السمع والطّاعة لا يكون إلا لخليفةٍ واحد - لا يكون إلّا لإمام واحد -، ونقل كلاماً لم يفهم عن الإمام أحمد - لأنّ الهوى أعمى قلبه حتّى ما يفهم كلام الإمام أحمد -، فقال - نقل كلاماً هو حجّة عليه - قال: إنّ الأمام أحمد لّما تكلّم عن السمع والطّاعة قال: ذاك بالإمام الّذي يجتمع النّاس عليه أو يجتمع المسلمون عليه، وبنى على ذلك أنّ تعدد الأئمّة غير جائز وأنّ هؤلاء الأئمّة الذين عندنا الآن ليس لهم سمع ولا طاعة، طبعاً هو لم يفهم كلام الإمام أحمد، يقصد الإمام أحمد رحمه الله تعالى – كما هو مصرح به في عبارات أخرى من كلامه - أن الإمام لا يكون إماما إلّا إذا اجتمع الناس عليه، يعني قهرَ النّاس وغلبهم، إذا قهر النّاس واستتب له الأمرُ صار إماماً فذلك الإمام، أمّا والنّاس لم يجتمعوا عليه والنّاس قد افترقوا عليه لا يكون إماماً حتّى يصير الأمر إليه، وهو ما يُعَنْوِنُ له أهل العلم فيمن غلبهم بسيفه وقهرهم صار إماماً، إماما شرعيا، لا خلاف بين أهل العلم، هذه منصوص عقائدهم، وهذه المسألة مع أنّها من فروع المسائل من فروع مسائل الفقه ولكن أهل السُّنَّة أوردوها في كتب الاعتقاد لأنّ هي علامة على أنّ المخالف من أهل البدع، أهل البدع يخالفون في هذه المسألة، جعلوها عنوانا، ولهذا يقول الإمام أحمد - كما هو مذكور في طبقات الحنابلة - قال: من خرج على إمامٍ من أئمة المسلمين - وقد كان النّاس اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأيّ وجه كان بالرضا أو الغلبة - فقد شقّ هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإن مات الخارج مات ميتة جاهليّة، لا مجاملات في الشريعة، ولهذا ابن كثير - وارجعوا إلى البداية والنهاية - لّما ترجم لقتيبة بن مسلم الباهلي - وهو ممّن كان على يد فتح خراسان - ولكن لّما جاء في آخر ترجمته قال: ولكنّه زلّ زلّةً عظيمة في آخر عمره - مع فضائله - فخلع بيعةَ سليمان بن عبد الملك، - هذا حصل منه -، فمات ميتةً جاهليّةً، نسأل الله أن يعفو عنه، لا مجاملات في الشريعة، من خرج على الإمام فمات؛ مات ميتة جاهليّة كما صرّحت بذلك النّصوص، لهذا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «من فارق الإمام قيد شبرٍ»[1]، ولهذا لا يكون الإيمان حتّى يكون هواك تبعاً لَمَا جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم، أن يكون الهوى تبعا لَمَا جاء النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم.

(١) صحيح البخاري (٧٠٥٤) بنحوه.

يجرّنا هذا إلى مسألة مهمة جداً – ممّن يشنّع فيها بعض المعاصرين – هل يجوز تعدد الأئمة؟ الواجب على الأمّة الإسلاميّة أن يجتمعوا على إمامٍ واحد، هذا واجب على أهل الإسلام، لكن هذا الواجب إذا لم يتمكن أهل الإسلام من تحقيقه؛ هل يقال بأنّ الأئمة لا شرعيّة لهم! كما يقول بعض المعاصرين من حزب التحرير ومن شاكلهم ممّن يشبه رأي الروافض؟ هذا بحمد الله ليس عند أهل السُّنَّة، الواجب هو نصب إمام واحد، ولكن إذا لم تتمكّن الأمّة؛ فكلّ إمام تغلّب على بلد فهو واجب الطّاعة، وهذا حدث أم لم يحدث في زمن المسلمين؟ يعني الآن من زمن مائة وستة وعشرين للهجرة والأمّة لم تجتمع على إمام، لأنّه بسقوط الدّولة دولة بني أميّة على يد العباسيّين، والعبّاسيّون ممّن غلب النّاس وقهرهم بالسّيف كما تعرفون، منذ سقوط دولة بني أميّة قامت دولةُ بني العبّاس، قامت دولة أخرى بالأندلس لبني أميّة على يد عبد الرّحمن الدّاخل بما يسمّيه بعض المؤرخين بصقر قريش عبد الرّحمن الدّاخل، ومع ذلك لم يقل أهل العلم بأنّ إمامة عبد الرّحمن الدّاخل غير شرعيّة، وهذه المسألة –جواز تعددّ الأئمة– حكى الإجماع على ذلك غير واحدٍ من أهل العلم، ممّن حكى الإجماعَ الإمامُ محمد الزهّار والشّوكاني والصنعاني كلّهم حكوا إجماع، ولهذا تعلم أن أهل السُّنَّة لا يرون الخروج على إمام المسلمين، وهذا الخروج قد يكون نظري وقد يكون عملي – الخروج على إمام المسلمين –، كيف يكون نظريا؟ يعني الاعتقاد مجرّد اعتقاد، كأن يعتقد عدمَ البيعة، أو جواز وجوب الخروج – حتّى ولو لم يحصل منه الخروج – هذا خروج، ولهذا لو اعتقد ذلك يعتبرُ خارجا عن جماعة المسلمين، ولهذا ارجعوا إلى ترجمة رجل من رواة الأحاديث ممّن كان يُحدّث بأحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم اسمه الحسن بن صالح المصري – ترجمته في تهذيب التهذيب – ماذا كان الحسن بن صالح؟ كان الحسن بن صالح يرى السيّف فهجر الأئمّةُ حديثَه، ممّن ترك حديثَه وطعن فيه الإمامُ أحمدُ والنّسائي لأجل أنّه يرى السيّف، فقط يرى، ومع ذلك ترك الأئمّة حديثه.

والصورة الثانية الخروج العملي كأن يخرج على الإمام بالسيّف، والإمام واجب الطّاعة في مسائل، يعني ممّا يذكر في ذلك ممّا تجب فيه طاعة الإمام أن يأمر بما هو واجب أو معروف بالشريعة فهو واجب الطّاعة في أصل الشرع؛ كأن يأمر الإمام بالصّلاة فهذا يطاع فيه تبعا لطاعة الله عزّ وجلّ، الأمر الثاني أن يأمر الإمام

بمعصية وبمحرّم فهذا لا طاعة للإمامِ فيه وإنّما كما قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّما الطّاعة في المعروف»، ولا يخرج عليه لأجل أنّه أمر بالمعصية كما هو مقرر.

القسم الثالث: أن يأمر بما ليس بمعصية ولا هو واجب في الشريعة؛ فطاعته هنا واجبة لأنّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمر بالسمع والطّاعة لولاة الأمر.

وَمِنْ اَلسُّنَّةِ هُجْرَانُ أَهْلِ اَلْبِدَعِ وَمُبَايَنَتُهُمْ، وَتَرْكُ اَلْجِدَالِ وَالْخُصُومَاتِ فِي اَلـدِّينِ، وَتَـرْكُ اَلنَّظَـرِ فِي كُتُـبِ اَلْمُبْتَدِعَة وَالْإِصْغَاءِ إِلَى كَلَامِهِمْ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ فِي اَلـدِّينِ بِدْعَـةٌ، وَكُـلُّ مُتَّسِـمٍ بِغَـيْرِ اَلْإِسْـلَامِ وَالسُّـنَّةِ مُبْتَـدِعٌ، كَالرَّافِضَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ، وَالْخَوَارِجِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَالْمُرْجِئَةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالْكَرَّامِيَّةِ، والكُلَّابِيَّـةِ، وَنَظَـائِرِهِمْ، فَهَـذِهِ فِرَقُ اَلضَّلَالِ، وَطَوَائِفُ اَلْبِدَعِ، أَعَاذَنَا اَللهُ مِنْهَا.

.....

قول الموفق رحمه الله تعالى: ومن السُّنَّة هجران أهل البدع، المراد بالهجر أو بـالهجران الابتعـاد عـنهم وتـرك مجالستهم والاستماع لكلامهم وترك السّلام عليهم على وجه التعزير والعقوبة لهم، والأصل في ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِـيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] لهذا قال ابن عبّـاس: لا تجالسـوا أهـل الأهـواء فـإنّ مجالستهم ممرضة للقلوب، ونقل عن السّلف كلام كثير جداً في عدم الأخذ عنهم، لهذا أيّـوب السُّـختياني – وهو من شيوخ البخاري رحمه الله – دخل عليه رجلٌ مبتدع فقال: أكلّمك، فأدخل أصبعيه في أذنيه قال: ولا نصف كلمة، وهو مشهور من كلام الأئمّة في هجران أهل البدع، لكن من المسـائل المهمّـة الّتـي ربّـما فـات ذكرها فيما يتعلق بالخروج عن جماعة المسلمين – أعيد الكلام فيها – ما يصدق عليه جماعة المسلمين؟ تكلّمنا عن الخروج عن جماعة المسلمين والخروج على إمام المسلمين، بماذا يكون الخروج عن جماعة المسـلمين؟ مـن هم جماعة المسلمين في النّصوص الشرعيّة على وجه الاختصار؟ جماعة المسلمين يصدق على أمـرين: جماعـة الأبدان وجماعة الدّين.

أمّا جماعة الدّين: فالخارج عنهم هو الخارج عن اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة.

وأمّا جماعة الأبدان: فهي الجماعة المسلمة الّتي يكون لها أمير، فالخارج عنها خارجٌ عن جماعة المسلمين.

يعني هذه المسألة تلحقونها بمسائل الإمامة – الخروج عن جماعـة المسـلمين –، جماعـة الـدّين وجماعـة الأبدان، ذكّرتني هذه المسألة لمّا تكلّمنا عن هجران أهل البدع، جماعة الدّين هي الجماعة المسلمة على اعتقـاد

(١) الأنعام: ٦٨.

أهل السُّنَّة، وهذه الجماعة قد تتعدد أماكنها، فيكون واحد في المغرب وواحد في المشرق، فهم الّذين اعتقدوا اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة؛ التّوحيد عقيدةً وعلماً ومنهجاً هؤلاء هم جماعة الدّين.

أمّا جماعة الأبدان الواردة في النّصوص، والنّصوص حثّت على لزوم جماعة المسلمين في الدّين وفي الأبدان، لكن قد تفترق، جماعة الأبدان هي الجماعة المسلمة التي يكون عليها إمام، فالخارج عنها خارجٌ عن جماعة المسلمين، من هذا تعلم أنّه لا نخرج عن جماعة المسلمين؛ يصدق على أمرين: الخروج عن جماعة الدّين والخروج عن جماعة المسلمين، كيف فهمنا ذلك؟ باستقراء النّصوص، وجدنا أنّه النّصوص تأمر بجماعة الدّين وتأمر بجماعة الأبدان.

نرجع إلى مسألة هجران أهل البدع وذكرت لك أنّ هذا أصلٌ من أصول أهل السُّنَّة، أنواع الهجر لأهل البدع، وهذه مسائل كثيرة جداً، كأن يقال هجر المجالسة: أن لا يجالس، هجر أخذ العلم عنه، الهجر بترك السّلام عليهم، الهجر بترك الصّلاة خلفهم، الهجر بترك عيادتهم وشهود جنائزهم، ولا بدّ أن تعرف أنّ الهجر من باب العقوبات والتعزيرات، وهي تختلف باختلاف الزّمان والمكان كما قَعَّد ذلك ابنُ تيمية رحمه الله تعالى ، كيف تختلف باختلاف الزّمان والمكان؟ يعني بحسب قوة المسلم في أيّ مكان كان، يعني هل يمكن أن يقال بأنّ الهجر يتأتّى من إنسان سُنِّيٍّ ومسلم في بلد كلّها على غير العقيدة الصحيحة؟ هذا مستحيل مستضعف ما يستطيع الهجر، فإذاً يختلف أحكام الهجر، فهي مسائل فقهيّة تحتاج فقه تحتاج تحقيق مناط، والهجر لا يكون إلّا لمن كان مظهراً للبدعة، داعياً إليها، هذه القواعد مما ذكرها ابن تيمية رحمه الله تعالى، وأن تكون البدعة ظهرت مخالفتُها للكتاب والسُّنَّة، بدعة ظهرت مخالفتها للكتاب والسُّنَّة، بمعنى أنّ مسائل النزاع أو كذا لا يبدّع فيها ويهجر، ولهذا ذكر شيخ الإسلام من شروط الهجر:

الإخلاص من الهاجر، أن يكون باعث الهجر ما هو؟ الإخلاص.

الشرط الثاني: بلوغ الحجّة بحق المهجور فلا تهجر من لم يتبيّن له الحق في المسألة – تهجره فقط لمجرّد أنّه قال قول –.

الأمر الثالث من شروط الهجر: تحقّق وجود المصلحة، إذا لم يكن ثمَّ مصلحة شرعيّة في الهجر فلا فائدة فيه، ولهذا قلنا: إنّ الهجر من باب العقوبات.

الشرط الرّابع: القدرة من الهاجر على الهجر، كأنّ يكون الإنسان في بلد الأعمّ فيها أهل البدع فما له قدرة أصلاً في الهجر، وهذا يدلّك على أنّ بعض المعاصرين انقسموا إلى قسمين: إمّا طائفة أهملت هذا الأصل من أصول أهل السُّنَّة فلا يرون الهجر، يخالطون أهل البدع ويجالسونهم وربّما زاروا أهل البدع، هؤلاء مخالفون للسُّنَّة، وطائفة أخرى ممّن تعمّق في هذه المسائل فَهِمَ فهماً خاطئاً لكلام السّلف، فصار يهجر بإطلاق، ويبدّع بإطلاق، ولهذا تأتي معنا مسألة، هي مسألة ما يحصل به الابتداع؟ ما يعدّ الرّجل به مبتدعا خارجا عن سبيل المؤمنين؟ سأذكرها لكم إن شاء الله، لكن أحبّ أن أذكر لك شيئاً ذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى فيما يتعلّق بالهجر، ممّن يغلو في هذه المسائل، قلنا هناك ناس عندهم تفريط وأشخاص عندهم إفراط في مسائل التبديع، ولهذا هؤلاء يستدلّون بكلام للأئمّة من المتقدمين كالبربهاري وابن بطّة وأئمّة من أئمّة السّلف في مسائل الهجر ويجعلونها قواعد شرعيّة، قواعد يحتكمون إليها، ولا يفهمون هؤلاء النّصوص المنقولون عن الأئمّة بفهم العلماء، يعني مثلاً الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين هؤلاء يعزلونهم عن هذا الفهم لزعمهم أنّهم يتبعون الأئمّة المتقدمين، هذا الحقيقة جناية على الشّريعة، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى – وهذه فائدة عزيزة – في مجلد ثمانية وعشرين صفحة مائتان وثلاثة عشر؛ مفهوم كلام شيخ الإسلام – أنقل كلام الشيخ بتصرف – يقول : لا يجوز جعل ما أفتى به إمامٌ من أئمّة السُّنَّة في قضيةٍ مخصوصة من قضايا الهجر حكماً عامّاً في جميع الفصول والأزمان، أعيد العبارة: لا يجوز – هذا مفهوم كلام شيخ الإسلام؛ يعني– قاعدة : لا يجوز جعل ما أفتى به إمام من أئمّة السُّنَّة في قضيةٍ مخصوصة من قضايا الهجر حكماً عاماً في جميع الأحوال والأزمان، صفحة مائتان وثلاثة عشر من مجموع الفتاوى مجلد ثمانية وعشرين.

وأنا الحقيقة رسالة الدكتوراه عندي في منهج شيخ الإسلام في بيان البدع والردّ عليها – إن شاء الله تطبع قريباً –، أنا حينما استقرأت نصوص ابن تيمية رحمه الله تعالى استنبطت قواعد، من القواعد التي ذكرتها وفهمتها من مفهوم كلام شيخ الإسلام هذه القاعدة – وصرّح بها الشيخ في عباراته –، يعني مثلاً كلام الأئمّة في قضيّة يجعل أصلا، وهذا فهم إمام من نصّ في قضيّة معيّنة، وهذا ليس في قضايا الهجر وإنّما في قضايا أخرى، لا بدّ أن القضايا – الفتاوى – لا بدّ أن يكون لها ملابسات فتفهم الفتاوى بملابساتها وبالمحيط بها، أمّا أنّك تستقلّ بهذا النّص وتجعله قاعدة عامّة فهذا غلط وجناية على كلام الأئمّة.

ممّا تحصل به المفارقة لأهل السُّنَّة، كيف يُعدّ الإنسان خارجا عن السُّنَّة؟ هذه مسألة مهمّة لا بدّ من بيانها، كيف يُعدّ أنّ هذا مبتدع، ما يعدّ أنّه مبتدع؟ ما الذي يخرج به الإنسان من السُّنَّة؟ هذه مسألة مهمّة لا بدّ من بيانها، أن يقال: الخروج عن السُّنَّة هو الخروج عن أصل من أصول أهل السُّنَّة، أصول أهل السُّنَّة مذكورة وقد ذكرها ابن قدامة رحمه الله تعالى، مثل مِنْ أصول أهل السُّنَّة تولّي الصحابة، من أصول أهل السُّنَّة في مسائل الإيمان الايمان يزيد وينقص؛ هذه أصول، فالمخالف في هذه الأصول مخالف للسُّنَّة والمخالف يعدّ من أهل البدع – إذا خالف في أصل –، ولهذا من أصول أهل السُّنَّة السّمع والطّاعة للإمام وإن جارَ، فمن خالف في هذا الأصل عُدَّ مبتدعاً، عُدَّ من أهل البدع ، ولهذا بدّعَ الأئمّةُ الحسنَ بن صالح لأنّه كان يرى السّيف، يعني يرى جواز الخروج على الإمام، هذه أصول، من خالف في هذه الأصول فهو مبتدع، لا إشكال في ذلك فهو مخالف لجماعة المسلمين، كأن يتأوّل الصّفات على طريقة الأشعريّة أو غير ذلك من المسائل، لكن قد يكون المخالف في فرعٍ لأصل من أصول أهل السُّنَّة – فرع وليس أصل –، أنا أمثل لك بالفرع، الفرع لأصل كأن يكون على سبيل المثال حديث من أحاديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الصفات في ذكر صفة لله عزّ وجلّ فلا يثبت هذه الصّفة أو يتأوّلها، هل يقال: بأنّه لأجل هذه المسألة أنّه خارج عن السُّنَّة، ابن خزيمة رحمه الله تأوّل حديث الصّورة ومع ذلك هو إمام من الأئمّة، فقد يفارق في فرعيّات لا في أصول، فلا يعدّ بمفارقته أنّه مفارق للسُّنَّة؛ إلّا – إلى قاعدة أخرى أنقلك إليها – إلّا إذا ترتب على مخالفته لهذا الفرع من أصل الموالاةُ والمعاداةُ فإنّه عند ذلك قد فارق جماعة المسلمين ويُعدّ من أهل البدع، ولهذا قَعَّدَ شيخ الإسلام لقاعدة مهمّة قال: كلّ خطأٍ في المسائل العلميّة – يعني مسائل الاعتقاد – والمسائل العمليّة – يعني مسائل فروع الشّريعة – لا يترتب عليه مفارقة لجماعة المسلمين ولا موالاة ولا معاداة؛ فهو من نوع الخطأ المغفور.

وَأَمَّا اَلنِّسْبَةُ إِلَى إِمَامٍ فِي فُرُوعِ اَلدِّينِ كَالطَّوَائِفِ اَلْأَرْبَعِ فَلَيْسَ بِمَذْمُومٍ، فَإِنَّ اَلِاخْتِلَافَ فِي اَلْفُرُوعِ رَحْمَةٌ، وَالْمُخْتَلِفُونَ فِيهِ مَحْمُوْدُوْنَ فِي اِخْتِلَافِهِمْ، مُثَابُونَ فِي اِجْتِهَادِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاتِّفَاقُهُمْ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَعْصِمَنَا مِنَ البِدَعِ وَالفِتْنَةِ، وَيُحْيِيْنَا عَلَى الإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ، وَيَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَتَّبِعُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَيَاةِ، وَيَحْشُرَنَا فِي زُمْرَتِهِ بَعْدَ المَمَاتِ؛ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، آمِيْن.

وَهَذَا آخِرُ الْمُعْتَقَدِ.

وَالحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

.....

تحت هذا الكلام من ابن قدامة رحمه الله تعالى مرّ ذِكْرُ (وكل متسمٍّ بغير الإسلام والسُّنَّة فهو مبتدع) فذكر ابن قدامة رحمه الله تعالى جملة من علامات أهل البدع أنهم لا يتسمّون ولا ينتسبون إلى الإسلام والسُّنَّة، بل يوصفون بما يُحدثونه من البدع القولية أو العملية؛ كالإمامية أو الإثنا عشرية أو الرافضة أو ما يسمّى بالصوفية، تجد أنهم ينتسبون إلى ماذا؟ أو يُنسبون إلى بدعهم، فمثلاً الرافضة يتبرّؤون من هذه النسبة لكنهم لو قيل لهم الإمامية لقبلوا ذلك، فهم يُنسبون إلى بدعهم، كذلك أن أهل البدع يوالون ويُعادون على هذه التسميات المبتدعة، ولهذا هم إنّما سُمّوا رافضة لأنهم رفضوا إمامة زيد بن علي، كذلك من علامات أهل السُّنَّة أنهم لا ينتحلون

مذهب السّلف بل يعادونه، ولهذا الانتساب إلى السّلف من علامات السُّنَّة؛ أن ينتسب الإنسان إلى مذهب السّلف وأن ينتحل مذهب السّلف، وأمّا إذا خالف ذلك وتبرأ فذلك دليل على أنه على غير سبيل المؤمنين.

ثمّ ذكر الموفق رحمه الله تعالى جملة من أهل الأهواء والفِرَقِ المخالفة للسُنَّة، فذكر الرافضة وإنما سُمّوا بالرافضة لأنهم رفضوا إمامة زيد بن علي وأصل الرفض - يعني أنا أعطيك عبارات مختصرة - أصل الرفض كان موجودا قبل ذلك، الرافضة وجودهم قديم وهم السبئية قبل ذلك، ولكن إنما سُمّوا بالرافضة وصار ذلك لقبا عليهم لمّا رفضوا إمامة زيد بن علي، تعرف التاريخ العلمي أو تاريخ للفرق أن الرافضة

موجودة في وقت عبد الله بن سبأ.

ثمّ الجهمية: وهؤلاء نسبة إلى جهم بن صفوان الذي قتله مسلم بن أحوز.

ثمّ الخوارج: وهؤلاء الخوارج هم الذين خرجوا على أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

والقدرية: وهم نفاة القدر، وأول من قال بذلك كما قدّمنا معبد الجهني وغيلان الدمشقي.

ثمّ المرجئة: وهم الذين لا يُدخلون العمل بالإيمان، والإيمان عندهم مجرّد الإقرار بالقلب.

ثمّ المعتزلة: وهم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد.

ثمّ الكُرّامية: أتباع محمّد بن كرّام، وهؤلاء يُنسب لهم القول بالتمثيل والإرجاء.

ثمّ السالميّة وهم أتباع ابن سالم.

ثمّ الكُلّابية: وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلّاب، وقولهم قريب من قول الأشعرية في كلام الله عزّ وجلّ، وهم قد مرّ معنا أنهم يجعلون الصفات الفعلية أزليّة كما قد قدّمنا.

ثمّ ختم ابن قدامة رحمه الله تعالى كلامَه بالصّلاة على النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وسأل الله سبحانه وتعالى أن يعصمنا وأن يعصمه من البدع والفتن، ونحن نتأسّى به في هذا فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يعصمنا جميعاً من البدع، وأن يحيينا على الإسلام والسُّنَّة، وأن يوفقنا إلى كل خير، وأن يوفقنا إلى العلم النافع والعمل الصالح وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد.

أسئلة:

- سؤال: مدّة الخلفاء الراشدين لو أُعيد ذكر المدد بالتفصيل.

جواب: أبو بكر؛ سنتان وثلاثة أشهر وتسعة أيام، عمر؛ عشر سنوات وستة أشهر وثلاثة أيام، عثمان؛ اثنتا عشر سُنَّة إلّا اثني عشر يوماً، وعلي؛ أربع سنوات وتسعة أشهر، مجموع هؤلاء تسع وعشرون سُنَّة وستة أشهر وأربعة أيام، بقي مدّة، هذه المدّة قال أهل العلم: إنها هي خلافة الحسن بن علي ويحصل بها تمام المدّة التي ذكرها النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «خلافة النبوّة ثلاثون سُنَّة ثمّ يؤتي الله الملك من يشاء»(١).

- سؤال: عن هجران أهل البدع ومنع أخذ العلم منهم، ولكن يقول مثلاً الإمام أخذ عن أهل البدع.

جواب: الأخذ عن أهل البدع له ضوابط، وهذه المسألة طويلة الذيول بحثها، لكن الأصل أن الإنسان لا يأخذ عنهم إلّا على وجه الضرورة ووجه الحاجة، والأصل أن يهجر أهل البدع ولا يأخذ عنهم.

- سؤال: اتفاق أهل السُّنَّة على أن الإمام في جهاد الدفع ويقول لم تذكر قول الإمام مالك.

جواب: أنا أذكر أنّي ذكرت قول الإمام مالك، لكن نصّ الإمام مالك لا أذكره لكن هذا موجود في كتب فقهاء المالكية وذكروا أن الإمام مالك قال: (إذا نزل العدو بساحل المسلمين- هكذا- فهل لهم أن يقاتلوا دون أن يستأذنوه؟ الإمام قال: لا؛ إلّا أن يستأذنوه) فدلّ ذلك على أن جهاد الدفع في عرف المعاصرين وجهاد الطلب لا يكون إلّا بالإمام، يا إخوان مصلحة الجهاد لا تتأتّى إلّا بهذا، من باب الشيء بالشيء يُذكر؛ حتّى الكفّار لا يقاتلون إلّا تحت إمام، مصلحة القتال لا تكون إلّا بإمام، إذا لم يوجد إمام واجتمع الناس عليه لا يحصل للمسلمين، ولهذا واجب عليهم أن يقاتلوا تحت هذا الإمام، قد يقول شخص مثلاً، كيف إذا كان العدو قد نزل ببلد- نسأل الله أن يعيذنا من الفتن - عدو نزل ببلد من بلدان المسلمين ودخل عليهم، الأئمة أفتوا بذلك قالوا: أرجو أن يكون دفعاً عن المسلمين، لكن لا تسميه الجهاد الشرعي وتُنَزِّل عليه نصوص الشريعة، هذا يسمّى من باب دفع الصائل ، لأنهم لا يمكنهم أن يستأذنوا الإمام، ولأن مصالح الجهاد لا تتحقق إلّا بوجود الإمام، كيف لا يمكنهم أن يستأذنوا الإمام؟ لأن الإمام قد يرى أن العدو مثلاً يُتنازل به أو يُتنازل بالجهة الشمالية منه، فإذا قاتلت خالفت رأي الإمام، فالأصل أنك تستأذن،

(١) سبق تخريجه.

لكن إذا ما تمكنت فهذا من باب الدفع عن نفسك، ومن قاتل دون ماله ودينه وعرضه فهو شهيد[1] - كما صرّحت بذلك النصوص -، ولكن لا نبالغ في مثل هذه الأمور ونعرفها على حقيقتها ونترك العواطف والأمور هذه، ولهذا الشيخ ابن العثيمين في لقاء الباب المفتوح في مواضع سُئل عن هذه المسائل - أرجو أنكم ترجعون لها - وصرّح من سأله قال: إنك قلت في زمن بجواز الجهاد في أفغانستان؛ وأراك الآن في قضية كشمير ترجع عن هذا؟ قال الشيخ: إنما قلنا بذلك؛ ورجعنا عن ذلك؛ لأننا علمنا من واقع المسلمين وكذا أنه لا تتأتى في ذلك مصلحة، واقع الآن يثبت ذلك، ما يُسمّى بحرب العصابات لا تحصل فيه النكاية في العدو ولا تتحقق فيه مصالح المسلمين، ثمّ إن قضايا الجهاد من الافتئات على إمام المسلمين، إعلان الجهاد لا يكون إلّا من إمام المسلمين، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[2]، فإذاً مسائل الحرب والسلم لا تكون إلّا بإمام.

- سؤال: هل من مات على الكفر مثل اليهود والنصارى والمجوس يجوز أن يُشهد له بالنار؟

جواب: نعم، من مات على الكفر يُشهد له بالنار كما صرّح بذلك أهل العلم.

وصلّى الله وسلّم على نبيِّنا محمّد.

---

(١) صحيح. أبو داود (٤٧٧٢) بنحوه. الإرواء (٧٠٨).

(٢) النساء: ٨٣.